

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY



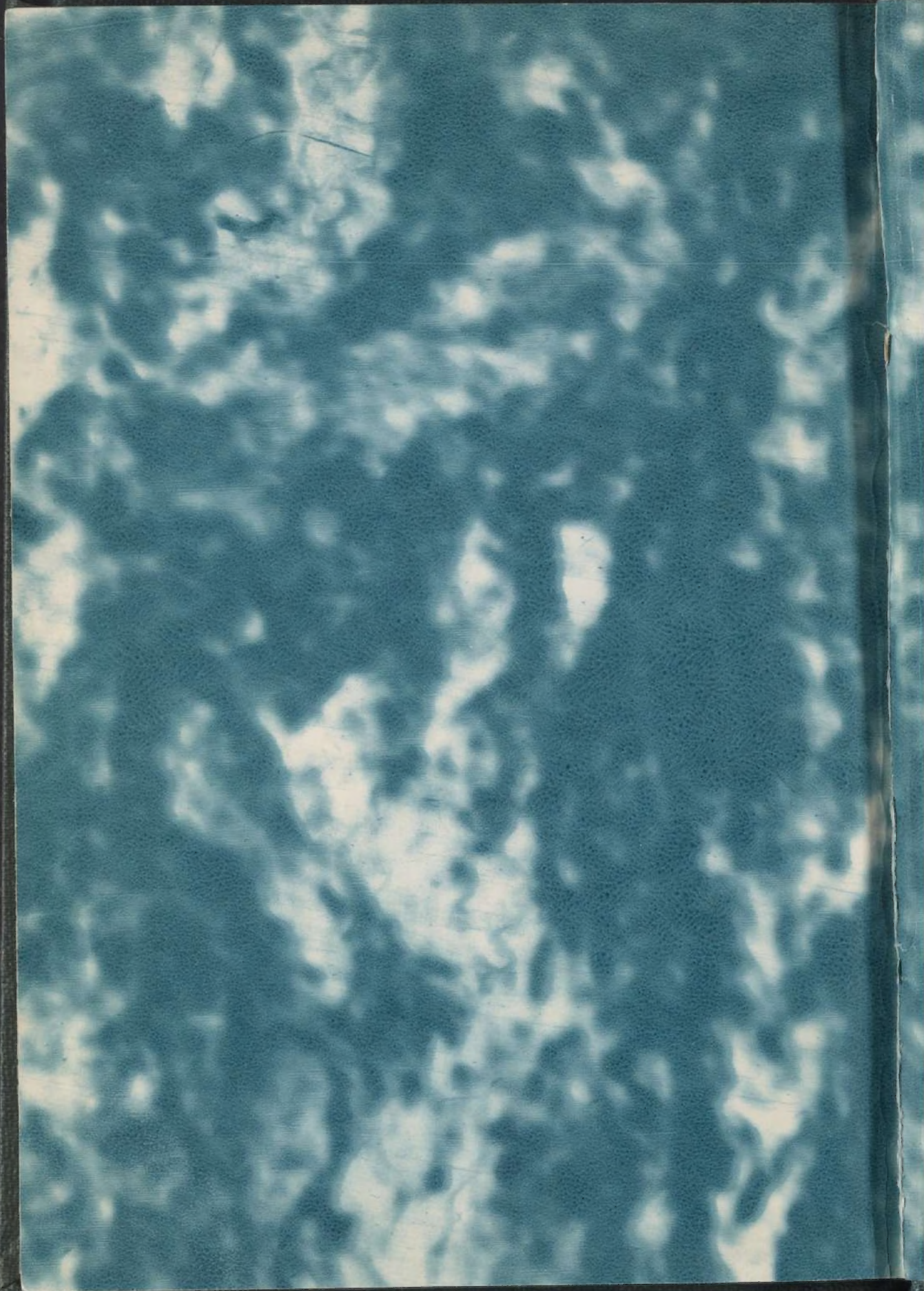
3 8534 00858 4520



FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الأمريكية بالقاهرة





Y

الدكتور طه الحافري

تجربة مودة دود فادس
الحافري

BP
80
I 26
H 3

ابن حزم

صورة اندلسية

مكتبة الطبع والنشر
دار الفكر العربي

۹۷
۱.۶۷

مکتبہ اسلامیہ
کراچی

مکتبہ اسلامیہ

مکتبہ اسلامیہ
کراچی

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى تلك الصورة الرائعة التي مازالت حاضرة في ذاكرتنا ،
مشرقة في ضمائرنا ، موجهة لأمالنا ومطامحنا ؛ صورة النشاط العقلي
المتوثب ، والحياة الفكرية الناضرة ، التي كانت تطبع — منذ ثلاثين
عاماً — حياتنا الشابة ، فتحيلها جذوة مشبوبة متقدة .

إلى تلك الروح التي أحالت حياتنا ، هاتيك الأيام — على
ما كان يكتنفها من ضيق ، وما كان يكتئدها من صعب — متعة دائمة
مطرودة ، ونشوة هائلة متجددة .

إلى تلك الصداقة العقلية والروحية التي كانت — وما تزال —
ذخر قلوبنا ، والمتاع الأكبر لأرواحنا وعقولنا ؛ والتي كانت —
وما تزال — تتمثل — أسمى ما يكون ، وأصنى ما يمكن ، وفي
أقوى صورة وأنضرها — في هذه الفئة المغمورة في عباب الحياة
الدنيا ، المحلقة دائماً في سماء الفكر والمثل العليا .

وإلى هؤلاء الأصدقاء ، الذين هم دائماً أمل القلب والفكر والضمير ،
أهدى هذا الكتاب .

الحكمة

الحكمة هي التي تميز بين الخير والشر
 وبين الحق والباطل وبين العدل والجور
 وبين النجاسة والطهارة وبين الضيق واليسر
 وبين الغنى والفقر وبين العيش والموت

الحكمة هي التي تميز بين الخير والشر
 وبين الحق والباطل وبين العدل والجور
 وبين النجاسة والطهارة وبين الضيق واليسر
 وبين الغنى والفقر وبين العيش والموت

الحكمة هي التي تميز بين الخير والشر
 وبين الحق والباطل وبين العدل والجور
 وبين النجاسة والطهارة وبين الضيق واليسر
 وبين الغنى والفقر وبين العيش والموت

الحكمة هي التي تميز بين الخير والشر
 وبين الحق والباطل وبين العدل والجور
 وبين النجاسة والطهارة وبين الضيق واليسر
 وبين الغنى والفقر وبين العيش والموت

تمهيد

عرفت ابن حزم أول ما عرفته منذ نيف وعشرين عاما ، حين أخذت إحدى دور النشر بالقاهرة تخرج كتابه المحلى . ولست أستطيع أن أذكر الآن على وجه الدقة ما الذى شغفنى إذ ذاك بهذا الكتاب ، وجعلنى حريصا على اقتنائه ، حقيقيا به ، مقبلا على قراءته ، فالمدى بعيد ، والأحداث كثيرة ، والتيارات مختلفة متواترة . ولكن الذى أذكره أن هذا الكتاب كان يمثل فى أذهاننا الغضة وقلوبنا المتفتحة فى ذلك الوقت حلقة من حلقات تلك الكتب التى جعلت تظهر إذ ذاك واحدة بعد الأخرى ، لابن القيم وابن تيمية والشوكانى . وكانت تعتبر إلى حد ما مظهرا من مظاهر التجاوب مع ما كان يسيطر علينا ويغمر نفوسنا ويوجه تفكيرنا إذ ذاك من رغبة قوية جارفة عارمة فى التجديد الدينى ، والرجوع بالتشريع الإسلامى والمعرفة الإسلامية عامة إلى مصادرها الأولى ومنابعها البعيدة ، نقية صافية بريئة مما تركته عليها الأجيال المتعاقبة المختلفة من أضرار وأوزار ، جعلتها كريهة المذاق ، بغيضة الصورة ، ثقيلة الطلعة .

وما أريد أن أسترسل فى بيان عوامل ذلك الهوض الدينى ومظاهره وأسبابه القريبة والبعيدة ، ونتائج المؤكدة والمحتملة ، فذلك بحث طويل . تشعب أرجو أن تتجه إليه هم الباحثين فى تاريخ حياتنا العقلية الحديثة اتجاهها صادقا مصمما . وإنما أذكر أن ابن حزم أخذ منذ ذلك الوقت يحتمل

في أذهاننا قبل الإيمان في هذا الكتاب قراءة ودراسة مكان الرجل الحر
الفكر ، الذي يصلح أن يكون دعامة من دعائم التحرر الديني .

فإذا أقبلت على الكتاب وجدته رجلاً قوى الشخصية إلى أبعد
مدى ، عظيم الاعتداد بنفسه إلى أبعد غاية ، ولكنه اعتداد قوامه الفهم
العميق ، والعقل المحكم الوثيق ، والعلم الواسع الدقيق ، والإيمان القوى ،
والقدرة البالغة على التغلغل في بواطن الموضوعات التي يعالجها ، واستشفاف
ما عسى أن يكمن وراءها ، وعلى الجدل والمناظرة ، وعلى الإقناع أو الإخام

يعرض المسألة من مسائل الفقه الإسلامي ، مقررّاً فيها رأيه ، وهو رأى
لا يستند إلا إلى الأدلة الماثورة : القرآن وما صح من الحديث ، كما هو
مذهبه ، ثم يذهب يعرض آراء الأئمة السابقين : مالك والشافعي وأبي حنيفة
والأوزاعي ومن إليهم ، في هذه المسألة ، مع إيراد أدلتهم وبيانها ثم تفنيدها ،
إذ يعرضها على الآثار المروية الصحيحة ، أو يعرض الآثار التي اعتمدها
هؤلاء الرجال على النقد ، إذ ينقد أسانيدها ويتحدث عن رجالها ، ثم
ينتهي بأن يصك رأيه فيها صكاً ، لا يتجمل ولا يترفق ولا يتلطف

وما زلت أذكر له هذه العبارات وأسمع في نفسي — بعد هذه السنين
الطوال الخافلة — أصداها متجاوبة : « أما قول أبي حنيفة ففي غاية
التخليط والتناقض والفساد » ، « أما قول مالك فظاهر الخطأ » ، « هذا كذب
مجرد لا ندري كيف استحلّه من أطلق لسانه به » . وما أزال أذكر كيف
كنت أستقبل هذه العبارات وما فيها من تهجم على الأئمة السابقين

المحرفين في أنفسنا بمعاني القداسة ، وكيف كنت أستشعر الفرع منها ،
وأحس ديب السخط يدب في نفسي وأنا أقرؤها ، فأغالب الفرع وأقاوم
السخط ، ثم ما تلبث سعة علم الرجل وقوة حجته ، ونصاعة أدلته ، وبسطة
عبارته ، أن تعفني على ذلك وتزيل أثره .

وما ظنك برجل يستطيع أن يتناول الأمور التشريعية كلها : عباداتها
ومعاملاتها ، ويقضى فيها ، دون أن يرجع في شيء منها إلى الكتاب
والسنة الصحيحة والإجماع التام على ما هو عنده . أما القياس والرأي فباطل
ومنكر وفساد كبير ، ثم هو يستطيع مع هذا أن يحتج لجميع ما يذهب إليه
من ذلك احتجاجاً يمضى نحو الإقناع أو الإفحام بقوة .

ومهما يكن الرأي في ابن حزم وفي المذهب الظاهري الذي يدين به
ويدعو إليه ، ولسنا من بيانه في قليل ولا كثير ، فالذي لا ريب فيه
عما يدل عليه هذا الكتاب ، أن الرجل يمثل الشخصية المستقلة ، والعقل
الحر القوي ، والأفق الواسع الرحيب .

وبهذا الاستقلال في الرأي ، والبعد — قدر ما يمكن أن يتاح لرجل
مثله — عن تلك الرواسب التي أرسبتها الأجيال المختلفة ، وكثير منها كان
يخضع لألوان من الفساد الاجتماعي تؤثر تأثيراً قوياً في التفكير الديني ، كان
ابن حزم يعتبر من الدعائم القوية التي يمكن أن تقام عليها النهضة الدينية
بترية الروح الاستقلالية ، والتخلص من شعور القداسة الذي يربطنا
بأمراس قوية بالمتقدمين دون تمييز ، فلا نكاد نملك — فيما كان يسود بيننا
إذ ذاك — أن نحرر نظراً ، أو نستقل بتفكير .

ومهما يكن من أمر فما أزال أذكر كيف خرجت من قراءتي لكتاب
الحلى لابن حزم ، وأنا أتمثله في صورة الرجل القوى العملاق الممتلئ النفس
ثقة ، الذي لا يدين لأحد إلا ما يذهب إليه بنفسه ، وما يؤدي إليه تفكيره ،
فإذا أدى إلى شيء فاقتنع به وآمن أنه الحق ، ذهب ينشره ويذيعه ، ويذهب
إلى إذاعته والإقناع به كل مذهب ، لا يعيباً بأحد ، ولا يكثر بما عسى
أن يعترضه في ذلك .

تلك هي الصورة التي أداها إلى كتاب الحلى عن صاحبه ، وإن كنت
أراه أحياناً يعتسف السبل ويتكلف الحجج ويخطئ الهدف ، ولكن
شيئاً من ذلك لم يمنع تلك الصورة أن تظل ماثلة في خيالي واضحة قوية ،
ثم أتيت لي بعد ذلك أن أقرأ كتابه الآخر : الفصل في الملل والأهواء
والنحل ، فإذا هو هو سعة علم وقوة عقل ومهارة في المناظرة وبراعة في إدارة
الخصم ، وثقة بالنفس واعتداداً بها ، ثم سلاطة لسان بعد ذلك ، نعتفرها
نحن الذين ننكر هذا اللون من ألوان المناقشة ، ونفر منه ونفرع ، لتلك
الصفات العلمية الرائعة ، وتلك السمات الجميلة الأخاذة من شخصيته . ومن
لك بأخيه كله ، ومن ذا الذي يرضى سجاياه كلها .

وإنه لحسبنا من الرجل أن يتوفر له ما نسميه الآن بالشجاعة الأدبية ،
لنحله في أنفسنا أعلى مكان ، ونرفعه في تاريخنا العقلي إلى أسمى ذروة ،
ونجعله مثلاً عالياً وهاجاً نبصر به الناشئة الذين ما يزال الفساد الاجتماعي
الذي يسود حياتنا يأخذهم في كل وقت باصطناع المسامحة والمساهلة والمجاملة

والمجاعة والمسايرة ، إلى آخر تلك المعاني التي تدل على تحلل النفس وضعف الخلق وتلاشي الشخصية ، حتى كاد يفقد صاحب الرأي الإيمان برأيه في تلك الغمرة الطاغية ، بل حتى كاد يذهب الرأي جملة ، ولا تبقى إلا العوارض الوقتية أو الأهواء الشخصية ، تلبس لكل حالة لبوسها ، فيسير في ركبها فريق ، وينطوي الآخرون على أنفسهم في صمت .

لو لم يكن للرجل من فضيلة غير هذه الفضيلة التي أودى بسببها أشد الإيذاء في شتى أطوار حياته ، وترادفت عليه — بسبيل منها — عبارات التشنيع والتشهير بعد وفاته ، لكان بحسبه ذلك فضلا ، وبحسبنا منه . فقد بلغ فيها الغاية ، وأوفى فيها على مثلها الأعلى .

وإننا لنرى هذه الفضيلة في كتبه التي بلغتنا عامة ، كما نراها مركزة في عبارات جامعة ، ضمنها رسالته الصغيرة الجيدة التي وضعها فيما يبدو في آخر حياته ، وهي رسالة الأخلاق والسير ، وهي كلمات تعبر عن هذه الخصلة تعبيراً بليغاً واضحاً قوياً ، كما تعتبر في نفسها من جوامع الكلم في هذا الموضوع ، كقوله :

« العاقل لا يرى لنفسه ثمناً إلا الجنة » ، وقوله : « لا تبذل نفسك إلا فيما هو أعلى منها ، وليس ذلك إلا في ذات الله عز وجل . . . وباذل نفسه في عرض دنيا كبائع الياقوت بالخصي » ، وكقوله : « . . . وأما الذي يعيبني به جهال أعدائي من أنني لا أبالي فيما أعتقد حقاً عن مخالفة من خالفته ؛ ولو أنهم جميع من على ظهر الأرض ، وأنني لا أبالي موافقة أهل بلادى في كثير من زيهم الذي قد تعودوه لغير معنى ، فهذه الخصلة

عندي من أكبر فضائل التي لا مثيل لها . ولعمري لو لم تكن في
— وأعوذ بالله — لكنت من متمنياتى وطلبائى عند خالق عز وجل .
وأنا أوصى بذلك كل من يبلغه كلامى ، فلن ينفعه اتباع الناس فى الباطل
والفضول إذا أسخط ربه ، وغبن عقله ، أو آلم نفسه وجسده ، وتكلف
مؤونة لا فائدة منها » ، إلى غير ذلك من الكلمات المبثوثة فى أطواء ذلك
الكتيب ، مما ينبغى أن نقيمه نبراساً فى حياتنا العلمية .

لو لم يكن للرجل إلا هذه الفضيلة لكفاه وكفانا به ، ولكن للرجل
إلى جانبها من الفضائل ما يجعله جديراً بأرفع آيات التمجيد : هذه الإحاطة
العالمية الشاملة التى نراها رأى العين فيما بقى لدينا من كتبه ، وهو قليل
من كثير ، بعد الذى تعرضت له من النكبات الخاصة ، ونكبات
المكتبة العربية عامة ، فقد اجتمع لدى ابنه أبى الفضل رافع أر بمائة مجلد
فى نحو ثمانين ألف ورقة ، وهو تراث غاية فى الضخامة كما ترى . ويصف
معاصره صاعد الأندلسى مبلغ علمه ، فيقول : « كان ابن حزم أجمع أهل
الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام ، وأوسعهم معرفة ، مع توسعه فى علم اللسان
وبلاغة الشعر والأخبار »

ثم هذه المقدرة العقلية العجيبة حقاً فى الفهم الدقيق الشامل ، وفى
الاستنباط والاستنتاج ، وفى نقد آراء الغير ومجادلتهم ومناظرتهم ، وهى خاصة
عقلية لا تفارقه فى أى حال ، فلا نكاد نجده مرة نأثم العقل أو مسترخى
الذهن أو مستسماً للنقل ، فليس الرجل فى كتبه وتأليفاته ، ما صغر منها
وما كبر ، جماعة من هنا ومن هنا ، يحشد فيها ما يحفظ ويقرأ كما نعرف

في كثير من الكتب ، وإنما هو حاضر العقل يقظ الذهن دائماً ، كل ما يقوله
يجب أن يمرّ من رأسه أولاً ، ويجب أن يتردد بين تلافيف مخه ، وكل
ما يقرؤه أو يحفظه ، مما هو في حاجة إلى إirاده ، يجب أن ينظر فيه نظر الناقد
البصير الذي يحكم في نقده علمه وعقله ، ولا يكاد يحكم شيئاً غيرها ، إلا ما
لا يقع تحت إرادته ، ولا يدخل في نطاق وعيه ، وإن كان يتوقاه جهده .
وهكذا نرى أن فضل ابن حزم لا يقف عند تلك الخلة التي جلبت
عليه ما جلبت في حياته وبعده مماته ، وإنما هو يعتبر مرجعاً من المراجع
العظيمة الرئيسية التي نرجع إليها في تعلم العلم في نفسه ، وقد انقطعت الأسباب
بيننا وبين كثير من هذا العلم ، ثم في تعلم الأسلوب العلمي في التفكير
والتقدير ووزن الأمور وفي تربية الملكة النقدية وقد يكون في هذا الأسلوب
ما يعاب ، ولكننا إنما نحكم على الشيء بحملته وفي مجموعه ، وبالصفة الغالبة
عليه ، والأصل العام فيه ، وهو الذي ينتهج ويحتذى ، أما ما وراء ذلك
فلكل امرئ منهجه المتأثر بطبيعته ومزاجه وملابسات حياته . ثم هو بعد
ذلك كله أو قبل ذلك كله من خير الأمثلة التي يجب أن تتمثلها في التحرر
العقلي ، وخلق العامية ، والشجاعة الأدبية .

هذه هي مكانة الرجل الممتازة في حياتنا العقلية ، وفي تاريخنا العلمي ،
وهي مكانة جديرة بالرعاية ، حقيقة بالدرس والتأمل والتدبر ، خليفة بأن
نشدبها ونوجه إليها ونحرص على إبرازها .

والحياة الأندلسية التي ينتمى إليها ابن حزم جديرة كلها بكل عناية
ورعاية ودرس عميق دائم متصل . إنها فترة منقطعة من التاريخ الإسلامي ،

عدت عليها العوادي فقطعت صلتها بمجرى ذلك التاريخ ، وقيل : هنا نهاية الأندلس الإسلامية وبداية أسبانيا النصرانية . ولكن إذا صح هذا في التاريخ السياسي ، ولعله غير صحيح ، فإنه لا يمكن مطلقا أن يصح في التاريخ العقلي والأدبي ، فالعقل الأندلسي هو وجه من وجوه العقل الإسلامي ، والأدب الأندلسي هو لون من ألوان الأدب العربي . وما زال العقل الإسلامي في كافة عهوده وجميع مواطنه يكون سلسلة متصلة الحلقات متلاحمة الأجزاء لا يمكن الفصل بينها والتفريق بين ما هو هنا وما هو هناك . وكذلك الأمر في الأدب العربي عامة ، فقد تختلف طوابعه بين عصر وعصر وبين بيئة وبيئة ، واسكنه كله آخذ بعضه برقاب بعض ، في نمط متصل ينتظم أجزائه وألوانه جميعا .

وإذن فليس يكفي أن نعتبر تلك الحياة الأندلسية أطلالا دارسة ، نقف عليها لنحييها ونبكيها ونتحسر على أيامنا فيها ، ونسترجع عهودنا الماضية في أكنافها ، لأن فيها من الذكريات ما يثير شجوننا ويستدر دموعنا ويهيج حسراتنا . فما أتفه صنيعا لهذه الأطلال التي تمثل لنا أبوة مجيدة ، وعزة سامقة ممدودة ، وحضارة غمرت الآفاق بنورها ، وصوتنا عاليا مرهوبا دانت له الدنيا رغبة ورهبة ، أن نكتفي بالمشول أمامها كما كان يمثل ذلك البدوي أمام الدمن البوالي والآثار الدوارس يبكيها ويناجيها ، إذ ما كان يملك غير ذلك الصنيع الساذج الأولى .

فإنما واجبنا أن نتجاوز هذا الطور البدائي في أداء حق هذه الأطلال علينا ، وهي التي تتمثل في تلك البقايا المتناثرة والآثار المبعثرة من الحياة

الأندلسية ، فنبذل ما نملك من جهد في استحيائها ، ونصطنع كل ما أتيح
لنا من أساليب علمية ووسائل فنية لجمع شتاتها وضم أجزاءها وتنسيق ما بينها
ونفخ الحياة فيها ، وعرضها بعدُ في صورة جميلة محققة : ترضى العلم وتعجب
الفن ، وتجذب فيها الروح العربية الإسلامية حاجتها .

وهذا البحث الذي أقدمه اليوم عن ابن حزم هو مساهمة متواضعة
في تحقيق هذا الهدف ، حاولت فيه أن أعرض صورة من ابن حزم الرجل ،
تبين ملامحه النفسية وسماته الروحية ونوازهه الغالبة عليه ، الموجهة لسائر
خلاله ، كما تكشف عن ملابسات حياته ، وما أتيح لنا أن نستنبطه من
العلل الظاهرة والباطنة ، التي كانت تعمل عملها في خلق هذه السمات
والنوازع ، وذلك خلال تتبعنا لمراحل هذه الحياة وأطوارها ، وتعرف
ما تعرض له في كل مرحلة منها ، في نمط تاريخي متسق . وقد حرصت في
ذلك كله ألا تطغى ناحية التحقيق العلمي على ناحية العرض الفني ، وألا
تتحيف هذه الناحية الأخيرة مما ينبغي لمثل هذا البحث من دقة . وأنا أرجو
أن أكون قد وفقت في المزج بين هذين الاتجاهين بقدر متعادل .

ولعل أكون استطعت في سياق هذه السيرة أن أبرز بعض الألوان
الظاهرة للبيئات التي اتصل ابن حزم بها وتعرض لآثارها ، وأن يكون
ذلك في جملة قد استطاع أن يؤدي إلينا صورة من صور الحياة الأندلسية
في هذه الفترة الانتقالية ، وفي خلال هذه الفترة العنيفة التي اضطربت بها
الأندلس أيما اضطراب ، والتي مرجتها ومخضتها أعنف الخوض ، فاختلطت
فيها القيم ، وتغيرت الأوضاع ، وماجت المعايير .

ابن حزم هذا هو أبو محمد ، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم . فحزم هذا — وهو كما نرى جد أبيه — هو الذي إليه ينتسب وبه يعرف ، فهو كما يبدو رأس هذه الأسرة . ولكن نسبه المدون لا يقف عند هذا الرجل ، بل يمتد مطرداً حتى ينتهي إلى رجل اسمه يزيد ، قالوا : إنه فارسي الجنس ، وإنه من موالى يزيد بن أبي سفيان ، أحد رجال الفتوح الشامية ، والمتوفى سنة ١٨ هجرية .

على أنه ينبغي ألا يخذعنا هذا النسب المتسلسل الذي يذكره ياقوت والذهبي والمقرئ ومن إليهم ، ممن تعرض لترجمة ابن حزم ، وإن أسند بعضهم حكاية هذا النسب إلى ابن حزم نفسه ، أو زعم أنه رآه بخطه . فأمر الأنساب في الغرب — كما كان في الشرق — أمر تحيط به الريب وتكنفه الشبه . وصناعة الأنساب وتلفيقها وتنسيقها صناعة كانت رائجة في الأندلس رواجها في العراق . وإنه ليقول أن نجد رجلاً من الموالى من أهل المشرق إلا وله نسب عربي نسقت فيه الأسماء العربية اسما وراء اسم ، حتى تبلغ السلسلة غايتها المرسومة في صدر الإسلام أو في العصر الجاهلي ، لينتقل بذلك من الضعة التي وسم بها الشعب المقهور في بلده ، المغلوب على أمره ، إلى عزة الشعب الغالب الفاتح المنتصر . وربما كان للرجل من قوة شخصيته وكمال خلقه واعتداده بنفسه ، ما يجعله يتحرج عن مثل هذا الصنيع ، فلا يعدم من تلاميذه وأتباعه المكبرين له والمعجبين به ، من يغار له ، ويأنف عنه أن يكون في جملة الموالى ، فإذا به يرى له ما لا يراه لنفسه ، ويعرف

من أمره ما ينكره هو ، فيتبرع له بنسب يجعله عربياً صليبية ، بدلا من أن يكون عربيا بالولاء .

وهذه ظاهرة طبيعية من ظواهر مقاومة شعور الضعة ، وإنا لنجدها في الأندلس كما نجدها في العراق ، ولكن في شيء من الاختلاف ، يتبع الاختلاف بين الفتح العربي للعراق والفتح الإسلامي للأندلس ، ففتح العراق وما إليها إنما كان قوامه هؤلاء العرب الذين أقبلوا من أنحاء الجزيرة العربية ، وأما فتح الأندلس الذي كان في أواخر القرن الأول ، فيختلف عنه بذلك القدر ، إذ كان قوامه ذلك الجيل الإسلامي الذي تكون خلال ذلك القرن الأول ، من العرب وغيرهم من الموالى الذين لحقوا بهم ، واعتنقوا دينهم ، ونشأوا فيهم ، وصار لهم ما لهم وعليهم ما عليهم ، وبذلك أخذت تلك الظاهرة صورة أخرى . فلم يعد انتحال الأنساب في الأندلس يقصد به الالتحاق بالجنس العربي خاصة ، كما كان الأمر في العراق ، إذ لم يكن لغير العرب فخر الفتح وفضل السيادة ، وإنما أصبح يقصد به هنا الالتحاق بالعنصر الفاتح المكون من العرب وصنوف الموالى ، فكلهم سواء — تقريباً — في تمثيل العزة والمجد والغلبة والاستعلاء في ذهن الرجل الأسباني المقهور ، والانتماء إلى أى عنصر من عناصر ذلك المجموع الفاتح السيد يكفل له تحقيق ما ينزع إليه بطبيعته ، من مقاومة ذلك الشعور ، ومغالبة سمة الضعة التي ما تزال تؤزّه وتعكر عليه صفوه .

وإذن فمن الحق علينا ألا نطمئن ، بادئ ذي بدء ، إلى هذه السلسلة النسبية المنسوقة التي تلحق بابن حزم ، والتي يخرج بفضلها من الجنس

الأسباني المغلوب ، ويدخل في عداد العنصر الإسلامي الغالب . ولعل أول ما يرينا في هذا النسب هو هذا النسب نفسه ، إذ ينتهي إلى يزيد ذلك المولى الفارسي . فتي كان الموالى عامة ممن يعنون بحفظ أنسابهم والحرص على تخليدها ؟ فلو أن هذا النسب كان ينتهي إلى رجل عربي صميم لكان نقائل أن يقول ، أما وهو ينتهي إلى مولى لا شأن له ولا خطر ، وليس في أسمائه اسم يعرف بمأثرة ، أو يقرن به ماعسى أن يخلده أو يشهره ، فمن العجيب حقاً أن نراه مخلصاً محفوظاً كأنساب السادة البارزين .

فلهذه الريبة إذن ما يبررها ، ولكنه ليس ذلك فحسب ، بل إن لها فوق ذلك ما يؤيدها من كلام بعض المعاصرين لابن حزم ، كما نرى في كلام أبي مروان ابن حيان عنه ، إذ يقول ^(١) :

« وقد كان من غرائب انماؤه في فارس ، واتباع أهل بيته له في ذلك ، بعد حقبة من الدهر ، تولى فيها أبوه المعقل في زمانه الراجح في ميزانه ، أحمد بن سعيد بن حزم لبني أمية ، أولياء نعمته ، لا عن صحة ولاية لهم عليه . فقد عهده الناس حامل الأبوة ، مولد الأرومة ، من عجم لبلة ، جده الأدنى حديث عهد بالإسلام . لم يتقدم لسلفه نباهة ، فأبوه أحمد على الحقيقة هو الذي بنى بيت نفسه في آخر الدهر برأس رابطة ، وعنده بالخلال الفاضلة من الرجاحة والمعرفة والدهاء والرجولة والرأى ، فاغتدى جرثومة شرف لمن نمام ، أغنتهم عن الرسوخ في أولى السابقة . فما من شرف

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الأول . المجلد الأول ، ص ١٤٢

إلا مسبوق عن خارجية ، ولم يكن إلا كلا ولاء ، حتى تخطى على هذا
راية لبلة ، فارتقى قلعة اصطخر من أرض فارس . فالله أعلم كيف ترقاها .
إذ لم يكن يؤتى من خطر ولا جهالة ، بل وصله بها وسع علم ووشيجة رحم
معقوقة . بلها بمسأخر الصلة . رحمه الله .

وهكذا لم تكن فارسية ابن حزم أمرا مسلما عنده معاصريه ، ولم يخلص
نسبه هذا الذي يذيل به اسمه من الطعن عليه والسخرية ، بمثل هذه العبارات
الشديدة الوخز ، التي عرض بها مؤرخ الأندلس الكبير ، ولم يكن به أن
يحقره أو يضع من شأنه ، فإنه مع هذا قد وفاه حقه من الإشادة بذكرو
والتنويه بفضائله مما يدل على مبلغ ما كان له في نفسه من منزلة ، ولكن
ذلك لم يستطع أن يحمله على الإغضاء عن قصة النسب هذه ، وترك
التنديد بهذا الموطن من مواطن الضعف عنده ^(١) .

وإذن فابن حزم خرج من أسرة من أهل أسبانيا الغربية ، كانت تقيم
في لبلة ، وكانت تدين بالنصرانية ، وظلت على نصرانيتها بعد الفتح الإسلامي
أمداً غير قصير ، حتى اعتنق حزم ، الذي يحمل اسمه وينتسب إليه صاحبنا
الإسلام ، في منتصف القرن الثالث الهجري ، فيما تقدر . ومنذ ذلك الوقت
جعلت الأقدار تهيب له هذه الأسرة مكاناً جديداً في هذه الحياة الجديدة

(١) مما يلفت النظر ، وإن كنا لا نعرف مدى صحته ولا مبلغ دلالاته ، أن الاسم «حزم»
كان أكثر شيوعاً في الأندلس منه في المشرق ، كما يلاحظ في هذا الاقليم الذي خرجت
منه أسرة ابن حزم أن حاكم لشبونة فيه كان اسمه في وقت غزو النورماندين ، أي في
سنة ٢٢٩ هـ (٨٤٤ م) وهب الله بن حزم (انظر تاريخ أسبانيا الإسلامية
« روفنسال ص ١٥٣)

وتدنبوها من « لبله » إلى مركز الدولة في قرطبة ، وتتيح لحفيد هذا الرجل « حزم » أن يصير أحد الوزراء النابهين المعروفين بـ « كانه العقل وحسن التدبير في دولة العامرين » ، وأن تبرز منها هذه الشخصية الرائعة في تاريخ العقل الإسلامي ، وهي الشخصية التي نعقد هذه الرسالة لها ، ثم شخصية ابن عمه أبي المغيرة عبد الوهاب ، وهي من أروع الشخصيات الأدبية في الأندلس ، في القرن الخامس للهجرة .

ولبله هذه هي مدينة في غرب الأندلس ، تقع قريباً من البحر المحيط (الأطلسي) ، بينها وبينه ستة أميال ، كما تقع على طرف إقليم الشرف الذي يمتد أربعين ميلاً إلى شرقها ، فيما بينها وبين مدينة أشبيلية ، « وهذه الأربعون ميلاً كلها تمشي في ظل شجر الزيتون والتين . . . وهو تل تراب أحمر » ^(١) . وفي موضع آخر يعتبرها الإدريسي من إقليم الشرف ، إذ يقول : « . . . ويتلوه (يعني إقليم شذونة) إقليم الشرف ، وهو ما بين أشبيلية ولبله والبحر المظلم ، وفيه من المعقل حصن القصر ومدينة لبله وولبة وجزيرة شلطيش وجبل العيون » ^(٢) ، كما يعرض لصفاتها بقوله : « ومدينة

(١) صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، للإدريسي ، (من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق له) ص ١٧٨ وانظر صفة جزيرة الأندلس ، (من كتاب الروض المعطار) لأبي عبد الله الجيبي

(٢) صفة المغرب . . . الخ ص ٧٤ . وهما ذى أسماء هذه البلاد ، كما تطلق عليها الآن بالفرنسية : شذونة : Sidona ، الشرف : Aljarafe ، أشبيلية : Séville ، لبله : Nièbla ، حصن القصر : Aznalcazar ، ولبة : Huelva ، جزيرة شلطيش : Saltés ، جبل العيون : Gibrleon

لبلة مدينة حسنة أزلية ، وهى متوسطة القدر ولها سور منيع ، وبشرقيها نهر يأتىها من ناحية الجبل ، ويجاز عليه فى قنطرة إلى مدينة لبلة . وبها أسواق وتجارات ومنافع جمّة . وشرب أهل لبلة من عيون فى مرج من ناحية غربيها^(١) . وقد نقل الحميرى فى كتابه الررض المعطار عبارة الإدريسي هذه ، ثم أضاف إلى صفتها قوله : « وتعرف لبلة بالحمرء ، وفيها آثار للأول كثيرة ، وسور لبلة قد عقد على أربعة تماثيل : صنم تسميه العامة « دروب » وعليه صنم آخر ، وصنم تسميه العامة « مكبح » ، وعليه صنم آخر . ويخيل إلى الناظر أن ذلك البنيان موضوع على أعناقهم . وانفردت بهذه البنية من بين سائر المدن . . . وكانت جباية كورة لبلة فى أيام الأمير الحكم بن هشام خمسة عشر ألفاً وستمائة »

هذه هى مدينة لبلة ، أو كورة لبلة ، منبت أسرة ابن حزم الأولى : مدينة من المدن ذوات التاريخ الحافل بما بقى فيها من آثار الأول ، كما تدل عليه تلك الإشارة ، وإن كنا لا نعرف مدى دلالة هذه الآثار .

ولكننا نستطيع القول بأن قيام هذه المدينة فى هذا الموقع الموفور الخيرات من ناحية ، والقريب من البحر من ناحية أخرى ، مما من شأنه أن يجعل لها مكاناً ظاهراً ممتازاً فى التاريخ الأسباني القديم ، من الناحية الاجتماعية والثقافية والدينية والسياسية . ووربما أتاح لنا الإيغال فى البحث والتعقب أن نتعرف بعض الألوان الغالبة عليها ، قبل دخول الإسلام إليها ، وأخذها شيئاً فشيئاً بتلك الصبغة الجديدة . ولكننا نستطيع — فى مثل هذه

(١) صفة المغرب . . . الخ ، ص ١٧٨

الرسالة — أن نسامح أنفسنا في تجاوز هذه المرحلة الغامضة المبهمة ، لنحاول
تلمس شيء من شأنها في الإسلام ، وإن كان ذلك أيضاً محتوش بكثير من
الظلمة والغوض والإبهام .

ولكن حسبنا أن نعلم أن هذه المنطقة كانت تناظر منطقة طليطلة
(Tolède) في تاريخ المسيحية في أسبانيا في القرون الوسطى ، بل ربما
امتازت عنها في بعض الأوقات بأن النشاط الديني فيها أخذ لونا ثقافياً واسعاً ،
واصطنع الفلسفة اليونانية على نحو قريب مما نراه نحو ذلك الوقت في مراكز
الثقافة العليا ، كالإسكندرية وأنطاكية والرها وجنديسابور . وقد كان من
مظاهر هذا النشاط وبواعثه ، أن ظهر فيها ، فيما بين القرن السادس والسابع ،
عالم من طراز أولئك العلماء هو إيزيدور الأشبيلي Isidore de Séville .
وكان أسقف أشبيلية فيما بين سنة ٦٠١ وسنة ٦٤٦ . وقد كان معنياً بالوان
الثقافة اليونانية ، يجمعها ويصنفها ويدون الفصول والرسائل فيها ، « وبعث
في وطنه حركة علمية قوية انتشر أثرها إلى إيطاليا وسائر أنحاء أوروبا .
وحمل المجمع الكنسي الطيطلي الرابع على تقرير تدريس اليونانية والعبرية ،
للحاجة إليهما في تفسير الكتب المقدسة »^(١)

لقد كان عجباً أن يظهر في الغرب مثل هذا الرجل العالم ، وأن تتردد
فيه أصدااء التفكير اليوناني على ذلك النحو ، في ذلك الوقت الذي غمره فيه
الظلام ، وانقطعت الصلة بينه وبين ذلك الميراث الشرقي ، منذ سقطت
الدولة الرومانية ودك البرابرة قواعدها وقوضوا أركانها . لقد كان أوغسطين

(١) تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط للأستاذ يوسف كرم ، ص ٦٣

هو القبس الأخير في الغرب الأوربي ، وقد جاء إليه من شمال أفريقيا ،
مثلاً لذلك الميراث الشرقي اليوناني ، ثم انطفأ القبس ، ولقت الغرب هذه
الظلمات المطبقة المتراكمة ، فكيف أتيح لذلك الطرف القصي أن يخرج
للناس بعد نحو من قرنين من الزمان مثل ذلك الرجل الذي يتشبح برداء
الكهنوت ، يحمل إلى الناس أطرافاً من تلك الثقافة اليونانية التي طمرتها
القرون والأحداث ، ويدعو إلى استحيائها ورعايتها ؟ كيف أتيح لذلك
الركن البعيد ، وذلك المنقطع المنفرد الذي يعيش في كنف البحر ، أن
يحتفظ بمثل ذلك الميراث الذي كان يبدو أن عواصف القبائل المتبربرة
طاحت به ، وبددته كل مبدد ؟ كيف أتيح مثل ذلك لهذا الإقليم الذي
تحدث عنه ، إلا أن يكون موقعه هذا قد وهبه شيئاً من الاستقرار والدعة
في ذلك الاضطراب ، وحماه بعض الشيء من بعض نتائج تلك العواصف
والزعازع التي هبت على أوربا ، نائرة مدمرة ، مع تلك القبائل المتبدية
المتبربرة ؟

ومهما يكن من أمر ، فلم يمض طويل وقت على تلك الحركة الدينية الثقافية التي حمل لواءها ودعا إليها إيزدور الأشبيلي ، حتى كانت الأندلس جميعاً تموج وتضطرب بهذه الدعوة الجديدة التي جاء بها المسلمون إلى تلك الدعوة ، في أواخر القرن الثامن الميلادي ، وقد أخذت تشق سبيلها بين الأسبانيين في هدوء وتؤدة ، وفي غير عنف ولا جلبة ، دون أن تصطنع وسيلة غير قوتها الذاتية ، وإلا ما يصحبها من عوامل طبيعية

على أنا نستطيع أن نزعّم أن تلك الحركة التي بعثها ودعا إليها إيزدور الأشبيلي ، واستطاع بها أن يفتح الأذهان ويهز العقول ويوسع الآفاق وينسط أمام الناس عالماً جديداً من المعارف والآراء والأفكار ، مثل ذلك النشاط من شأنه أن يمهد للدعوات الجديدة ، إذ يهيئ الأذهان للنظر الحر والتأمل الطليق ، ويدعوها إلى ترك التخرج ونبذ التأثم والتزمت ، ويجعلها في حل من ترديد الفكر في هذا الرأي أو ذاك ، وفي تلك الدعوة أو تلك ، فلعل ذلك كان له أثره في التمهيد لتلك الدعوة الإسلامية التي جاء بها هؤلاء الفاتحون

ومع ذلك فنحن لا نملك أن نتجاوز هذا الفرض ، فندعى أن أهل الأندلس دخلوا في دين الله أفواجا ، فكل شيء مرتبط بمجموعة أسبابه وملاساته . ومن الظاهر أن كثيراً من الأسبانيين بقوا على نصرانيتهم طويلاً ، ولكنها في كثير من البيئات نصرانية مثقفة ، امتد تيارها وأمدته

عوامل الثقافة الجديدة ، فلم تحل بينهم وبين النظر والتأمل وترديد الفكر في ذلك الدين الجديد ، وفي أصحاب ذلك الدين الجديد

ونحن نعرف أن أسلاف ابن حزم ظلوا على نصرانيتهم بعد الفتح الإسلامي أمداً غير قصير ، وأن هذه الأسرة لم تتخذ الإسلام ديناً إلا منذ منتصف القرن الثالث للهجرة تقريباً . ولسنا ندري بطبيعة الحال للملابسات التي صحبت إسلام ذلك الرجل « حزم » : اقتناعية هي أم اجتماعية أم مزيج بين هذا وذاك . على أنه يبدو — على كل حال — أن هذه الفترة منذ دخول المسلمين بلاد الأندلس ، استطاعت أن تكون مجتمعاً جديداً مؤلفاً من المسلمين والأسبانيين ، يصطنع اللغة العربية ، ويتشقف بالثقافة العربية ويتخذ مظاهر الحياة العربية ، فهذا — ولا ريب — أثره في بسط هذه الديانة العربية ، مختلفاً ذلك باختلاف مبلغ ذلك التآلف والأسباب الحافزة له ، فالأمر في قرطبة مركز الدولة الإسلامية والنشاط العربي غيره في مثل ذلك الطرف ، في كورة لبلة

على أن هناك طائفة من الأحداث أتاحت لذلك الجانب الغربي من الأندلس ، وقد حدثت في وقت قريب من ذلك الوقت الذي نفترضه لذلك الرجل « حزم » ، ولعلها تلقي ضوءاً على ما نحن بصدد

ذلك أن هذا الجانب الغربي القصي الذي يعيش في أحضان البحر وفي كنفه ، لم يلبث أن جعله موقعه هذا الذي أتاح له بالأمس أن يكون بمنأى عن زعازع الشعوب المتبربرة ، عرضة لنوع جديد من الغارات ،

تهب عليه من ناحية البحر الذي ظل زماناً مطمئناً إليه مرتاحاً لجواره ،
تلك هي غارات القراصنة النورمانديين الذين أخذوا منذ أواخر القرن الثامن
الميلادي يخرجون من موطنهم في اسكنديناوة ، فينتشرون بسفهم وزوارقهم
في هذه البحار التي تضرب سواحل البلاد الأوربية ، من الجزائر البريطانية
إلى هولندا إلى فرنسا ، ينشرون فيها الخوف والفرع ، ويسقطون عليها
سقوط الجراد ، مهياً وتخريباً وتحريقاً ، ولا سيما تلك الأديرة الغنية التي كانت
تقوم في تلك النواحي ، ثم لا يلبثون حتى يرتدوا عنها يحملون ما أتيج لهم
من الأسلاب ، ويتركون وراءهم الفرع والرعب والخراب⁽¹⁾ .

ثم جاء دور أسبانيا بعد أن أوغلوا في فرنسا ، ومضوا في نهر الجارون
حتى بلغوا تولوز ، فأخذوا بعدُ يغيرون على اشتوريش (Asturies) وجليقية
(Galice) ، ثم لم يلبثوا أن انحدروا إلى الأندلس ، وكان ذلك في سنة
٨٤٢ م (٢٣٠ هـ) ، وقد أشار النويري إلى هذه الغارة في نص أورده عنه
العلامة دوزي . قال :

« وفي سنة ٢٣٠ خرج المجوس في أقاصى بلاد الأندلس إلى بلاد
المسلمين ، وكان أول ظهورهم في ذي الحجة ، سنة ٣٩ ، عند أشبونة ،
فأقاموا بها ثلاثة عشر يوماً كان بينهم وبين المسلمين فيها وقائع ، ثم ساروا
إلى قادس ، ثم إلى شذونة ، وكان بينهم وبين المسلمين وقعة عظيمة ، ثم
قصدوا أشبيلية في ثامن المحرم ، فنزلوا على اثني عشر فرسخاً منها ، فخرج

(1) Dozy : Recherches sur l'histoire et la littérature de
l'Espagne pendant le moyen âge. 3éd. 2 : 252, Lévi-Provi-
ençal, Histoire de l'Espagne musulmane, p. 152.

إليهم المسلمون ، فهزمهم العدو في ثانی عشر المحرم ، وقتل كثير منهم ، ثم
نزّلوا على ميلين منها ، فخرج إليها إليهم ، فانهزموا في رابع عشر المحرم ،
وكثر القتل والأسر فيهم ، ولم يرفع المجوس السيف عن أحد ولا عن دابة ،
ودخلوا حاضر أشبيلية ، وأقاموا بها يوما وليلة ، وعادوا إلى مراكبهم ؛
فوافقهم عسكر عبد الرحمن ، فبادر إليهم المجوس ، فثبت المسلمون وقاتلوهم ،
فقتل من المشركين سبعون رجلا ، وانهزموا ودخلوا مراكبهم ، وأحجم
المسلمون عنهم . وسير عبد الرحمن جيشا آخر ، فقاتلهم المجوس قتالا شديدا ،
ورجعوا عنهم ، فتبعهم العسكر في ثانی شهر ربيع الأول وقاتلوهم ، وأتاهم
المدد من كل ناحية ، فهضوا لقتال المجوس من كل جانب ، فانهزم المجوس
وقتل منهم نحو خمسمائة رجل ، وأخذوا منهم أربعة مراكب ، فأخذوا
ما فيها وأحرقوها . ثم خرج المجوس إلى لبلة فأصابوا شينفا . ونزلوا بجزيرة
بالقرب من قوريس ، فقسموا ما كان معهم مما غنموه ، فدخل المسلمون
إليهم في النهر ، فقتلوا رجلين ، ثم رحل المجوس فطرقوا شذونة ، فغنموا
أطعمة وسبيا ، وأقاموا يومين ، فوصلت مراكب عبد الرحمن إلى أشبيلية ،
فلما أحس بها المجوس لحقوا بليلة . فأغاروا وسبوا ، ثم لحقوا بأكشونية ،
ثم مضوا إلى باجه ، ثم قفلوا إلى مدينة أشبونة ، ثم ساروا ، فانقطع خبرهم
عن البلاد فسكن الناس ^(١) .

وهناك نص آخر نقله دوزي عن ابن القوطية يعرض لبعض التفاصيل

(١) Dozy, Recherches, 2 : LXXVI . وهاهي ذی أسماء البلاد الواردة
بالص كما يطلق عليها الآن بالفرنجية : أشبونة : Lisbonne ، قادس : Cadix ،
قوريس : caoeres ، أكشونية : Ocsonoba ، باجه : Beja .

الأخرى لهذه الغارة ، ونص ثالث عن ابن دحية يذكر سفارة الحكم الغزال
لدى النورماندين بعد هذه الغارة . ولا نريد أن نطيل بإيرادها ، فليس بنا
أن نكتب هنا تاريخاً لهذه الأحداث ، وإنما الذي يعيننا أن نصور الجو
الذي كان يسود غرب الأندلس في تلك الأيام ، ونتمثل تلك الحن العنيفة
المشتركة التي كانت تفرضها هذه الأحداث على أهل ذلك الإقليم جميعاً :
نصارى ومسلمين ، فتمخضهم جميعاً أشد الخوض ، وتصهرهم جميعاً — كما
يقال — في بوتقة واحدة ، إذ يستقبلون جميعاً عدواً مشتركاً ينظرون إليه
بعين واحدة ، ويعتبرونه اعتباراً واحداً ، فهو عند المسلمين مجوس ، وعند
النصارى وثني ، لا دين له ولا عهد ولا ذمة ، عند هؤلاء وأولئك ، وذلك
ولا ريب من شأنه أن يوحد أهدافهم كما توحدت إزاءه مشاعرهم . وإذن
فهو عامل جديد من عوامل الاندماج بين العنصرين ، وسبب من الأسباب
التي تدفع بالناس دفعا إلى الدين الغالب ، دين الحاكم الذي يتجهون إليه
ليدفع عنهم ، ويقر الأمن والطمأنينة بينهم .

ولم يمض وقت طويل على هذه الغارة حتى عصفت ريح النورماندين
مرة أخرى بشواطئ الأندلس وخاصة شاطئها الغربي ، فيما بين سنتي ٨٥٨
و ٨٦١ م (٢٤٤ — ٢٤٧ هـ) ، وأطبقوا على ذلك الإقليم يعيشون فيه
وينهبون ويأسرون ، وينشرون الخوف والفرع ، ويدفعون الناس إلى
الهرب دفعا ، يلتمسون في داخل البلاد ملجأ يثلون إليه ، ويلتمسون فيه
الأمن والطمأنينة ؛ وقد استطاعت الدولة أن تقطع دابر هذه الغارات ، وجعلت
من هذه الغارة آخر محاولة يحاولها القراصنة النورمانديون من هذا القبيل .

وإذا كان لمثل هذه الغارات والحن أثرها في التقريب والاندماج بين عناصر الجماعة الأسبانية الجديدة، أما وحدث من مشاعرهم إزاء ذلك الخطر الذي يهددهم ، ثم بدفع كثير منهم إلى داخل البلاد حيث يكون الجو أكثر ملاءمة لتوثيق العلاقات وربط الأسباب ، فلعل أسلاف ابن حزم كانوا ممن اضطرتهم هذه الغارات والحن إلى لبله ، والالتجاء إلى قرطبة فاستوطنوها ، وتهيأت لهم بذلك الأسباب إلى المجد الذي نالوه بعد فيها .

وبعد ، فهذا هو الأصل الذي خرج منه صاحبنا ابن حزم ، وهذه هي بعض الملابسات التي لا بدت ذلك الأصل ، قدر ما أتيح لنا أن نفترضه فهيأت لذلك الأصل أن ينتهي بتلك الثمرة .

ولوددنا أن نعرف ماذا كان مكان هذه الأسرة التي حرصت على مسيحيتها ، وحافظت على هذه الناحية من شخصاتها ذلك الزمن الطويل ، من ذلك الميراث الثقافي الذي رأينا إيزيدور أسقف أشبيلية ، والزعيم الديني لذلك الإقليم ، يعنى بنشره وإذاعته والتوجيه إليه ، والذي كان أحد مفاخرهم القومية التي يفخرون بها ويحرصون عليها ، حتى قالوا إن أمراء ذلك الإقليم من القوط الغربيين ، كان ذلك الميراث من أول ما حرصوا على أن يأخذوه معهم ، حين زالت دولتهم فخرجوا من بلادهم باستيلاء العرب عليها .

ولوددنا أن نعرف أيضا لون الحياة التي كانت تحياها هذه الأسرة في لبله ، ثم في مهاجرها في قرطبة ، والمكان الاجتماعي الذي كان هنالك لها قبل أن تتصل بالخلافة وتتبعوا منصب الوزارة . ولكن ذلك كله —

على ما قد يكون له من خطر في مثل هذا البحث. — لاسبيل إلى معرفته ،
فقد تقطعت الأسباب دونه ، وإن كنا نلمح — من خلال قراءاتنا
ودراساتنا — لمحا عارضا غامضا ، يمثل في خيالنا هذه الأسرة في صورة
إحدى هذه الأسر الأسبانية المحافظة على تراثها القومي ، وعلى جميع ما يمت
لهذه القومية بسبب ، وبذلك ظلت هذه الفترة الطويلة محتفظة بمسيتها .
وإن ما نجده في سليلها ابن حزم من حفاظ ديني وعنف في الدفاع عن
العقيدة والمكافحة عن المذهب ، إنما يرجع في بعضه إلى شيء من ذلك
الميراث الذي انتقل إليه من أسرته ، ثم حاطته ونفخت فيه تلك الملابس
التي تعرض بعدها . ولا بأس أن يتغير الشكل وتبدل الصورة الظاهرة ،
فإنما هو المزاج والطبيعة والاستعداد العقلي والاتجاه النفسي الذي تستبقيه
الوراثة ، وتنتقل به من جيل إلى جيل . كما تخيل إلينا أيضا هذه الاممحات
العارضة الغامضة أن حزما هذا لم يكن رجلا مغمورا حيث كان ، وإن
يكن مغمورا ، بطبيعة الحال ، بالقياس إلى رجال الدولة في ذلك المجتمع
القرطبي ، بل كان فيما نحسب رجلا مذكورا بين الناس ، جديرا بذلك أن
ينتسب إليه ويعرف به ، ويحمل اسمه أبناؤه وأحفاده وسلالته .

هاجر حزم إذن من لبلة إلى قرطبة في عهد محمد بن عبد الرحمن الثاني (٢٣٨ — ٢٧٣ هـ ، ٨٥٢ — ٨٨٦ م) ، فيما نقدر ، وكانت الدولة أخذت تستمتع بالاستقرار والهدوء ، مما هيا لها أن تصل بعد قليل إلى ذروة الحضارة ، كما أخذت تنهياً لأسرة ذلك الرجل « حزم » أسباب المجد . حتى إذا كان عهد أمير المؤمنين هشام المؤيد وحاجبه المنصور ابن أبي عامر ، وقد بدأ هذا العهد بموت المستنصر سنة ٣٦٦ (٩٧٦ م) ، فقد أصبح حفيده أحمد ابن سعيد وزيراً من وزرائه وكبار رجال دولته ، وبلغت الأسباب التي جعلت الأقدار تهيئها لهذه الأسرة غايتها المقدورة .

وربما كان هذا العهد أزهر عهود الأندلس جميعاً ، وأحفلها بشتى مظاهر الحضارة ، وأجمعها لمعانى العزة والقوة والمنعة والصوت البعيد ، وإن أصبح الخليفة المؤيد رمزاً للدولة لا أقل ولا أكثر ، ليس له من أمر السلطان شيء ولا « من رسوم الخلافة أكثر من الدعاء على المنابر ، وكتب اسمه في السكة والطرز » كما يقول المقرئ^(١) .

ولكن شيئاً من ذلك لم يضعف من مركز هذه الدولة الإسلامية من الناحية السياسية كما كان الأمر في الشرق ، بل ظلت هذه الدولة التي يرمز لها الخليفة المؤيد ، وهو محبوب في قصره ويقوم بأمرها حاجبه المنصور ابن أبي عامر ، قوية الجانب نافذة السلطان مرهوبة الصوت ، وإن أخذت

(١) نفح الطيب ١ : ١٨٨ ، ط بولاق ، ١٢٧٩ هـ .

أسباب الفساد وعوامل الانهيار دائبة تعمل عملها من وراء هذه المنفعة والعزة ،
ومن خلف ذلك الازدهار الذي تعم ذكره النفوس بأقوى مشاعر الإعجاب
والإكبار ، كما تعمل أسباب التعفن في باطن التفاحة التي تزهر برويقها
وبريقها ؛ وكأن هذا الرويق المتألق وذلك البريق المتبرج ، ليس إلا
ومضان تلك الشعل التي تضطرم في باطنها ، ثم لا تلبث حتى تأتي عليها .
لقد كان عهد العامين هذا هو ذروة السلطان العربي ، وغاية المجد
الإسلامي الذي ظل يتألف ويتكون وتجتمع له الأسباب المختلفة في الأندلس
من هنا ومن هنا ، منذ اتصلت أسبابها بأسباب العقل الإسلامي ، والذي
جعل منه عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر حقيقة واقعة رائعة تبهر الأبواب
وتحلب القلوب وتبعث الدهشة والانبهار ، لا من حيث العزة السياسية
أو مظاهر الترف المادي فحسب ، بل من الناحية المعنوية ومظاهر الترف
الأدبي والعقلي ، حتى أصبحت الأندلس عامة وقرطبة خاصة أكبر مثابة
للآثار الأدبية العربية ، تجتمع إليها من شتى أقطار العالم الإسلامي ، أو كما
يقول المقرئ عن الحكم المستنصر ، نقلاً عن ابن خلدون : « واجتمعت
بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده ، إلا
ما يذكر عن الناصر العباسي بن المستضيء » . ولعلنا نستطيع أن نتبين في هذه العبارة
التي ينقلها في هذا الموضع عن صاحبنا أبي محمد ابن حزم مبلغ ما وصلت إليه
المكتبة العربية في الأندلس لذلك العهد من اتساع ووفرة . قال : « أخبرني
تليد الخصى ، وكان على خزانة العلوم والكتب بدار بني مروان ، أن عدد
الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة ، وفي كل فهرسة

عشرون ورقة ، ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين لا غير » (١) .

ولذلك استطار في الآفاق صيتها من هذه الناحية ، فجعل العلماء والأدباء يهرعون إليها ، ويستبقون نحوها ، يلتمسون فيها لأدبهم سوقاً نافقة ، ويرجون فيها لعلمهم تقديراً لم يظفروا في الشرق به ، ولسنا بحاجة إلى أن نعدد من هؤلاء العلماء والأدباء أمثال أبي علي القالي ، صاحب كتاب الأمالي .

على هذا المجد الأدبي الذي بناه أولئك الخلفاء الأمويون بنى العامريون ، وبثلك التقاليد التي رسموا منها جهاً وأرسوا قواعد لها أخذ أصحاب هذه الدولة . وقد أعانهم على أن يبلغوا من ذلك المبلغ الرفيع والشأو البعيد ما أتيج للأندلس في عهدهم من رخاء وأمن وطمأنينة ، وما استطاعت أن تحققه من سيطرة تامة على الأمور كلها في الداخل والخارج ، مما حدا ببعض المؤرخين أن يفضل عهد المنصور بن أبي عامر على عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وبذلك يجعله أزهر عهود الأندلس جميعاً .

لقد كان المنصور بن أبي عامر يرى هذه الدولة دولته ، فكان يحس إحساساً قوياً دائماً بدوافع المنافسة للمروانيين ، فإذا بنى عبد الرحمن الناصر مدينة الزهراء ، فليبن هو مدينة الزاهرة ؛ وإذا تمجد بقدوم أبي علي القالي عليه فليتمجد هو بوفود أبي العلاء صاعد بن الحسن البغدادي على ساحته وقصده جنابه ، وكذلك يقول ابن بسام دالا على هذه المنافسة : إن المنصور أراد أن « يعني به آثار أبي علي البغدادي الوافد على بني أمية قبله » (٢)

(١) نفح الطيب ١ : ١٨٢ .

(٢) الذخيرة : القسم الرابع ، المجلد الأول ، ص ٢ .

وكذلك كان لروح المنافسة هذه أثرها البليغ في ازدهار الحياة الأدبية
ازدهاراً رائعاً في الأندلس عامة ، وفي قرطبة خاصة ، في هذه الفترة التي
جعلت أسرة ابن حزم تأخذ فيها ذلك المكان البارز الممتاز في الحياة
السياسية ، بما كان من تولى أحمد بن سعيد بن حزم أحد مناصب الوزارة
للدولة العامرية .

ومهما تكن معارفنا عن أحمد بن سعيد هذا محدودة ، فلا ريب عندنا
في أن بلوغه تلك الدرجة ، وتسلمه منصب الوزارة ، لم يكن إلا لأن
مواهبه هي التي أهلت له ، فأحلت له تلك المكانة ؛ فقد كانت من أخص
صفات المنصور بن أبي عامر نفوذ بصره ودقة حكمه على الرجال وتمييز
جواهرهم ؛ وقد كان مما يعنيه أشد العناية أن يحيط نفسه بطائفة ممتازة من
الرجال الموهوبين تمكن له ، وترهبهم دولته ، ويستطيع أن يجعلهم معتمدين
في تدبير أمره ، حين يمضي في هذه الغزوات الكثيرة التي كان ما يزال
مشغولاً بها ، فكان لا بد له أن يكون وزراءه الذين يخلفهم من أهل
الحكمة والحزم والبصيرة ، كما ينبغي أن يكونوا ممن يستطيع أن يطمئن إليهم
ويأمن جانبهم .

وكذلك كان أحمد بن سعيد فيما يبدو ، وقد رأينا من قبل وصف
ابن حيان له بأنه « المعقل في زمانه ، والراجح في ميزانه ، وأنه هو الذي بنى
بيت نفسه برأس رابية ، وعمده بالخلال الفاضلة . من الرجاحة والمعرفة
والدهاء والرجولة والرأي » ، ونحن نستطيع أن نعتبر هذه الصفات قوام شخصية
أبي عمر أحمد بن سعيد التي أتاحت له ذلك المكان ، إلى استقامة في الخلق

وترفع عن الصغائر ، مما مكن له أن يظل في مكانه إلى أن انتهت دولة
العامريين

ويذكره ابن عذارى في سياق الكلام على ثورة هشام بن سليمان
ابن الناصر التي أراد بها أن ينتزع الأمر من المهدي محمد بن هشام بن
عبد الجبار ، إذ كان رسول المهدي ، ومعه القاضي أبو العباس ابن ذكوان
إلى هشام بن سليمان يعاتبانه على الخروج على المهدي ، ووقع بينه وبينهما
محاورة عظيمة عليه فيها الفتنة وحذراه سوء العاقبة « ^(١) ، فلم يحل سقوط
دولة العامريين من بقاء أبي عمر ابن حزم مستمتعاً بثقة الخليفة الأموي
الجديد ، المهدي ، فهو يستبقه إلى جواره ، ويكل إليه القيام بمثل هذه
المهمة الخطيرة . وذلك مما يؤكد لدينا مجموعة الصفات التي وصفه بها ابن
حيان من الرجاحة والمعرفة والدهاء والرجولة والرأي

والرجل بعد ذلك يعدّ من أهل العلم والرواية ، ذكره ابن بشكوال
في رجاله ، فنقل عن الحميدي قوله فيه : « كان من أهل العلم والأدب والخبر ،
وكان له في البلاغة يد قوية » ^(٢) . وكذلك ذكره الضبي فأورد هذه
العبارة ثم زاد عليها : قال أبو العباس أحمد بن رشيق الكاتب : كان
الوزير أبو عمر ابن حزم يقول : إني لأعجب ممن يلحن في مخاطبة ، أو يحجى ،
بلفظة قلقة في مكاتبة ، لأنه لا ينبغي له إذا شك في شيء إلا أن يتركه
ويطلب غيره ، فالكلام أوسع من هذا ، أو كما قال . وهذا لا يقوله إلا

(١) البيان المغرب ٣ : ٧٩ ط باريس ، ١٩٣٠ .

(٢) الصلة في تاريخ أئمة الأندلس ... الخ . ص ٢٦ — ٢٧ .

للتبحر الواسع العلم» ^(١) . بل هذا عندنا لا يقوله أيضاً إلا الرجل المتحفظ
المتحرز الرقيب على نفسه الذي لا يزال ممسكاً بزمامه ، لا يتهاون ولا يتساهل
وهو فيما نرى دليل آخر على هذا الجانب من خلقه ، وهذا اللون من ألوان
شخصيته ، مما سنرى أثراً منه في ابنه أبي محمد

أما منزلة أحمد بن سعيد من الحياة العلمية في قرطبة ، فتظهر لنا واضحة
حين نرى اسمه يذكر في شيوخ كثير من علمائها كعبد الله بن محمد بن مغيث
الأنصاري ، وعبد الله بن محمد بن عبد البر النمرى ، والد الحافظ أبي عمر ،
وعبد الله بن إسحاق بن الحسن المعافى ، وعبد الله بن ربيع بن بنوش ،
وأبي القاسم أحمد بن موفق ، وأبي عمر أحمد بن محمد الأزدى ، وأبي بكر
يحيى بن عبد الرحمن ، ابن وجه الجنة ، إلى كثير غيرهم لم نقصد إلى
استقصائهم ، ، فحسبنا هذا للدلالة على منزلة الرجل في العلم واشتغاله به ،
بالرغم من منصب الوزارة ومشاركته في الحياة السياسية في عصره ،
وسنرى هذا المزاج بين العلم والسياسة في ابنه أبي محمد أيضاً .

وبعد ، فذلك هو أحمد بن سعيد والد صاحبنا ، قدر ما أتيح لنا أن
نتلمسه من أخباره وأمارات شخصيته .

وكان من النابهين في هذه الأسرة أيضاً في ذلك الوقت ابن أخيه ،
أحمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن حزم ، والد أبي المغيرة عبد الوهاب
ابن حزم . ويصفه صاحب المطمح في سياق الكلام عن ابنه أبي المغيرة بأنه

(١) بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، ص ١٢٠ .

فقيه علم وأدب ، وبنية مجد وحسب . كما يذكره ابن بشكوال والضبي بأنه
« كان من أهل العلم والفضل . وتولى الحكم بالجانب الغربي بقرطبة في
أيام محمد المهدي » وأنه « كان شيخاً جليلاً من أهل الوقار والتصاؤن ، توفي
بأشبيلية سنة ٤٢٧ ومولده سنة ٣٦٠ »^(١)

(١) الصلة : ص ٤٥ ، والبنية : ص ١٧٦ ، وقد وقع شيء من الخلط في الصلة ،
في جزء من اسمه .

في هذه الأسرة التي نستطيع أن نتبين مما سبق شيئاً من مشخصاتها ،
ولد صاحبنا أبو محمد علي بن أحمد ، صبيحة الأربعاء ، آخر يوم من أيام
شهر رمضان ، عام أربع وثمانين وثلثمائة (نوفمبر سنة ٩٩٤)^(١) ، بعد
أنخ له يدعى أبا بكر ، سبقه إلى الوجود بخمس سنين ، أي أنه كان
قد ولد سنة ٣٧٩^(٢)

وقد نشأ الأخوان معا نشأة مترفة ، في قصر أبيهما الوزير ، في الجانب
الشرقي من قرطبة ، بالقرب من قصر الزاهرة^(٣) في مدينة الزاهرة التي
اختطها المنصور ابن أبي عامر ، « وأقامها بطرف البلد على نهر قرطبة الأعظم
ونسق فيها كل اقتدار معجز ونظم ، وشرع في بنائها سنة ٣٦٨ ، فحشر

(١) في الصلة (ص ٤١٠) : « قال صاعد : كتب إلى أبو محمد ابن حزم يقول
مخطه : ولدت بقرطبة في الجانب الشرقي في ربيع منية المغيرة ، قبل طلوع الشمس ،
وبعد سلام الامام ، من صلاة الصبح ، آخر ليلة الأربعاء ، آخر يوم من شهر رمضان
المعظم ، وهو اليوم السابع من نوفمبر ، سنة ٣٨٤ بطالع العقرب » وهذا نص عجيب
في الدقة ، ويقفنا منه ذكر الشهر الافرنجي إلى جانب الشهر العربي ، كما يلتفت النظر
أن يكون مولده يوافق ٧ نوفمبر ، فلملحه محرف عن التاسع .

(٢) انظر طوق الحمامة ، إذ يذكر ابن حزم عن اخيه هذا أنه توفي سنة ٤٠٩ وهو
ابن اثنين وعشرين سنة (ص ١١٦) .

(٣) طوق الحمامة ص ٧٠ ، مطبعة البرهان ، دمشق ، ١٣٤٩ هـ .

إليها الصناعات والفعلة ، وأبرزها بالذهب واللازورد متوجة منعة ، وجلب نحوها الآلات الجليلة ، وسر بلها بهاء يرد العيون كليلة ، وتوسع في اختطاطها وتولع بانتشارها في البسيطة وانبساطها ، وبالغ في رفع أسوارها ، وثابر على تسوية أنجادها وأغوارها ، فاتسعت هذه المدينة في المدة القريبة ، وصار بناؤها من الأبنية الغربية ، وبني معظمها في عامين . وفي سنة ٣٧٠ انتقل المنصور إليها ، ونزلها بخاصته وعامته ، فتبوأها وشحنها بأنواع أسلحته ، وأمواله وأمتعته ، واتخذ فيها الدواوين للعمال ، ترتفع فيها ضروب الأعمال ، والاصطبلات لأنواع الكراع ، وعمل داخلها الأهرام ، وأطلق بساحتها الأرحاء ، ثم أقطع وزراءه وكتابه ، وقواده وحجابه القطائع الواسعة ، فابتنوا بأكنافها كبار الدور ، وجليلات القصور . واتخذوا خلالها المستغلات المفيدة ، والمنازه المشيدة ، فاتسعت هذه المدينة في المدة القريبة ؛ وقامت فيها الأسواق ، وكثرت فيها الأرزاق ، وتنافس الناس في النزول بأكنافها والحلول بأطرافها ، للدنو من صاحب الدولة ، وتناهى العلو في البناء حوله ؛ حتى اتصلت أرباضها بأرباض قرطبة ^(١)»

ولعلنا بهذه العبارات الأنيقة التي أراد بها الفتح به خاقان الأشبيلي أن يجعل صفتها ، نستطيع أن نتمثل شيئاً من مظاهر الترف وصور النعمة السابغة الرائعة التي كانت تبدو هذه المدينة الناشئة فيها ، كما نستطيع أن ننقل من هذه إلى تخيل ذلك القصر الذي ولد ابن حزم فيه ، ونشأ بأكنافه ،

(١) صفة جزيرة الأندلس من كتاب الروض المطار ، ص ٨١ — ٨٢ ط لجنة

التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٧ .

في نعمة موفورة ، بين مظاهر الطبيعة الفاتنة ، وصور الترف البالغة حدا من
الافتتان والروعة بعيداً ، على ما نعرف من صفات أمثاله .

وفي هذا القصر أمضى ابن حزم حياته الأولى من لدن خرج إلى الوجود
إلى أن بلغ الخامسة عشرة من عمره ، لا يكاد يغادره إلا حين تتقدم به السن
قليلاً ، ثم هو لا يغادره إذ ذاك إلا إلى قصر وزير آخر من الوزراء ، أو رئيس
من الرؤساء ، أو إلى قصر الحاجب نفسه المنصور أو المظفر ، في بعض الأحيان .

وفي هذا القصر تلقى تعليمه في هذه الفترة الأولى من حياته ، فلم يختلف
إلى أستاذ يأخذ عنه ، ولم يتصل بزملاء ورفاق يلعب معهم ويعبت وإياهم
ويتحدث إليهم ، وإنما هو أخوه الأكبر أبو بكر رفيقه الوحيد في هذه
البيئة ، ولكن فرق ما بينهما في السن جعله مفرداً عن الزميل في التعليم
والتلقين ، وبذلك أمضى مدى سنيه الأولى حياة مقصورة ، لاصلة بينها
وبين الحياة خارج القصر ، إلا ما عسى أن يترامى إلى سمعه عنها .

بل إن هذه النشأة المقصورة لم تقف عند هذا الحد ، فلم تكن محدودة
بحدود القصر ، وإنما تجاوزت ذلك ضيقاً وقصوراً ، فهي في حقيقة الأمر
محدودة بحدود دائرة الحرم ، فلم يكن القصر بالنسبة إليه إلا هذه الدائرة
وحدها ، لا يتجاوزها ، إلا أن يكون إلى مثلها من القصور الأخرى . فأما ظاهر
القصر حيث يجلس الرجال ويمجى الحديث بينهم ، فلم يكن له أن يخرج إليه ؛
وقد ظل محجوباً عنه مدة صباه ، وإنما بدأت صلته به وهو في حدود الشباب ،
أما قبل ذلك فالنساء وحدهن بطائنه وصحابه وأساتذته ، إليهن وكل أمره ، وبهن
نيط تعليمه وتربيته . وهو يتحدث عن نفسه في هذا ، ويصف مكانه منهن ،

في سياق كلامه عن المرأة وأسباب معرفته لها ، فيقول : « ولقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيري ، لأنني ربيت في حجورهن ، ونشأت بين أيديهن ، ولم أعرف غيرهن ، ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب ، وحين تبقل وجهي ؛ وهن علمني القرآن ، ورويفني كثيرا من الأشعار ودر بنني في الخط . ولم يكن وكدي وإعمال ذهني ، منذ أول فهمي ، وأنا في سن الطفولة جدا ، إلا تعرف أسبابهن ، والبحث عن أخبارهن ، وتحصيل ذلك » (١)

هذا شيء جدير بنا أن نلاحظه ونأمله ونقف عنده ونتعرف مدى أثره في حياة ابن حزم ، ومبلغ ما عسى أن يكون له في توجيهه ، إذ كانت هذه الفترة الأولى من الحياة هي التي تتكون فيها النفوس ، وتخضع فيها الأمزجة والطبائع لما يوجهها ويصرف نشاطها ، وللعوامل التي تفرض عليها ما يتلاءم وإياها من أسلوب خاص في التفكير والتقدير والانفعال . وما من شك في أنه لا بد أن يكون لمثل هذه النشأة المقصورة ، ذلك المدى الطويل ، في مثل تلك البيئة المؤلفة من الإماء والجواري والقيان ، يرعينه رعاية أمثالهن لمثله ، ويأخذنه بألوان من التدليل والملاطفة ، ويتولين تعليمه وتهذيبه ، مامن شك في أن لمثل هذا اللون من الحياة في توجيهه مشاعره وطبع مداركه ، دون أن يقف الأمر على نزوعه إلى تعرف أسباب النساء وفحص أحوالهن ، كما يقول عن نفسه ، فالأمر أعمق من ذلك أثرا ، وسنرى بعد أي أثر بليغ تركته هذه الحياة عنده .

(١) طوق الحمامة ، ص ٤٥ — ٤٦ .

وشىء آخر فى طفولة ابن حزم جدير أيضا بالملاحظة والتأمل ، وهو ما يشير إليه من أنه أصيب فى تلك الفترة من حياته بخفقان القلب ^(١) . وإذا كان هو يرجع - فى بعض كلامه - ما لاحظته عليه معاصروه من حدة فى الطبع وعنف فى المناقشة وعجز عن ضبط نفسه فيها ، إلى ما كان يعانيه من مرض السكبد ^(٢) ، فقد يكون لهذا المرض الذى عرض له فى صباه أثره الباقى فى كيانه الجسمى والنفسى . ولكن ذلك ليس كل شىء يمكن أن نعتبره فى مثل ذلك المرض ، فالأمر الذى لانشك فيه أن هذا المرض الذى أصابه صغيرا كان من الأمور التى أحاطته بجو خاص من العطف والرعاية ، وملأ القلوب إشفاقا عليه ، ورحمة له ، وحذارا أن يناله شىء من المكروه يعرضه للخطر .

وبذلك نرى فى حياته الأولى هذه عاملا جديدا من عوامل التدليل ، إلى جانب ذلك الذى تبعث عليه الحياة المترفة . ومن يدرى فلعل ذلك المرض وما يثيره من خوف ، وما يبعث عليه من إشفاق وحذر ، كان من أول الأسباب التى جعلتهم يأخذونه بهذا اللون من الحياة ، وتلك النشأة المقصورة أشد القصر ، المحدودة الأفق ، التى ظلت مفروضة عليه خمسة عشر عاما لا يجتاز نطاقها المضروب .

وقد رأينا أن تعليمه فى هذه المرحلة الأولى كاد يكون مقصوراً على تعلم الكتابة والقراءة ، أى تحصيل الأداة الأولى للمعرفة ، ثم يلي ذلك

(١) طرق الحمامة ص ١٦ .

(٢) الاخلاق والسير .

حفظ القرآن ورواية الشعر ، فقد كانت إذن تربية ترمى في حقيقتها إلى تكوين الذوق الفني وتنقيفه ، وإلى إعداد اللسان وتقويمه ، وهو أداة التعبير عما يستشعره الذوق ، وما يحسه من صور الفن .

وإلى جانب هذا كان محوطاً بكثير مما يرقق الحس ويرهف العواطف ويقوى فيه هذه الناحية الفنية ، ففي وسط مظاهر الترف وألوان الجمال التي كان يعبق بها الجو حوله ، تعرض منذ صباه لفنون من الحب ، ثم ما يتبعه الحب من ألوان المشاعر وصنوف الخواج . وهو يحدثنا في غير موضع عن هذا الحب الذي تعرض له في صباه ، إذ يقول مثلاً : « وعنى أخبرك أنى أحببت في صباى جارية لى شقراء الشعر ، فما استحسننت من ذلك الوقت سوداء الشعر ، ولو أنه على الشمس أو على صورة القمر نفسه . وإنى لأجد هذا في أصل تركيبى من ذلك الوقت ، لا تؤاينى نفسى على سواه ، ولا تحب غيره البتة » (١)

وفي موضع آخر يعرض لنا صورة من هذه الحياة العاطفية التي كان يحياها في صباه ، وهى صورة جيدة واضحة بينة القسمات ، نستطيع أن نتعرف بها تعرفاً دقيقاً مفصلاً هذا اللون من ألوان حياته . قال :

« وإنى لأخبرك عنى أنى ألفت فى أيام صباى ألفة المحبة جارية نشأت فى دارنا ، وكانت فى ذلك الوقت بنت ستة عشر عاماً . وكانت غاية فى حسن وجهها وعقلها ، وعفافها وطهارتها ، وخفرتها ودمائها ، عديمة الهزل ، منيعة البذل ، بديعة البشر ، مسبلة الستر ، فقيدة الزام ، قليلة الكلام ،

(١) طوق الحمامة ص ٢٥ .

مغضوضة البصر ، شديدة الحذر ، نقية من العيوب ، دأمة القطوب ، حلوة
الإعراض ، مطبوعة الانقباض ، مليحة الصدود ، رزينة القعود ، كثيرة
الوقار ، مستلذة النفار ؛ لا توجه الأراجى نحوها ، ولا تنقف المطامع عليها
ولا معرّس للأمل لديها ، فوجهها جالب كل القلوب ، وحالها طارد من
أمرها ، تزدان في المنع والبخل ، مالا يزدان غيرها بالسماحة والبذل ، موقوفة
على الجد في أمرها ، غير راغبة في اللهو ، على أنها كانت تحسن العود إحساناً
جيداً ؛ فجئنت إليها وأحببتها حباً مفرطاً شديداً ، فسعيت عابثين أو
نحوها أن تجيبني بكلمة ، وأسمع من فيها لفظة — غير ما يقع في الحديث
الظاهر إلى كل سامع — بأبلغ السعي ، فما وصلت من ذلك إلى
شيء البتة .

فلعدي بمصطنع كان في دارنا ، لبعض ما يصطنع له في دور الرؤساء ،
تجمعت فيه دخلتنا ودخلة أخي رحمه الله ، من النساء ونساء فتياننا ومن
لاث بنا من خدمنا ، ممن يخف موضعه ويلطف محله ، فلبثن صدراً من
النهار ، ثم انتقلن إلى قصبة كانت في دارنا ، مشرفة على بستان الدار ،
ويطلع منها على جميع قرطبة وفخوصها ، مفتحة الأبواب ، فصرن ينظرن
من خلال الشراجيب وأنا بينهن . فإني لأذكر أنني كنت أقصد نحو
الباب الذي هي فيه أنسا بقربها ، متعرضاً للدنو منها ، فما هو إلا أن
ترأى في جوارها فتترك ذلك الباب وتقصد غيره ، في لطف الحركة ،
فأتعمد أنا القصد إلى الباب الذي صارت فيه فتعود إلى مثل ذلك الفعل
من الزوال إلى غيره ؛ وكانت قد علمت كلفي بها ، ولم يشعر سائر النسوان

بما نحن فيه ، لأنهن كن عدداً كثيراً ، وإذ كلهن يتنقلن من باب إلى باب
لسبب الاطلاع من بعض الأبواب على جهات لا يطلع من غيرها عندها .
واعلم أن قيافة النساء فيمن يميل إليهن أنفذ من قيافة مدلج في الآثار .

ثم نزلن إلى البستان فرغبت عجائزنا وكرائمنا إلى سيدها في سماع
غنائها ، فأمرتها ؛ فأخذت العود وسوتته بخفر وخجل لا عهد لي بمثله ، وإن
الشيء يتضاعف حسنه في عين مستحسنه . ثم اندفعت تغنى بأبيات العباس
ابن الأحنف حيث يقول :

إني طربت إلى شمس إذا غربت	كانت مغاربها جوف المقاصير
شمس ممثلة في خلق جارية	كأن أعطافها طي الطوامير
ليست من الإنس إلا في مناسبة	ولا من الجن إلا في التصاير
فالوجه جوهرة ، والجسم عبهرة	والريح عنبرة ، والكل من نور
كانها حين تخطو في مجاسدها	تخطو على البيض أو حد القوارير

فلعمري لكان المضراب يقع على قلبي . وما نسيت ذلك اليوم ولا
أنساه إلى يوم مفارقتي الدنيا ، وهذا أكثر ما وصلت إليه من التمكن
من رؤيتها وسماع كلامها ^(١) »

فهذه صورة من حياة ابن حزم في قصر أبيه في عهد صباه ، وقد حرصنا
على أن نورد هذا النص على طوله ، لأنه يؤدي لنا هذه الصورة خير أداء ،
ويمثل لنا هذه الحياة خير تمثيل ، ويبين لنا كيف كانت تلك البيئة المقصورة
التي كان يحياها ذلك الصبي فيها ، مشحونة بألوان المغريات التي ترهف

(١) طوق الحمامة ص ١٠٨ — ١٠٩

الحس وتفتن النفس وتحفز المشاعر وتثير الرغبات الكامنة ؛ وكيف كانت
دائمة الإلحاح عليه ، والإحاطة به ، والتبرج له .

ولكن هذه البيئة المشحونة بكل ذلك مما يدعو إليه الترف ، كانت
مع ذلك بيئة تسيطر عليها أوامر الدين ، وتعاليم الخلق ، وضوابط الترفع
والتعفف ، إذ كان بيت ابن حزم من البيوت المحافظة الآخذة بتقاليد
التصوّن ، وقد عرفنا كبير هذا البيت وصاحب ذلك القصر ، الوزير أحمد
ابن سعيد ، رجلاً متزناً بعيداً عن الاستهتار والاستخفاف بالرغم من
ذلك الترف البالغ ، وتلك الرفاهية المتفننة ، مما هو جزء من طبيعة الحياة
في مثل هذه القصور في ذلك الوقت لا انفكاك له .

وهكذا نرى كيف كان هذا الصبي في قصر أبيه ، بين هذين العاملين
المتعارضين ، جذباً ودفعاً ، بسطاً وقبضاً ، فإن شيئاً من ذلك الترف المنطوي
على الإغراء ، وذلك التدايل الذي أحيطت به حياته من جميع جهاتها ، لم
يكن يأذن له أن يتجاوز تلك الحدود المضرورة في شرعة الدين والخلق ،
وقوانين التحفظ والترفع ، أو تجعله يتسامح في رعاية حق الفضيلة والمروءة ،
أو تتركه يجري مع غرائزه وشهواته التي تثيرها هذه الألوان المرححة للممتعة
الطروية التي حوله .

وإنه ليقسم بأغلاظ الأيمان أن صلاته بنساء قصره كانت صلات بريئة
طاهرة ، وأن حبه لهذه أو تلك إنما كان حبا عفيفاً شريفاً لم يدنسه إثم ،
ولم يخالطه محرم ، إذ يقول في سياق كلامه عن نزوعه إلى البحث عن أخبار
النساء وأنسهن منه بالكتمان : « ومع هذا يعلم الله ، وكفى به عليماً ،

أنى برىء الساحة ، سليم الأديم ، صحيح البشرة ، نقى الحجرة ، وإنى أقسم
بالله أجل الأقسام إلى ما حلت مئزرى على فرج حرام قط ، ولا يحاسبني
ربى بكبيرة الزنا منذ عقلت إلى يومى هذا . والله المحمود على ذلك ، والمشكور
فيما مضى ، والمستعصم فيما بقى . ولم يغفل الإشارة إلى ما أتيح له من أسباب
هذه العصمة فيقول : « وكان السبب فيما ذكرته أنى كنت وقت تأجج نار
الصبا ، وشره الحداثه ، وتمكن غرارة الفتوة ، مقصوراً محظوراً على ، بين
رقباء ورقائب » (١) .

فها نحن أولاء إذن لقاء صبي مترف حاد العاطفة ، تحيط به ألوان
المتع ، وتساوره شتى مغريات الحس ، وتتبرج له المفاتن المختلفة تملأ نفسه
إحساساً بالجمال ، وقلبه شعوراً بالحب ، وتشيره بطبيعة الأمر إلى التعبير
الخارجى عن ذلك الشعور ، وإرضاء ذلك الهوى ، وتحقيق ذلك النزوع .
ولكنه فى الوقت نفسه محكوم باعتبارات الدين والفضيلة ، مأخوذ بطائفة
أخرى من المثل العليا ، تقوم عليها من حوله هذه الجماعة من الرقباء
والرقائب ، تحبسه عما قد يعد إسفافاً ، وتمسكه عن انتهاك تلك الحرمات
التي لا بد من رعايتها والوقوف عندها .

فكيف تتجه إذن هذه الرغبة الطبيعية القوية من التعبير الخارجى
عما يملأ نفسه ويغمر حسه ، وما عسى أن تكون المسارب التي يمكن أن
يتسرب فيها ذلك النشاط الوجدانى ، فى تلك الحياة المحصورة وذلك
الأفق المحدود ؟ .

(١) طوق الحمامة ، ص ١٢٥

لقد كان ابن حزم مغرماً في صباه — كما يتحدث هو عن نفسه —
بتعقب النساء في القصر ، وتتبع أخبارهن ، وتعرف أحوالهن ، والتسمع لما
يدور بينهن مستشعراً في ذلك شيئاً من المتعة . وكن هن من ناحية أخرى
يأنسن إليه ، ولا يجدن في أنفسهن حرجاً أن يفضين إليه بأحاديثهن
وما تضطرب به قلوبهن وما يدور بينهن ، كما يبدو ذلك من الأخبار الكثيرة
التي يوردها في كتابه طوق الحمامة ؛ عن مشاهدته الشخصية ومعرفة المباشرة .
وقد أوردنا منذ قليل قوله عن نفسه : « ولم يكن وكدي وإعمال ذهني
منذ أول فهمي وأنا في سن الطفولة جداً ، إلا تعرف أسبابهن والبحث
عن أخبارهن وتحصيل ذلك » . كما يقول في موضع آخر : « فلم أزل باحثاً
عن أخبارهن ، كاشفاً عن أسرارهن ، وكن قد أنسن مني بكتمان ، فكان
يطلعنني على غوامض أمورهن ، ولولا أن أكون منبهاً على عورات
يستعاذ بالله منها لأوردت من تنبههن في الشر ومكرهن فيه عجائب
تذهل الألباء » (١) .

وقد كان هذا مسرباً من المسارب التي يستطيع نشاط ذلك الصبي
الوجداني أن يتسرب من خلالها ، ويجد شيئاً من الروح فيها ، وبفضل
ذلك استطاع بعد أن يضع كتابه « طوق الحمامة » ، بذلك الأسلوب
الخاص الذي لا يعتمد على النقل ، ولا يصدر عن الرواية كما كان الشأن
الغالب في أشباهه من الكتب ، وإنما هو يصدر في معظمه عن تجاربه
الخاصة ومشاهداته الشخصية ، ثم ما يجري به الحديث بينه وبين الثقات

(١) طوق الحمامة ، ص ١٢٤ — ١٢٥

من أهل زمانه . فنجن في حقيقة الأمر ، ندين — أول ماندين به في ذلك الكتاب — إلى تلك الحالة الخاصة التي فرضت على ابن حزم في تلك المرحلة من حياته ، وإلى تلك المرحلة يرجع — في الواقع — الأصل في تأليف ذلك الكتاب ، الذي وضعه بعدها بما يقرب من عشرين عاماً ، كما سنرى ذلك في حينه .

فهذا أحد الوجوه التي اصطنعها ذلك النشاط الوجداني المقصور المحظور عليه بالرقباء والرقائب والمثل الدينية العليا . وهناك وجه آخر كان يجد فيه هذا النشاط متنفساً له ، ومسرّاً يتسرب فيه ، وهو تلك المجالس الفنية العامة بالصور المختلفة التي ترضى شهوات السمع والبصر ، على النحو الذي رأيناه فيما أوردنا عنه من قصة صاحبه المتأبية .

ثم وجه ثالث جعل ذلك النشاط يظهر به ، ويتخذ منه مجالاً له ، ومستراحاً يستروح فيه ، وهو الشعر يشغل به نفسه ، ويعتبر به عنها ، ويرى فيه أهواءه ونوازعه وخوارج نفسه وأحاديث قلبه ومكنونات ضميره متمثلة بين يديه في صورة جميلة من صنعه . وكأنما هو قد اتخذ من هذه القطع الشعرية بديلاً عما كانت تطمح إليه أهواؤه وتصبو إليه غرائزه ، وإذا تلك الأهواء والغرائز قد استحال وتحوّرت ، فصارت قصيدة أو قطعة من الشعر ، فيها الفتنة والجمال ، فهو منصرف إليها مشغول بها .

فهو إذا انصرف من لدن صاحبه تلك الشرود النفور المتأبية ، ولواعج الهوى وحسرات المنع والحرمان تضطرم وتتأجج في قلبه ، لجأ إلى الشعر ، يصعد به ذلك اللهب المتضرم ، فيوجه إليها بهذه الأبيات :

منعت جمال وجهك مقلتيًا ولفظك قد ضننت به عليًا
أراك نذرت للرحمن صوما فليست تكلمين اليوم حيًا
وقد غنيت للعباس شعرا هنيئًا ذا لعباس هنيًا
فلو يلقاك عباس لأضحى لفوز قاليا وبكم شجيا^(١)

فإذا قال هذه القطعة من الشعر وجعل يترنم بأبياتها، ويردد مقاطعها ونغماتها، فقد أحس بأن نفسه قد ثابت إليه هادئة راضية مطمئنة، كأنما قد تسربت لواعجه من خلالها. فإذا كان ذلك فقد تمثلت صاحبتة له بعد ذلك مرة أخرى، وقد سكنت عنه حسراته، فهو يلتبس لها المعاذير فيما جرعته من حسرات المنع والحرمان فيقول:

لاتلها على النفار ومنع الـ وصل ما ذا كم لها بنكير
هل يكون الهلال غير بعيد أو يكون الغزال غير نفور

على أن في رياضة الشعر ومعالجة القريض نفسها، بالتماس اللفظ وإقامة الوزن، وبتوليد المعاني والصور، ما هو جدير أن يصرف إليه شيئًا من ذلك النشاط الوجداني المتدفق الذي لا يكاد يجد له مسربًا. فقد كان ذلك الصبي لا يفتأ، إزاء ما كان يتعرض له دائماً من ألوان المشاعر والعواطف والحنن النفسية، يلجأ إلى الشعر، ويفزع إلى القريض، يروضه ويعالجه، يلتبس له المادة من هنا وهنا، ويجهد في تسوية هذه المادة وتنسيقها وتأليف ما بينها، محاولاً أن يصوغ هذه المشاعر والخوارج التي ما تزال نفسه مضطربة بها،

(١) طوق الحمامة، ص ١٠٩ — ١١٠

في مثل تلك الصور الشعرية الأنيقة الرائعة التي عرفها فيما كانت مربيته
ومثقفاته يلقينه عليه، وينشدنه إياه، ويأخذنه بروايته وحفظه، وفيما كانت القيان
تغنيه وتطرب به أصواتها وتؤلف بينه وبين نغمات العود؛ فهو يبذل في
هذه الصياغة قدراً غير قليل من نشاطه، إلى جانب ما يشعر به من رضا
وارتياح ومتاع حين تستوى القطعة التي أرادها وحاولها بين يديه.

لقد كان ذلك نوعاً من أنواع اللعب، ولوناً من ألوان العبث، يلهو به
ذلك الصبي، وينزع إليه ذلك الفيض الوجداني الزاخر الذي تموج به
نفسه. ولعلنا نستطيع أن نرى صورة واضحة من هذا اللون من ألوان اللعب
في هذه القطعة التي يوردها في سياق كلامه عن الهجر الذي يوجبه التدلل،
وقدم لها بقوله:

«ولقد عرض لي في الصبا هجر مع بعض من كنت آلف — على هذه
الصفة — وهو لا يلبث أن يضمحل، ثم يعود. فلما كثر ذلك قلت على
سبيل المزاح شعراً بديهاً، ختمت كل بيت منه بقسم من أول قصيدة طرفة
ابن العبد المعلقة... وهي:

تذكرت ودّاً للحبيب كأنه	لخولة أطلال ببرقة ثمهد
وعهدى بعهد كان لي منه ثابت	يلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد
وقفت به لا موقفاً برجوعه	ولا آيساً أبكى وأبكى إلى الغد
إلى أن أطال الناس عذلي وأكثروا	يقولون: لا تهلك أسي وتجلد
كأن فنون السخط ممن أحبه	خلايا سفين بالنواصف من دد
كأن انقلاب الهجر والوصل مركب	يجور به الملاح طوراً ويهتدي

فوقت رضا يتلوه وقت تسخط
كما قسم الترب المفایل باليد
ويبسم نحوى وهو غضبان معرض
مظاهر سخطى لؤلؤ وزبرجد» (١)

وإذا كان هو فى هذه القطعة يصرح أنه لم يكن جاداً فى وضعها ،
وإنما كان مازحاً عابثاً ، فما أ كثر الشعر الذى يرى نفسه فيه جاداً ،
وليس إلا اللعب بعينه . وهل يرى الطفل وهو يعبت بلُعبه إلا أنه جاد كما
يمجد الرجال ؟

ومن هذا النوع من الشعر هذه القطعة التى يقدم لها بقوله : « وفى
هذا المذهب الذى عليه الناس أقول من قصيدة قلتها قبل بلوغ الحلم ، أولها :
دليل الأسى نار على القلب تلفح ودمع على الخدين يهيمى ويسفح
إذا كتم المشغوف سر ضلوه فإن دموع العين تبدى وتفضح
إذا ما جفون العين سالت شؤونها ففى القلب داء للغرام مبرح» (٢)

وهكذا كان ابن حزم يشغل حياته المقصورة فى تلك المرحلة . وهكذا
كان يسرى عن نفسه ويروح عن عواطفه بريضة الشعر ، يعبت بصياغته
وتأليفه ، كما يعبت الوليد بلعبه ، وكما يتسلى الطفل بصنع دماه .

وتلك هى بداية ذلك الشاعر الذى لم يمنعه إمعانه فى الدرس واستغراقه
فى العلم أن يبلغ من الشعر مرتبة مذكورة ، حتى ليعلق ابن حيان على
إحدى مقطوعاته بقوله : « ويالبدائع هذا الخبر ، على بن حزم ، وغرره !

(١) طوق الحمامة ، ص ٦٦

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٦

ما أوضحها على كثرة الدافنين لها ، والطامسين لحاسنها» ^(١) ، وحتى
يقول عنه تلميذه الحميدى ، وهو الذى صحبه زمانا ، وعنى بجمع شعره :
« كان لشيخنا الفقيه أبى محمد ابن حزم فى الشعر والأدب نفس واسع ، وباع
طويل ، وما رأيت أسرع بديهته منه ، وشعره كثير » ^(٢)

وإذا كانت شاعرية ابن حزم ترجع — كما رأينا — إلى تلك الملاحظات
التي لا بست وجدانه ، وإلى ما أخذته به معلماته ومثقفاته من رواية الشعر
وحفظه وتذوقه ، فإنها ترجع أيضاً إلى تلك المجالس الأدبية التي كانت تنعقد
فى قصر العامريين ، وقد أشرنا من قبل إلى مبلغ عنايتهم بالأدب وتشجيع
الآداب وحمايتهم . وقد أتيح لصاحبنا أن يشهد بعض هذه المجالس ، وهو
فى مطالع شبابه .

ويحكى المقرئ فى الفصل الذى كتبه عن أبى العلاء ، صاعد بن الحسين
البغدادى ، عن الحميدى ، أنه قال : « سمعت أباً محمد بن حزم الحافظ يقول :
سمعت أباً العلاء صاعدا ينشد بين يدي المظفر ابن أبى عامر ؛ من قصيدة
يهنيه فيها بعيد الفطر سنة ٣٩٦ :

حسبت المنعمين على البرايا فألفت اسمه صدر الحساب
وما قدمته إلا كأنى أقدم ، تاليا ، أم الكتاب » ^(٣)

وإذن فقد كان ابن حزم يغشى مجالس العامريين ، ويستمتع إلى

(١) الذخيرة ، القسم الأول ، المجلد الأول ، ص ١٤٤

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٤٥

(٣) نفح الطيب ٢ : ٧٢٦ ط بولاق .

ما ينشد فيها من الشعر ، وما يدور فيها من طرائف الأدب ، وهو في
الثانية عشرة من عمره ، في عهد المظفر العامري ، ابن المنصور رأس العامريين .
ولكننا إذ نذكر مجالس العامريين هنا يجب ألا نطلق القول إطلاقاً
فنحمل عهد المظفر على عهد أبيه المنصور ، فبينهما بون بعيد في كثير من
النواحي ، ولا سيما هذه الناحية التي تتصل بالأدب وتقديره ، والعناية
بمجالسه ، وهي الناحية التي تعيننا هنا . ومن ذلك ما يصفه به ابن حيان ،
من أنه كان « رجلاً عديم الفهم والمعرفة جملة ، صفراً من الأدب والتعاليم ،
حتى ما كان يسايره ويناديه إلا العجم ، من الجلالة والبربرة ، ممن لا يش
لسماع ، ولا يطرب لإيقاع ، فارتفعت بذلك عن مجالس لهوه طبقة المعرفة ،
وقوض عنها كل فاضل وعالم ، واعتاض منهم بحفاة البربر والأعاجم » .
ولكن ابن حيان لا يلبث حتى يستدرك على تلك الصفات التي تضع من
شأنه جملة ، بقوله : « إلا أنه مع زهده في الأدب تمسك بمن كان استخلصه
أبوه من طبقات أهل المعرفة ، من خطيب وشاعر ، ونديم وشرطي ،
ومعدل وتاريخي ، وغيرهم ؛ حفظاً لصنائع والده ، وقياماً برسومه ، فقررهم
على مراتبهم ولم ينقصهم سوى الفوز بخصوصيته » (١)

فقد كان المظفر إذن رجلاً غفلاً من الناحية الأدبية ، ولكن رعايته
لذكرى أبيه وحفظه لصنائه ، هو الذي أتاح لتلك الصبغة الأدبية أن
تستمر ، وأتاح لرجل كصاعد البغدادى أن يظل على صلته بذلك القصر .
وإنه مهما يكن من أمر ، ومهما يكن شأن هذه المجالس الأدبية التي كانت

(١) الذخيرة ، القسم الرابع ، المجلد الأول ، ص ٦٠

تنعقد في القصر العامري أيام المنصور قد هان وضعف ، فلم نعد نشهد بعد
هذه المساجلات الرائعة بين شاعر كأبي العلاء صاعد ، ومن كان يناظره
من شعراء الأندلس وأدبائها ، كابن العريف وابن شهيد والزبيدي والقسطلی
والطيني والعاصمي ، مهما يكن ذلك ، فقد كانت هنالك بقية من تلك الحياة
القوية النشيطة ما تزال تتأرجح بين حين وحين في ذلك القصر ، وكان
الشعراء ما يزالون ، على كل حال ، يفدون عليه ، يمدحون المظفر ، وإن لم
يكونوا يبالغون في تجويد شعرهم والتنويق فيه ، كما كان شأنهم أيام المنصور
ولكنهم كانوا يحفظون على ذلك القصر شيئاً من طابعه الأدبي الأول .
وكان لابن حزم من ذلك مادة لشاعريته الباذئة ، حين يصغى إلى هؤلاء
الشعراء ينشدون أشعارهم فيضطرب لها ، وتهتز نفسه الغضة إعجاباً بها ،
ويذهب به ذلك الإعجاب مذهب الرغبة في احتذائها وتقليدها . إن فيها
شيئاً يثيره غير ذلك الذي عرفه في الشعر القديم ، ترتسم فيه روح العصر ،
ويجعله أشد حباله وميلاً إليه ، ورغبة في النسج على منواله ، كما يجعل ذلك الشعر
أقرب تمثلاً ، فهو ما يلبث حتى يستحيل غذاء ملائماً كل الملاءمة لشاعريته ،
وعنصراً مثيراً لنشاطها . وهكذا كانت هذه المجالس الأدبية ؛ على ضعفها
وإدبارها ، عاملاً كبير الأثر في توجيه ذلك الصبي وهو يرتاض بصناعة الشعر .
ولم تكن صلة ابن حزم الأدبية بالقصر العامري مقصورة على هذه المجالس
التي يغمرها التحفظ ، ويطبعها الطابع الرسمي ، ولكنها كانت تتجاوزها إلى
مجالس أخرى أكثر ملاءمة له ، وأدنى إلى قلبه ، في دائرة الحرم ، فكان يجلس
إلى بعض العامريات من أهل صناعة التلمحين والغناء ، يتمتع أذنه وذوقه وقلبه

بالاستماع إلى غنائهم وضريرهم بالعود، وبالتحدث إليهم في شتى الأحاديث التي
 يصبون إليها؛ وكن — كما رأينا من قبل — يأنسن إليه. وكان منهم من عرفن فيه
 شاعرية جميلة باضحة، وحسن تصرف في المعاني وتخير للألفاظ، فكان يقترحن
 عليه أن يضع هن بعض المقطوعات الشعرية ليلحنها ويصنعن منها أصواتاً
 يغنين فيها، فكان يسارع إلى إجابة رغباتهن. وقد حكى هو من هذا القبيل
 أن ضفا العامرية، إحدى كرائم المظفر عبد الملك بن أبي عامر طلبت إليه أن
 يصنع لها أبيتاً اقترحت هي عليه معناها، وكان — فيما يقول — يجلبها،
 فأجابها، وقدمها إليها، وصنعت هي فيها لحناً رائعاً جداً، في طريقة النشيد
 والبسيط، على حد قوله. أما هذه الأبيات فهي هذه:

خل هذا، وبادر الدهر، وارحل	في رياض الربى مطى العفار
واحدها بالبديع من نغمت الـ	مود كما تحت بالمزمار
إن خيراً من الوقوف على الدا	ر وقوف البنان بالأوتار
وبدا النرجس البديع كصب	حائر الطرف مائلاً كالمدار
لونه لون عاشق مستهام	وهو — لاشك — هائم بالبهار ^(١)

ومن هذا الخبر نرى كيف كانت هذه المجالس، في دائرة الحرم، تمد شاعريته،
 لا بما ترهف من ذوقه، وبما تعرض عليه من ألوان الجمال الفني فحسب، ولكن
 كان يجد فوق ذلك من هؤلاء العامريات معلمات ومتقفات لزرعته الشعرية، إذ
 يقترحن عليه المعاني، ويصنفن أمامه بعض الصور الشعرية، على النحو الذي
 نراه في هذه القطعة الأنيقة، وهي أشبه شيء بتلك الحياة الناعمة المترفة الموثقة.

(١) طوق الحمامة، ص ١١٣

وبعد، فها هي ذى حياة ابن حزم فى هذه المرحلة الأولى ، قدر ما أتيح
لنا أن نتعرفه منها . وقد رأينا أن الصفة الغالبة عليها هى ذلك القصر
المفروض عليه فيها ، وتلك الحدود المضروبة على نوازعه وأهوائه ، فى تلك
الصورة الدقيقة الجميلة ، كما رأينا أن تلك الصفة كانت كبيرة الأثر فى توجيه
نشاطه الوجدانى تلك الوجهة الفنية .

وعندنا أن هذه المرحلة بهذه الصفة الغالبة عليها كانت أخطر فترة فى
تاريخ حياته ، وأبعدها أثراً فى تكوين صفاته النفسية ، وفى تهيئة شخصيته
تلك الهيئة الخاصة التى عرفناه بها بعد . فهى فى رأينا التى أفسدت عليه
حياته كبيراً ، بما خلفت فيه من الاستيحاش وإساءة الظن بالناس والفجاجة
فى الحياة الاجتماعية ، فقد عاش بعد ذلك ما عاش — كما سنرى — فى
مضطرب الحياة وفى خضم المجتمع الأندلسى الذى كان يمر بفترة من أعنف
فترات تاريخه اضطراباً وتدافعا ، وهو مقصور على نفسه ، مطوى على نوازعه
الخاصة ، لا يكاد يقيم لما حوله اعتباراً ، إلا أن يكون اعتباراً يراه هو ،
وبذلك كان بغيضاً لدى جمهرة كبيرة من الناس ، يغمطونه فضله ، ويحقدون
حقه ، ويسترون حسناته ، إذ كانت حياته هذه المقصورة التى خرج منها
— كما سنرى — فجأة إلى الخضم الجياش المضطرب ، جعلته شديد الجهل
بسياسة الناس وما يمكن أن يسمى بالأخلاق الاجتماعية ، ثم ترتب على
ذلك ما ترتب عليه فى حياته وسمات شخصيته ، وكل ذلك يبدأ من هنا ،
فهو نتيجة طبيعية من نتائج تلك النشأة المقصورة ، فى هذه المرحلة التى
امتدت إلى سنة ٣٩٩

بأنهاء هذه المرحلة تبدأ مرحلة أخرى في حياة ابن حزم ، وحياة الأندلس جميعاً ، وهي المرحلة التي تبدأ في هذه السنة ، سنة ٣٩٩ هـ ، وتمتد خمس سنين ، إلى سنة ٤٠٤ هـ .

في هذه السنة يبدأ عند فتانا « ابن حزم » دور التحصيل المنظم ، كما هو الشأن عند طلاب العلم عامة ، بالسماع من أئمة العلم ، والتلقى عن رجال الأدب ، ورواية فروع المعرفة المختلفة على الأسلوب المعهود ، بالجلوس إلى هؤلاء الشيوخ في مجالسهم التي يتخذونها ، أو حلقاتهم التي يعقدونها في مسجد قرطبة الجامع وما إليه من المساجد . وبذلك خرج صاحبنا من تلك البيئات المقصورة إلى العالم الواسع الرحيب ، وانتقل من تلك المجالس الخاصة التي لا تكاد تعرف من ألوان الحياة إلا لونا واحداً متشابهاً ، إلى تلك المجالس العامة التي تجتمع فيها الألوان المختلفة ، وتلتقي فيها شتى النزعات والصور والأساليب .

نقلة بعيدة من طرف إلى طرف ، لم يهيا ابن حزم لها إلا بما كان يتاح له أحياناً من شهود بعض المجالس في القصر العامري ، وهي تهيئة قليلة الغناء . ومع ذلك فلو أن الأمر اقتصر على هذا الانتقال من تلك المجالس الخاصة في ظل السجف والستائر ، إلى تلك المجالس العامة التي

لا يكاد يحدها حد ، لكان عسى أن يكون هيتا . ولكن الأمر كان
أخطر من هذا ، حتى ليكاد يعتبر - إلى حد بعيد - انقلاباً في حياة هذا
الفتى الرقيق المرهف المترف .

ذلك أن هذا الانتقال في حياة ابن حزم الخاصة كان يوافق فترة انتقال
- بل فترة انقلاب - في حياة الأندلس ؛ اضطربت فيها الأمور أيما
اضطراب ، واختلطت قيم الحياة فيها أشد اختلاط ، وانقلبت نظم المجتمع
فيها انقلاباً شديداً الخطر بعيد الأثر في حياة ذلك القطر من نواحيها المختلفة
وعمت الثورة والحروب الأهلية ، تمزق الناس كل ممزق ، وعانت قرطبة
بصفة خاصة ألواناً من الهول شديدة ، وصنوفاً من البلاء الماحق عنيفة طاغية
ذلك هو العهد الذي يسمى في تاريخ الأندلس بزمان الفتنة ، أو « الفتنة
المبيرة » كما يقول ابن عذاري . وقد بدأت في العام الذي خرج فيه فتانا
ابن حزم إلى الحياة العامة ، فهو قد خرج من النقيض إلى النقيض ، من
حياة هادئة كل الهدوء ، مقصورة أشد القصر ، يسودها الحب وترفرف
عليها ملائكة الجمال والرحمة ، إلى حياة مضطربة مضطربة يمجج بعضها في
بعض ، تسيطر عليها أبالسة الشر ، وتقودها شياطين البغضاء والحقد . وبالله
لهذا الصغير الناشئ الغريز ، وتلك النفس الغضة الناعمة ، من ذلك
الانقلاب الذي بوغمت به بكل معاني المباغته .

انقضت في هذا العام دولة العامرين بين ثورة الأمويين والقرشيين عليهم ،
واتزاعهم السلطان منهم ، بقتل ثالثهم الذي لم يكثف بالحجاجة ، بل أراد

أن يكون ولياً للعهد ، وخلع الخليفة هشام المؤيد أو هشام آل عامر ، (١)
على حد تعبير أبي طالب عبد الجبار في أرجوزته (٢) ، ووثوب المهدي ، محمد

(١) هو عبد الرحمن الناصر لدين الله ، الابن الثاني المنصور ابن أبي عامر ، وكان
يلقب بشنجول أو شنشول ، وفي التعليق على هذه الكلمة يقول العلامة دوزي في كتابه .
Recherches (الجزء الأول ص ١٨٨) إنها تفسير لكلمة Sancho أو شانجة
ويذكر أن ابن حيان يقدم لنا من هذا الأسلوب في التفسير مثلاً آخر ، إذ يتحدث
عن أحد قواد ابن حفصون ، فيسميه أحياناً « الأحيمر » وأحياناً « الريول » ،
وأولى هاتين الكلمتين تفسير لكلمة الأحمر العربية ، والأخرى Royol تفسير
لكلمة الرومانية royo (rouge) التي كانت مستعملة في أسبانيا في ذلك الوقت ،
فكلمة El royo كانت لقبا أو نبزا منذ وقت مبكر ، وفي القرن الحادي عشر كان يلقب
بهذا اللقب مقاتل البربري ، قائد الأمير الفراتي ابن بلجين ، إذ يقول ابن الخطيب إن
مقاتلا هذا كان يعرف بالروية لحرة كانت في وجهه . ولا يزال الأسبانيون اليوم يلقبون
الرجل الصغير الأحمر اللون El royuel لأن لغتهم غيرت حرف o اللاتينية أو الرومانية
بحرف ue ولكنهم في القرن التاسع كانوا يقولون El royol وهذه الكلمة هي
مرادفة للأحيمر ، إحداهما ترجمة للأخرى ، وهكذا تكون سنشول تفسير سانشو ،
كما أن روبول تفسير روية . . . وكان عبد الرحمن يلقب بهذا اللقب لأن أمه هي ابنة
سانشو الأمير المسيحي ، فكان هذا اللقب نبزا لذلك الشاب التيمس . ويقول دوزي
لأنه من أجل ذلك كان فقهاء المسلمين متعصبين عليه ، محرضين على قتله ، لأن مولده
كان عندهم رجسا لا سبيلا إلى محوه ، وكان مجرد التفسير في أن حفيد شانجة الكافر
يرتقى عرش الخلفاء يثير في نفوسهم رعدة الاشتزاز (ويذكرنا ما ذكره دوزي عن
الأحيمر والريول بما أشار إليه الأستاذ جراثيا جوميز في إحدى محاضراته من أن لقب
الرمادي الشاعر هو ترجمة لكنيته « ابن جنيس » ، وهي تعريب للكلمة الأسبانية
cenize ومنها الرماد) .

(٢) الذخيرة ، القسم الأول ، المجلد الثاني ، ص ٤٢٧ .

ابن هشام بن عبد الجبار بن الناصر على عرش الأندلس ، وقد جمع في يده السلطان كله .

ولكن هذه الضربة التي ضربها المهدي ، وظاهره عليها كثير من أهل قرطبة لتخليص الخلافة الأموية ، كانت في حقيقة الأمر الثغرة التي تسربت منها القوى المخترنة المكتنزة ، فانهار ذلك البناء الشامخ ، ونفذت منها إلى الأندلس عامة وقرطبة خاصة ، صنوف البلايا والكوارث والفواجع التي ما زالت بها حتى محقتها ^(١) .

لم يكد المهدي يضرب ضربته هذه ، فيستولي على الأمر بما دبر من قبل صاحب الشرطة ، بمقعده من باب قصر الخلافة ؛ ثم قتل الحاجب عبد الرحمن العامري ، ثم بقتل أميرين من أمراء بيت الخلافة ، وهما هشام ابن سليمان بن عبد الرحمن الناصر وأخوه ، ثم بإعلان موت الخليفة السابق المخلوع هشام المؤيد ، تمويها ، حتى لا يتعلق به متعلق ؛ لم يكن يفعل ذلك كله ، ويحسب أن الأمر قد استقر له ، وأنه قد أخضع عناصر البربر وموالي العامريين ، بعد أن شردهم وأناخ على ديارهم فأنهبها ودمرها وأجلى أهلها عنها ، حتى كانت العاصفة قد تجمعت لتنفق ، إذ كان سليمان بن الحكم قد أجمع أمره ، وأخذ أهبطه ، واجتمعت البربر الموتورون حوله ، ثم لم يلبث

(١) لم يفت المؤرخين أن يقدروا أثر هذا الحدث وانسحابه على تاريخ الأندلس ، يقول المقرئ (١ : ٧٠) عن المهدي : « ولقد كان قيامه مشؤوما على الدين والدنيا ، فانه فاتح أبواب الفتنة بالأندلس ، وماحى معالمها ، حتى تفرقت الدولة ، وانتثر السلك ، وكسر الرؤساء ، وتناول العدو إليها ، وأخذها شيئا فشيئا ، حتى محى اسم الاسلام منها »

أن كر على المهدي بقرطبة ، ولما تمض على ولايته الخلافة عشرة أشهر ، كانت هذه المدينة فيها مسرحاً عجيباً للقوضى الشاملة ، والاضطراب الماحق ، والفساد الخلقى ، وهوان الضمير الإنسانى . ثم نشبت المعركة التى تعرف بمعركة « فنتيش » ، فى ١٣ ربيع الاول سنة ٤٠٠ ، وقد دارت فيها الدائرة على المهسدى ، فخرج من قرطبة واستقر مكانه فيها سليمان بن الحكم ، متخذاً لقب « المستعين » .

ولكن الأمر لم يستقر فى شىء ، فإنما خرج المهدي من قرطبة ليجمع جموعه وينظم قواته ويكر ثانية عليها ؛ وبقي المستعين فيها يدبر أمره ويعد العدة لطرده عنها . وكذلك لم تمض ستة أشهر حتى كان المهدي على أبوابها ودار القدر دورته ، فإذا هو فى قرطبة متبوئاً عرشها مرة أخرى ؛ وخرج المستعين عنها فى شوال من السنة نفسها

ولم يكد المهدي يقر عينا برجوعه إلى قرطبة ، واطمئنانه إلى أنه قد أخضع خصومه ، حتى رأى النذر تنذره ، وشاهد الجو يتربد أمام عينيه . وعلم أن الشر منبثق هذه المرة من قرطبة نفسها ، فهام أولاء أصحابه وأنصاره يتنكرون له ، وينفضون من حوله ؛ وإذا بأهل قرطبة يضيقون ذرعاً به ، ويرونه السبب الأول فيما حاق بهم ، وأصاب مدينتهم ، فشغبوا عليه ، وأخرجوا هشاماً المؤيد ، خليفتهم فى عهدهم الزاهر ، والذي كان قد أعلن موته منذ عام وبعض عام ، من محبسه بالقصر ، وأجلسوه للخلافة ، وبايعوه عليها ، وجاءوا بالمهدي ، فضربوا عنقه بين يديه فى آخر سنة ٤٠٠ .

ولكن الفتنة ظلت باسطة سلطانها ، ولم تظفر قرطبة بشىء من الروح

الذي كانت تأمله وتستشرف إليه ، وقدمت رأس المهدي قرباناً له ، فلم يغن ذلك عنها شيئاً . فلم يخرج المستعين حين خرج عنها ليعتزل الأمر ، وإنما خرج ليدبر من جديد أمره ، ويجمع حوله شمل البربر الناقمين على الأمر في قرطبة ؛ وكذلك ضرب بهم الحصار عليها ، « ولم يغن عن أهل قرطبة ما فعلوه (من قتل المهدي وإعادة المؤيد) شيئاً ، إلى أن هلكت القرى والبساتط بقرطبة ، وعذمت المرافق ، وجهدهم الحصار . وبعث المستعين إلى أهل أذفونش يستعديهم لمظاهرة ، فبعث إليهم هشام وحاجبه واضح ، يكفونهم عن ذلك ، بأن ينزلوا لهم عن ثغور قشتالة التي كانت المنصور افتتحها ؛ فسكن عن مظاهرتهم عزم اذفونش . ولم يزل الأمر حتى دخل المستعين قرطبة ، ومن معه من البربر عنوة ، سنة ثلاث وأربعمائة ، وقتل هشام سرّاً ، ولحق بيوتات قرطبة معرة في نساءهم وأبنائهم »^(١) وقد اشتدت على أهل قرطبة وطأة هذا الحصار وأجهدهم أشد الجهد ؛ وتعرضوا بسببه لكثير من المكاره . وكان من أشد ذلك عليهم وباء الطاعون الذي وقع في قرطبة في أثناء سنة ١٠١٠ ، وجعل من دورها موطناً للحزن والفرع ؛ ونال بيت ابن حزم نصيبه من ذلك ، كما سنرى بعد قليل

وبعد ، فهذه صورة من الحياة في قرطبة في هذه المرحلة من حياة صاحبنا ، وهي صورة تبعث الأسى والأسف . وقد كان لهذا الاضطراب أثر كبير --- ولا ريب --- في الحياة الأدبية والعلمية فيها . فمن العلماء

(١) نفح الطيب ١ : ٣ - ٢ .

والأدباء من لقي في هذه الفتنة حتفه ، كأبي الوليد ابن الفرضي ^(١) ، ومنهم من أخرجته وشردت به كل مشرد ، كأبي عمر القسطلی ، « سباق حلبة الشعراء العامريين ، وخاتمة محسنی أهل الأندلس أجمعين » ^(٢) ، ومنهم من بقي بها على مضض ، محتملا المقام فيها على كره ، مكابدا صعوبة الحياة ومتاعب العيش وآلام الخوف والقلق ، في هذا الكساد الذي سيطر على سوق الأدب فيها ، كأبي العلاء صاعد البغدادي ، وقد تناصرت عليه خلال المكروه ، بارتجاج الفتنة ، غلاء سعر ورخص شعر ، حتى اختل وعجز عن ستر ولده وأهله . وبخل هشام على ذلك كله بتسريحه ، والإذن في الانطلاق عن الأندلس ، فرقا من خبث لسانه » ^(٣) .

أما أثر هذا الاضطراب وتلك الفتنة في الناحية الخلقية فواضح جدا في كثير من أخبار هذه الفترة ، إذ تدل على مبلغ اضطراب المعايير وانكسار المثل . وحسبنا أن نعرف تاريخ رجل كواضح العامري ، الذي استطاع بالرغم من ولائه للعامريين وانتسابه إليهم ، أن يتولى المهدي الخارج عليهم ، وقاتل كبيرهم ، ثم يكون حاجبا له ؛ ولكنه لا يلبث حتى ينقلب عليه ويدبر مقتله . وسنرى في سياق هذه السيرة كثيرا من هذه الصور .

ومن ذلك كله نستطيع أن نتصور أي نقلة عنيفة مفاجئة تلك التي تعرض ابن حزم لها في مطالع شبابه ، وأي حياة هذه التي تفتحت عليها

-
- (١) الذخيرة ، القسم الأول ، المجلد الثاني ، ص ١٣٠ .
(٢) المرجع نفسه ، القسم الأول ، المجلد الأول ، ص ٤٤ .
(٣) المرجع نفسه ، القسم الرابع ، المجلد الأول ، ص ٣٨ .

عينه بغتة ، ولا سيما إذ كان — بطبيعة الصفة السياسية التي توسم بها أسرته — عرضة لمعظم هذه الخطوب والحن . مما أحدث ذلك الانقلاب السياسي العنيف الذي عرضنا منذ قليل خطوطه الرئيسية وألوانه البارزة فلم يكدر يتم ذلك الانقلاب حتى كانت مدينة الزاهرة أول ما تتجه إليه نعمة النافرين ، وتنصب عليه حفيظتهم وسخطهم وعدوانهم ، وبذلك تعرضت دور ابن حزم في هذه المدينة لتلك الحنة ، حتى لم يعد بد لهذه الأسرة من أن تجلو عنها ، وتلمس لها مقاما في ناحية أخرى . ويشير ابن حزم إلى هذا الانتقال في بعض حديثه — عرضا — إذ يقول : « . . ثم انتقل أبي رحمه الله من دورنا المحدثه بالجانب الشرق من قرطبة ، في ربض الزاهرة ، إلى دورنا القديمة في الجانب الغربي من قرطبة ، في اليوم الثالث من قيام أمير المؤمنين ، محمد المهدي ، بالخلافة ، وانتقلت أنا بانتقاله ، وذلك في جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين وثلاثمائة » ^(١) .

فذلك أول ما بغت به هذا الشاب الغض الغرير ، في إبان انتقاله من الحياة المحدودة المقصورة ، إلى الدنيا الواسعة العريضة : الخوف والفرع والحياة القلقة المضطربة . ومع ذلك فقد كانت الأقدار رفيقة معه هذه الشهور الأولى من الفتنة ، فقد استطاع أبوه أحمد بن سعيد أن يظل إلى جانب المهدي ، وأن يظفر بتقديره ، كما رأينا ذلك من قبل ، وبذلك استطاع أن يظفر بشيء من الهدوء والأمن والطمأنينة . ومضت الأيام على ذلك ، ولكنها كانت تحمل في أطوائها نذر الشر ، وقد رأينا مبلغ قلبها . فإذا كانت المناداة بهشام

(١) طوق الحمامة ، ص ١١٠ .

المؤيد خليفة ، فقد بلغت المحنة ، ومحنة هذه الأسرة خاصة ، غاية عنفوانها .
 وهذه المناداة بهشام خليفة كانت هي أيضا إحدى البغتات التي بوغت
 بها عقل ابن حزم ، فقد كان موته عنده أمرا مستيقنا ، بعد أن شهد بنفسه
 دفنه ، فما هو ذا اليوم يسمع المناداة به ، ثم يراه على عرش الخلافة ، كما
 حكى ذلك ، في سياق كلام له عن صلب المسيح وقتله ، قال : « وقد شاهدنا
 نحن مثل ذلك ، وذلك أننا اندرأنا للجبل ، لحضور دفن المؤيد هشام بن
 الحكم المستنصر ، فرأيت أنا وغيري نعشا فيه شخص مكفن ، وقد شاهد
 غسله شيخان جليان حكام من حكام المسلمين ، ومن عدول القضاة ، في
 بيت ، وخارج البيت أبي رحمه الله ، وجماعة عظماء البلد ، ثم صلينا في ألوف
 من الناس عليه ، ثم لم يلبث إلا شهورا نحو السبعة حتى ظهر حيا ، وبويع
 بعد ذلك بالخلافة ، ودخلت عليه أنا وغيري ، وجلست بين يديه ، ورأيت ،
 وبقى ثلاثة أعوام غير شهرين وأيام » ^(١) . فما كان ابن حزم يشك إذن
 أن هشاما قد مات ودفن ، فأى عجب قد أخذ بعقله ومشاعره حين يراه
 منتصبا خليفة . ولعل موالاة أبيه للمهدى إنما كانت على هذا الاعتبار ، فما
 عسى أن يكون موقف هشام منه ، وكيف يكون تأويله موالاته خصمه ؟
 وكذلك دفعت أسيرة ابن حزم ثمن ذلك الهدوء الطفيف الذي ظفرت به
 مدى هذه الشهور ، وهو يشير إلى ما عانوه من ذلك بقوله : « ثم شغلنا بعد
 قيام أمير المؤمنين ، هشام المؤيد ، بالنسكبات ، وباعتداء أرباب دولته ،
 وامتحننا بالاعتقال والترقيب والإغرام الفادح والاستتار . وأرزمت الفتنة

وألقت باعها ، وعمت الناس وخصتنا ، إلى أن توفي أبي الوزير رحمه الله ،
ونحن في هذه الأحوال ، بعد العصر لليلتين بقيتا من ذي القعدة ، عام
اثنين وأربعمائة ، واتصلت بنا تلك الحال بعده ^(١) .

هكذا كانت فترة الحصار المضروب على قرطبة ، وهكذا كانت مدة
قيام هشام ، بالقياس إلى آل حزم . لم يغن عنهم قديم ولا أنهم وسابق صلقتهم ،
ولم يدفع عنهم ذلك التهم تحقيق بهم وتجلب إليهم ألوان الحزن والكروب .
فهكذا عهد الفتنة دائما ، لا عهد له ، ولا قديم فيه ، ولا رعاية معه ، إنما
هي الريبة وحدها صاحبة السلطان المطلق ، ولا معقب لها ولا راد لأمرها .
وكذلك فرضت على آل حزم هذه الحزن الشديدة ، وأخذوا بتلك الألوان
المختلفة من المكروه ، وهكذا كان الجو الذي انتقل إليه فتانا .

وفي أثناء هذا الحصار ، وبين هذه الألوان من التشكيل ، حدثت
أحداث ثلاثة متعاقبة ، ارتجت لكل منها نفس ذلك الشاب ، وأحس
لقاءها أن القضاء يريد أن يفصل فصلا تاما بينه وبين حياته الأولى ، فيقطع
ما بقي له من الأواصر التي كانت تصله بها ، أما أولها فهو أخيه أبي بكر
أليف روحه ورفيقه في تلك الحياة الأولى ، أصابه الطاعون الذي أناخ على
قرطبة وعاث فيها ، فقضى نحبه في شهر ذي القعدة سنة إحدى وأربعمائة ^(٢) .
ولم يكذب ينقض على ذلك الحادث الذي تفرقت له نفسه عام واحد ،
حتى كان موت أبيه .

(١) طوق الحمامة ، ص ١١٠ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١١٦ .

ثم لم ينقض على مصابه هذا إلا عام أو نحوه ، حتى كانت فجيعة في حبيبته « نعم » ، وهي فجعة نستطيع أن نتصور مدى تأثره بها ، في هذه العبارات التي عبر بها عنها ، بعد مضي عهد طويل عليها ، يقارب خمسة عشر عاما ، لم يستطع أن ينسيه إياها ، وذلك إذ يقول : « كنت أشد الناس كلفا ، وأعظمهم حبا ، تجارية لي كانت فيما خلا اسمها « نعم » وكانت أمنية المتغنى ، وغاية الحسن خلقا وخلقاً وموافقة لي ، وكنت أبا عذرها ، وكنا قد تكافأنا المودة ، فقجعتني بها الأقدار واخترمتها الليالي ومر النهار ، وصارت ثالثة التراب والأحجار ، وسنى حين وفاتها دون العشرين سنة . وكانت هي دوني في السن . فلقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرد عن ثيابي ، ولا نفر لي دمة ، على جهود عيني وقلة إسعادها . وعلى ذلك فو الله ما سلوت حتى الآن ، ولو قبل فداء لفديتها بكل ما أملك من تالد وطارف ، وبيع بعض أعضاء جسمي العزيزة على ، مسارعاً طائعا . وما طاب لي عيش بعدها ، ولا نسيت ذكرها ، ولا أنست بسواها . ولقد عفى حبي لها على كل ما قبله ، وحرّم ما كان بعده » ومن تمام هذا ما أورده بعد ذلك من مرائيه فيها ، فقد أورد من ذلك بيتين ، هما :

كأنني لم آنس بالفاظك التي على عقد الألباب هن نوافث
ولم أتحمك في الأمانى كأنني لإفراط ما حكمت فيهن غابث^(١)

وهكذا كانت الكوارث ما تزال تلاحق ابن حزم ، وما تزال محن الأيام تتراءى له صريحة واضحة لأحجاب عليها ، ولا موارد فيها ، كأنما

(١) طوق الحمامة ، ص ٨٨ — ٨٩ .

تريد أن تصور له الدنيا على حقيقتها وفي شفاعتها ، في أوجز وقت ، بعد أن ظل ذلك العهد الطويل ، وقد حيل بينه وبينها بتلك الستائر التي لا تريح منها إلا مارق وعذب .

ثم انقضى الحصار ، وسامت قرطبة لسليمان المستعين ، ودخلها بجنوده من البربر ، فهل شفع لآل حزم ما قاسوه في هذه الفترة من الأذى والضرب ، وما كابدوه في دولة هشام المؤيد وحاجبه واضح العامري ؟ كلا ! وإنما كان دخول المستعين ضغنا على إبالة ، فقد كان هذا الدور أشد أدوار الفتنة وأنكاهها بقرطبة . لقد دخل البربر قرطبة بعد ذلك الحصار الطويل دخول التائر المتعطش للبطش والانتقام ، المحنق الذي يحمل في صدره مواريث أجيال طويلة من العداوة والحقد والبغضاء ، فلم يكن من همهم إلا السلب والنهب والتحريق والتدمير . ويشير ابن حزم إلى ذلك وإلى ما نال أسرته منهم ، في سياق بعض حديثه ، بقوله : « ... إلى أن ألفت الفتنة جرائمها ، وأرخت عزاليها ، ووقع انتهاب جند البربر منازلنا في الجانب الغربي بقرطبة ونزولهم فيها » ^(١) وبذلك بلغ الأمر غايته ؛ وما عسى أن يكون بعد أن أجلى آل حزم عن دورهم في الجانب الغربي من قرطبة ، كما أجلوا من قبل عن دورهم في الجانب الشرقي منها ؟

إنما هو الجلاء عن قرطبة جميعا ، مع زمر الهاربين منها ، فلم تعد لابن حزم دار مقام . وهكذا لم يمض على دخول البربر قرطبة ، وقد دخلوها ثلاث بقين من شوال سنة ٤٠٣ ، شهران ، حتى كان ابن حزم قد دبر

(١) المرجع نفسه ، ص ١١٧ .

للرحيل عنها أمره ، فكان جلاؤه عنها في مستهل عام ٤٠٤ (١) .

ترك ابن حزم قرطبة ، وهو في العشرين من عمره ، شديد الحسرة عليها ، وعلى أيامه فيها ، بالرغم من كل مالتيه بها . وقد بقيت لنا قطعة بليغة يصور فيها دور آل حزم في الجانب الغربي من قرطبة ، حيث قضى هذه المرحلة من حياته ، ما كانت عليها وما آلت إليها ؛ وهي إلى جانب تصويرها لهذه الدور تمثل مبلغ حنينه إليها ، وتعلقه بها ، حتى لم يعد يذكر شيئاً من مآسى حياته فيها ، بعد أن فارقها . قال :

« ولقد أخبرني بعض الورّاد من قرطبة — وقد استخبرته عنها —

أنه رأى دورنا ببلاط مغيث ، في الجانب منها ، وقد انحوت رسومها ، وطمست أعلامها ، وخفيت معاهدها ، وغيرها البلى ، وصارت صحارى مجدبة بعد العمران ، وفيافي موحشة بعد الأنس ، وخرائب منقطعة بعد الحسن وشعابا مفرزة بعد الأمن ، ومأوى للذئاب ، ومعارف للغيلان ، وملاعب للجان ، ومكامن للوحوش ، بعد رجال كالليوث ، وخرائد كالدمى ، تفيض لديهم النعم الفاشية . تبدد شملهم فصاروا في البلاد أيادي سبا . فكان تلك المحاريب المنمقة ، والمقاصير المزينة ، التي كانت تشرق إشراق الشمس ، ويجلو الهموم حسن منظرها ، حين شملها الخراب وعمها الهدم ، كأفواه السباع فاغرة ، تؤذن بفناء الدنيا وتريك عواقب أهلها ، وتخبرك عما يصير إليه كل من تراه قائماً فيها ، وتزهد في طلبها بعد أن طال مازهدت في تركها . وتذكرت أيامي بها ، ولذاتي فيها ، وشهود صباي

(١) طوق الحمامة ، ص ١١٠ .

لديها ، مع كواعب إلى مثلهن صبا الحليم . ومثلت لنفسى كونهن تحت
الثرى ، وفي الآثار النائية ، والنواحي البعيدة ، وقد فرقهن يد الجلاء ،
ومزقتهن أكف النوى . وخيل إلى بصرى بقاء تلك النصبة بعدما علمته
من حسنها وعضارتها ، والمراتب المحكمة التي نشأت فيها لديها ، وخلاء تلك
الأفنية بعد تضاييقها بأهلها . وأوهمت سمعى صوت الصدى والهام عليها ،
بعد حركة تلك الجماعات التي ربيت بينهم فيها ، وكان ليلها تبعا لنهارها ،
في انتشار ساكنها والتقاء عمارها ، فعاد نهارها تبعا لليلها في الهدوء
والاستيحاش ، فأبكى عيني ، وأوجع قلبي ، وقرع صفاة كبدي ، وزاد في
بلاء لبي ، فقلت شعرا منه :

لئن كان أظمانا فقد طال ما سقى

وإن ساءنا فيها فقد طال ماسرّا .^(١)

ذلك هو مبلغ تعلق ابن حزم بقرطبة التي تركها «بعد أن طال ما زهد
في تركها» كما يقول .

(١) طوق الحمامة ، ص ٩١ — ٩٢ .

في هذه المرحلة كان — كما قلنا — دور التحصيل المنظم لدي ابن حزم ، بالتلقى عن شيوخ الأدب ، والسماع من أئمة العلم . ولم تكن هذه النكبات التي عانتها قرطبة ، والصروف التي كابدها أسرته ، لتحول بينه وبين طلب العلم طلبا منظما ، فقد أشرب حب العلم ، وكان توجيهه أييه إلى الحياة العلمية توجيهها قويا مسدداً . بل لعل هذه الصروف التي واجهته كان لها أثرها في تسديده في تلك السبيل .

ويقول المقرئ في ترجمته لابن حزم إن أول سماعه كان في سنة ٣٩٩ (١) ويقول ابن بشكوال والضيبي إن أول سماعه كان من ابن الجسور ، قبل الاربعمائة (٢) وإذن فقد بدأ دراسته برواية الحديث ، كما كان الأسلوب المتبع ، وبهذا الفن من المعرفة بدأ ثقافته الدينية التي بلغ بها أقصى مراحلها وأعلى درجاتها .

أما ابن الجسور هذا الذي يذكر ابن بشكوال والضيبي أنه أستاذه الأول في علم الحديث ، فهو أبو عمر أحمد بن محمد بن الجسور ، أحد شيوخ المحدثين في قرطبة في ذلك الوقت ، إذ كان يناهز الثمانين حين أخذ ابن حزم يتلمذ عليه ويتلقى منه ، وكان من أهل الحى الذى كان يقيم فيه آل

(٤) نفح الطيب ١ : ٢٦٥ .

(٧) الصلاة ، ص ٤٠٩ ، بنية المنتمس ، ص ٤٠٣ .

حزم إذا ذاك : بلاط المغيث بغربي قرطبة . وقد كان إلى جانب حفظه
للحديث والرأى ، ومعرفته بأسماء الرجال ، ينزع نزوعاً أدبياً ، إذ كان
— كما يقول عنه ابن بشكوال — أدبياً شاعراً ، وقد كان ذلك
— ولا ريب — مما يوثق الصلة بينه وبين تلميذه الشاعر الأديب .
ويذكر الضبي أن ابن حزم قرأ عليه كتاب التاريخ ، لمحمد بن جرير
الطبري ، وهو من الكتب التي عرف ابن الجسور بإقراءها ، وكان أخذه
عن أبي بكر الدينوري ، حين دخل الأندلس قبل الحسين والثلاثمائة
وإذا كنا لا نرى اسم ابن الجسور كثيراً في الرواة الذين يروى عنهم
ابن حزم في مثل كتابه المحلي ، فمرجع ذلك ، فيما نحسب ، إلى أن صحبته
له وتلمذته عليه لم تطل ، إذ لم يلبث ابن الجسور أن قضى نحبه في الطاعون
الذي أناخ بقرطبة سنة ٤٠١ ، وذهب ضحيته أبو بكر أخو صاحبنا ابن
حزم ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك ^(١) .

وكما نلاحظ أن ابن الجسور هذا من أقل شيوخ ابن حزم وروداً في
مثل كتابه المحلي ، فإننا نلاحظ أن أكثرهم على الإطلاق هو أبو محمد
الرهوني ، عبد الله بن يوسف بن نامى . ولا ندري على وجه اليقين إذا كان
ابن حزم قد تلمذ له في هذه المرحلة التي نتحدث عنها ، ولكن أكبر الظن
أن تلمذته له قد امتدت وتجددت في مراحل أخرى في الفترات التي قضاها
في قرطبة بعد ذلك ، سنة ٤٠٩ ، سنة ٤١٤ . وقد نقل ابن بشكوال عن
ابن مهدي في صفته أنه « كان رجلاً صالحاً خيراً فاضلاً ، لا يقف بباب

(١) الصلة ، ص ٢٤ — ٢٥ ، بغية المتمس ، ص ١٤٣ .

أحد ، ولا يزول عن تأديبه بمسجد أبي خالد بالمدينة . وكان مجوداً
للقرآن ، قديم الطلب ، حسن الخلق ، شديد الانقباض ، جيد العقل ،
خاشعاً ، كثير البكاء ، متحرياً فيما يسمع ، متحفظاً به ، ورعاً في دينه »^(١)
وإذا نحن اعتبرنا ما لاحظناه من أنه أ كثر شيوخ ابن حزم ترددوا في
كتبه ، استطعنا أن نفترض من هذا إلى أي حد كان شديد الاتصال به ،
والأخذ عنه ، كما استطعنا أن نعرف فيه واحداً من الذين تأثر ابن حزم
بهم ، في اعتداده بنفسه واستقلاله برأيه ، وإخلاصه للعلم ، ووضع الضمير
العلمي والديني فوق كل اعتبار ، دون تلطف أو ترفق أو رعاية لشأن من
شؤون الحياة الدنيا .

وليس من غرضنا هنا أن نتبع أساتذته واحداً واحداً ، ولكننا
لأنستطيع أن نعقل أستاذاً من أول من اتصل بهم من شيوخه ، وهو رجل
مصرى ، قدم الأندلس في أواخر القرن الرابع ، سنة ٣٩٤ ، وكان إذ ذاك
شيخاً جاوز الستين ، وهو أبو القاسم ، عبد الرحمن بن محمد بن أبي يزيد
الأزدي المصري

وقد وصفه أحد تلاميذه ، أبو عمر بن الحذاء ، بأنه كان رجلاً أديباً ،
حلواً ، حافظاً للحديث وأسماء الرجال والأخبار ، وله أشعار حسان في كل
فن ، وكان معاشه من التجارة . كما وصفه تلميذه الآخر الخولاني ، بأنه
« كان أديباً نبيلاً ذكياً شاعراً مطبوعاً »^(٢)

وهذه الصفات النفسية والعلمية أقيمت بكثير من الطلاب عليه ، ينهلون

(١) الصلة ، ص ٢٦٥

(٢) الصلة ، ص ٣٤٧ — ٣٤٨ .

من علمه ، ويستمتعون بأدبه ، إلى جانب مصريته . وكان أهل الأندلس مفتونين بأهل المشرق عامة ، وأهل مصر خاصة ، يكبرونهم ويرونهم مثلاً عالياً في العلم والأدب ، وكذلك كان مجلس أبي القاسم المصري الذي كان ينعقد بالرصافة ، من شمالي قرطبة — كما ينص على ذلك ابن حزم^(١) —

من أحفل مجالس العلم والأدب في ذلك الوقت . ولم يكن العلم في هذا المجلس هو علم الحديث فحسب ، وإنما كان يعنى فيه إلى جانب ذلك بالكلام والجدل ، كما يشير إلى ذلك أيضاً ابن حزم ، في بعض ما يتحدث به عن نفسه ، مع النص على أنه أستاذه في هذا الشأن^(٢) . وبذلك نستطيع أن نرى في هذا المجلس بداية ذلك المتكلم الجدل العنيف الخصومة القوي الحجة ، على النحو الذي نراه في مثل كتاب الفصل وكتاب الحلى

على أن مجلس أبي القاسم الأزدي المصري أثراً آخر ، لعله لا يقل عن هذا خطراً ، في حياة ابن حزم وتكوينه النفسي ، ذلك الشاب الذي عاش ما عاش حتى ذلك الوقت مقصوراً ، لا يكاد يعرف من الصداقة إلا ما عرف منها عند صواحيبه أولئك من الإمام والقيان ؛ فقد أتاح له هذا المجلس الحافل أن يعرف طعم الصداقة في إخوانه وزملائه ، من تلاميذ شيخه أبي القاسم ، وإنه ليدكر بعضهم في تلك الأحاديث الطليقة التي يستروح بها في كتابه الطوق . ومنهم من يعزو إليه أكبر الأثر في سمو مسلكه ، وفي ترفعه عن دنيا الصبا وسفاسف الشباب ، ولا سيما بعد أن خرج من نطاق

(١) طوق الحمامة ، ص ٦٨ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١١٧ .

تلك الرقابة التي كانت مضروبة قبل عليه ؛ وذلك هو أبو علي الحسين
ابن علي الفاسي ، وذلك إذ يقول ، بعد أن يذكر ما من الله به عليه من العفة
وبراءة الذيل :

« وكان السبب فيما ذكرته أني كنت وقت تأجج نار الصبا ، وشر
الحداثة ، وتمكن غرارة الفتوة ، مقصوراً محظوراً على ، بين رقباء ورقائب .
فلما ملكت نفسي وعقلت ، صحبت أبا علي الحسين بن علي الفاسي ، في
مجلس أبي القاسم عبد الرحمن بن أبي يزيد الأزدي ، شيخنا وأستاذي رضي
الله عنه . وكان أبو علي المذكور عاقلاً عاملاً عالماً ، ممن تقدم في الصلاح
والنسك الصحيح ، في الزهد في الدنيا والاجتهاد للآخرة ، وأحسبه كان
حصوراً ، لأنه لم تكن له امرأة قط . وما رأيت مثله جملة : علماً وعملاً
وديناً وورعاً ، فنفعني الله به كثيراً ، وعلمت به موقع الإساءة وقبح المعاصي » (١)
فقد كان أبو علي الفاسي هذا مثلاً لأئمة أمم ابن حزم في طهارة النفس
وبراءة الخلق ، ولكنه كان كذلك مثلاً عالياً لديه في الإخلاص للعلم ،
والاستغراق فيه ، إذ كان — كما يقول الحميدي عنه — « لم يزل يطلب
ويختلف إلى العلماء محتسباً حتى مات » . ومما يصور هذا ما حكاه ابن
بشكوال عن ابن حزم من قوله : « قلت له (أي لأبي علي هذا) يوماً ،
يا أبا علي ! متى تنقضي قراءتك على الشيخ ؟ — وأنا حينئذ أريد سماع
كتاب آخر — فقال لي : إذا انقضى أجلى . فاستحسنتها منه » (٢) .
وهكذا نرى أي صداقة أتاحها مجلس الشيخ أبي القاسم لابن حزم وهو

(١) طوق الحمامة ، ص ١٢٥ .

(٢) الصلة ، ص ١٤١ .

في مطالع شبابه ، في شخص هذا الرجل ، وأي مثل رفيع أتيح له منه :
طهارة خلق واستغراقا في العلم .

ومن هؤلاء الذين أتيحت لابن حزم صداقتهم في مجلس أبي القاسم
المصرى ، صداقة جميلة وطيدة ، ظل ينعم بها أمدا طويلا ، أبو عبد الله ،
محمد بن يحيى التميمي ، المعروف بابن الطيني . وإنه ليذكره بهذه العبارات
التي تفيض رقة ، وتنم عن أشد معاني التقدير له ، والإعجاب به ، والحب
المتبادل بين الرجلين ، إذ يقول : « كان رحمه الله كأنه قد خلق الحسن
على مثاله ، أو خلق من نفس كل من رآه . لم أشاهد له مثلا : حسنا ، وجمالا
وخلقا ، وعفة ، وتصاونا ، وأدبا ، وفهما ، وحلما ، ووفاء ، وسؤددا ، وطهارة
وكرما ، ودمائة ، وحلاوة ، ولباقة ، وإغضاء ، وعقلا ، ومروءة ، ودينا ،
ودراية ، وحفظا للقرآن والحديث والنحو واللغة ، وشاعرا مقلعا ، وحسن الخط
وبليغا مفتنا ، مع حظ صالح من الكلام والجدل . وكان من غلمان أبي القاسم
عبد الرحمن بن أبي يزيد الأزدي ، أستاذي في هذا الشأن وكنت أنا
وهو متقاربين في الأسنان ، وكنا أليفين لانفترق ، وخذنين لا يجري الماء
بيننا صفاء ، إلى أن ألفت الفتنة جرائها ... الخ »^(١)

فهذا نوع آخر من الصداقة التي تمتزج فيها الروح بالروح ، ويتجاوب
فيها العقل والعقل ، ما كان أشد حاجة ابن حزم إليه .

وصديق ثالث من هؤلاء الأصدقاء الذين هيأتهم لابن حزم حلقة
أبي القاسم المصرى بالرصافة ، وهو يمثل نوعا ثالثا من الصداقة ، إذ هو

(١) طوق الحمامة ، ص ١١٧ .

صديق يسد حاجته الأدبية ، ويتجاوب وإياه في قول الشعر وتذوقه ؛ وابن
حزم — كما عرفنا — شاعر منذ عهد الصبا الأول ، فلا جرم كان للشعر
مكان ظاهر في نفسه . وقد كان من حظّه أن كان كثير من شيوخه شعراء
أو على الأقل لا يتخرجون من قول الشعر ، وكذلك كان كثير من أصدقائه ،
ومنهم هذا الصديق ، أبو بكر عبد الرحمن بن سليمان البلوي ؛ ويذكره في
سياق صورة من حياته في هذه المرحلة يعرضها . قال :

« وأذكر في مثل هذا أني كنت مجتازاً في بعض الأيام بقرطبة ، في
مقبرة باب عامر ، في لمة من الطلاب وأصحاب الحديث ، ونحن نريد مجلس
الشيخ أبي القاسم ، عبد الرحمن بن أبي يزيد المصري ، بالرصافة ، أستاذي
رضي الله عنه ، ومعنا أبو بكر ، عبد الرحمن بن سليمان البلوي ، من أهل
سبتة ، وكان شاعراً مفلحاً ، وهو ينشد لنفسه في صفة متجنّ معهود أبياتاً
له ، منها :

سريع إلى ظهر الطريق ، وإنه إلى نقض أسباب المودة يسرع
يطول علينا أن نرقع ودّه إذا كان في ترقيعه يتقطع

فوافق إنشاد البيت الأول من هذين البيتين خطور أبي علي ، الحسين
ابن علي الفاسي ، رحمه الله ، وهو يؤم أيضاً مجلس ابن أبي يزيد ، فمعه
فتبسم رحمه الله نحونا ، وطوانا ماشياً ، وهو يقول : بل إلى عقد المودة
إن شاء الله ، فهو أولى . هذا على جد أبي الحسين ، رحمه الله ، وفضله
وتقربه وبراءته ونسكه وزهده وعلمه ، فقلت في ذلك :

دع عنك نقض مودتي متعمداً واعقد حبال وصالنا يا ظالم

ولترجعن ، أردته أم لم ترد كرها ، لما قال الفقيه العالم ^(١) «

وأبو بكر عبد الرحمن بن سليمان البلوي هذا من رجال الضبي ، ذكره في كتابه ، وإن لم يزد في صفته على قوله إنه « من أهل العلم ، أديب شاعر ، في حدود الأربعمائة . رأيت له أبياتاً كتب بها إلى صديق له من أهل الكلام يمازحه ويستهديه كسوة » ، ثم أورد قطعة من هذه الأبيات ^(٢)

فهذه صورة مما أتاحه مجلس أبي القاسم بن أبي يزيد المصري لصاحبنا ابن حزم من أسباب الصداقة والمودة ، وأمد روحه بطائفة من ألوانها ، ما كان أمس حاجته إليها ، فوق ما ذكرنا من تلقى الحديث ، ورياضة العقل بالكلام والجدل ، إلى غير ذلك مما كان يمهده السبيل إلى معرفة الحياة ومخالطة النفوس ، ومما كان يعتبر نوعاً من المقاومة الطبيعية لمشاعر الخوف والقلق التي كانت تبشها تلك الكوارث والخطوب التي حاولنا تصويرها

ومهما حبسنا النفس عن استقصاء شيوخ ابن حزم في هذه الفترة ، فلن نستطيع إغفال أبي الوليد بن الفرضي وقد ذكره في رسالته التي كتبها في فضائل علماء الأندلس ، في سياق كلامه عن كتب الحديث ، فقال : « ومنها كتاب القاضي أبي الوليد ، عبد الله بن محمد بن يوسف بن الفرضي في المختلف والمؤتلف في أسماء الرجال ، ولم يبلغ عبد الغني الحافظ البصري

(١) طوق الحمامة ، ص ٦٨ .

(٢) بنية المائمس ، ص ٣٥١ .

في ذلك إلا كتابين ، وبلغ أبو الوليد رحمه الله تعالى نحو الثلاثين ، لا أعلم مثله في فنه البتة »^(١)

وشخصية أبي الوليد الفرضي من الشخصيات القوية ، كونها درس طويل ، ورحلة إلى المشرق ، وعناية بالكتب والقراءة ، وممارسة للحياة ، « لم ير مثله بقرطبة في سعة الرواية ، وحفظ الحديث ، ومعرفة الرجال ، والافتنان في العلوم ، إلى الأدب البارع ، والفصاحة المطبوعة ، قل ما كان يلحن في جميع كلامه ، من غير حوشية ؛ مع حضور الشاهد والمثل » ، فيما يقول ابن حيان عنه^(٢)

وقد كان هو أيضاً من أصحاب النزعة الأدبية ؛ وإن وصفه ابن بسام بأنه شاعر مقل ، وأنه في العلماء أدخل منه في الشعراء^(٣) . ولدينا بقية من شعره تدل على هذه النزعة ، في الذخيرة والصلة وبغية الملتمس

فإذا تركنا شيوخه في الحديث إلى شيوخه في الأدب ، استطعنا أن نعرف منهم أبا سعيد الفتي الجعفرى ، وقد ذكر أنه قرأ عليه معلقة طرفة ابن العبد مشروحة^(٤) ، وأبا الخيار اللغوى^(٥) . على أن ابن حزم لم

(١) نفح الطيب ٢ : ٧٧٢ .

(٢) الصلة ، ص ٢٥٠ .

(٣) الذخيرة . القسم الأول . المجلد الثاني . ص ١٣٠ .

(٤) طوق الحمامة ، ص ٦٦ . ولا نعرف شيئاً عن هذه الشخصية . إلا أن تكون هي شخصية أبي سعيد خلف مولى جعفر الفتي المعروف بابن الجعفرى ، وهو عالم نبيل مائل إلى الزهد من أهل قرطبة ، تركها في الفتنة إلى طرطوشة ، وليس يبعد أن يكون هو ، مع فرض وقوع تحريف في الاسم .

(٥) طوق الحمامة ، ص ١٠٣ ، وانظر الصلة ص ٥٥٨ .

يكن في حاجة ماسة إلى حلقات الأدب واللغة ، فقد نال من ذلك حظاً غير قليل فيما كان يؤخذ به في المرحلة الأولى من حياته ، كما كان يجد في حلقات الحديث ، وشيوخه كما رأينا من أهل الأدب أيضاً ، ما يكفي تطلعه ويرضى نزوعه في هذه الجهة

على أن ابن حزم لم يكتف من الدراسة المنظمة في هذه الفترة بالتردد على حلقات الحديث والأدب ، فقد كانت نزعته المتطلعة ، ونزوعه الطبيعي إلى مقاومة مشاعر الخوف والقلق ، يدفعانه إلى التماس أبواب المعرفة المختلفة . ولا ريب أن الفلسفة وعلومها كانت تتبرج له وتشير رغباته ، وكانت قرطبة تزخر من علماء الفلسفة بطائفة غير قليلة ، وهم جماعة الأطباء الذين كان الطب يعتبر إذ ذاك شعبة من شعب ثقافتهم

وقد أتى ابن حزم أن يعقد في هذه المرحلة صلته بكبير من كبارهم ، هو أبو عبد الله ، محمد بن الحسين المذحجي ، المعروف بابن الكتاني ، وهو يدعوه بأستاذه حين يعرض ، في رسالته في فضل علماء الأندلس ، لذكر كتبه في الطب ، ويصفها بأنها « كتب رفيعة حسان » ، أو رسائله الفلسفية ويصفها بأنها « مشهورة متداولة ، وتامة الحسن ، فائقة الجودة ، عظيمة المنفعة » ^(١) . وأكبر الظن أن اتصال ابن حزم بابن الكتاني إنما كان عن طريق اتصال هذا بأسرة العامريين — ونحن نعرف الصلة بين العامريين وآل حزم — فقد كان طبيب المنصور بن أبي عامر وابنه المظفر . كما أن نزعته الأدبية الظاهرة مما من شأنه أن يقوى صلة ابن حزم به ، ويقوى من رغبته

(١) فتح الطيب ٢ : ٧٧

فيه ، فقد كان — كما يقول الضبي — « له مشاركة قوية في علم الأدب والشعر ، وله تقدم في علوم الطب والمنطق ، وكلام في الحكم ، ورسائل في كل ذلك ، وكتب معروفة ، وكتاب سماه كتاب محمد وسعدى ، مليح في معناه » ^(١) . وقد أورد بعد ذلك شيئا من شعره ، يدل على هذه النزعة الأدبية ، وهذه المشاركة القوية .

وأحسب أن صلة ابن حزم بابن الكتانى وتلقيه عنه لم يطل ، ذلك أن ابن الكتانى لم يلبث أن هجر قرطبة فيمن هجرها ، حين نشبت الفتنة ومضى عنها إلى سرقسطة (Saragasse) في شرق الأندلس ^(٢) ؛ ولكنه على كل حال قد نبه فيه الرغبة إلى تحصيل ذلك اللون من المعرفة ، وأثار في نفسه الشوق إلى التماسه ، فمضى يأخذه عن العلماء الآخرين ممن لم تقف على أسمائهم ، كما مضى يتلقاه عن الكتب ، وقد كانت قرطبة — كما رأينا من قبل — تعتبر من أمهات المدن التى تعنى بمخزائن الكتب عناية خاصة .

وبعد ، فهذه طائفة من وجوه النشاط العقلى التى أتت لنا أن نعرفها عن صاحبنا ابن حزم في هذه المرحلة ، ومنها نرى في وضوح وجللاء أنه لم يأل فيها جهدا في تحصيل المعرفة في شتى صورها ، ومن مختلف وجوهها ومصادرها ، وأنه أقبل على هذه الحياة الفعلية مشوقا إليها ، شغوقا بها ، نهما إلى استيعاب ما تموج به . وأكبر الظن أنه قد بدأ في هذا الوقت يعرف نفسه ، ويتبين نوازعه ، ويستكشف السبيل الذى ينبغى أن يسير فيه ، إنه سبيل العلم ،

(١) بغية الملمس ، ص ٥٧ .

(٢) عيون الأنباء ٢ : ٤٥ .

أما السياسة ، فلا ندرى ماذا كان موقفه إذ ذاك منها ، على أنها إذا كانت أخذت تراوده ، فما كان ملائسات الحياة تأذن له أن يستجيب لها ، أو يشارك مشاركة يئنة فيها .

وقد انتهت هذه المرحلة باضطرار ابن حزم إلى الخروج عن قرطبة ، كما رأينا من قبل . وقد عرفنا الضرورات التي ألزمت هذه الهجرة ، وأنها ضرورات مادية لم يكن من الخضوع لها بد . ولكن هذه الهجرة لم يكن منها بدا أيضا لاستكمال شخصيته العلمية ، إذ لم تعد قرطبة بعد هذه الفن الطامة المعتلجة التي أطبقت عليها وفتكت بها ، كافية لإرضاء حاجاته العقلية ومطامحه الأدبية بعد أن هجرها أكثر علمائها ورجال الأدب فيها ، وأخذ من بقي منهم يتحين الفرصة للنجاة بنفسه من هذا البلاء الماحق والفن المردية ، فقد كانت هذه الأيام — كما يجمل صفتها ابن حيان — « شدادا نسكدات ، صعابا مشؤومات ، كريهات المبدأ والفاثمة ، قبيحات المنتهى والختامة » ، لم يعدم فيها حيف ، ولا فورق فيها خوف ، ولا تم سرور ، ولا فقد محذور ، مع تغير السيرة ، وخرق الهيبة ، واشتعال الفتنة ، واعتلاء المعصية ، وظعن الأمن وحلول المخافة » ^(١) .

(١) الذخيرة . القسم الأول ، المجلد الأول ، ص ٢٥ .

كان مهاجر ابن حزم من قرطبة إلى مدينة المرية ، وقد أمضى فيها
ثلاث سنوات ، ما بين سنة ٤٠٤ و سنة ٤٠٧ .

والمرية (Almeria) مدينة كبيرة تقع على البحر المتوسط ، في الركن
الجنوبي الشرقى من الأندلس ، في مقابل مدينة وهران على العدو الأخرى
« إليها تقصد مراكب البحر من الإسكندرية والشام كله » ، كما يقول
الإدريسي ، ومن ذلك « لم يكن بالأندلس كلها أيسر من أهلها مالا ،
ولا أتعجز منهم في الصناعات وأصناف التجارات ، تصريفها وادخارها » ، كما
« لم يكن في بلاد الأندلس أحضر من أهلها نقدا ، ولا أوسع منهم
أحوالا » (١) .

هذه هي المرية التي هاجر ابن حزم إليها ، بعد تلك الحنة العنيفة التي
كابدها . ولست أدرى على سبيل التحقيق الملابس التي جعلت ابن
حزم يختارها ، وإن كنا نلاحظ أن هذه المدينة وما إليها من شرق الأندلس
كانت في حكم العامريين في خلال تلك الفتنة ، فقد كان من الطبيعي إذن
أن يلجأ إلى ذلك الجانب من البلاد من ضاقت بهم قرطبة من العامريين
ومن ينتمون إليهم ، وأن يلتمسوا في كنف سادته المطمان الذي يجدون فيه

(١) صفة المغرب ... الخ ، ١٩٧ — ١٩٨ .

الأمن والسلام ، حين يتعرضون في دورهم لصنوف الحن والهوان . فهذا الجانب الشرقى كان إذن الملجأ الطبيعي للمهاجرين من قرطبة ، حتى لقد كان مما أذيع عن هشام المؤيد ، بعد دخول المستعين قرطبة أنه ترك يهرب منها وأن مهر به كان إلى المرية ، وإن ذهبت الإشاعة إلى أنه كان يعيش فيها عيشة نكد (١) .

وإلى شرق الأندلس ذهب عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبي عامر ، وجعل مقامه في سرقطسة ، في جوار صاحبها منذر بن يحيى ، وكان يدين بمكانه للعامريين ، ثم لهذه الفتنة التي جعلته يستقل بهذه المدينة ، وجعلت عبد العزيز ياجأ إلى جواره لسابق الصلة وقديم العهد .

وكانت الجزائر الشرقية في حكم مجاهد العامرى ، ثم دخلت دانية بعد الفتنة في سلطانه ، وكانت بلنسية في حكم مبارك ومظفر العامريين ، وكذلك كانت المرية تخضع إذ ذاك لسلطان الموالى العامريين ، إذ كان يحكمها خيران العامرى الصقلبي ، وهو قديم العهد بها ولاه المنصور بن أبي عامر الكبير قلعتها ، وهى القلعة التي كان الخليفة عبد الرحمن الناصر بناها هنالك ليرد بها غارات النور منديين والقرنجة ، وليحتمى بها أسطول المسلمين . وقد ظل خيران هنالك قائما على هذه القلعة ، حتى نسبت إليه ، فقل : قلعة خيران . فإذا كانت الفتنة ، وأخذ البربر يطردون العامريين من قرطبة ، كانت المرية التي تسيطر بموقعها الممتاز على ذلك الركن الجنوبي الشرقى من بلاد الأندلس ، أحد المعاقل والملاجئ التي تتجه إليها أنظارهم .

(١) أنظر أعمال الأعلام لسان الدين بن الخطيب ، ص ١٤٠ — ١٤١ .

كذلك كان الأمر في التجاء ابن حزم إلى المرية ، أوائل الحرم ،

سنة ٤٠٤ .

وهكذا بدأ صاحبنا رحلاته التي قسمت حياته ، منذ هذا الوقت ، بين بلاد الأندلس المختلفة ، شرقية وغربية ، برية وبحرية ، وبذلك بدأ حياة جديدة هي أشبه شيء بحياة التشرد ، على النحو الذي سنراه في هذه السيرة . وقد ترك ابن حزم موطنه وملاعب صباه ومسارح شبابه في قرطبة ، وهجر كثيرا من إخوانه وزملائه الذين استشعر بهم معنى الصداقة ، وأحس لديهم روح الود الخالص ، كصاحبه وصديقه أبي عبد الله بن الطنبلي ، وقد عرفنا مبلغ ما كان يربط قلبيهما من ود ، فقد خلفه في قرطبة ، ولكنه ظل وإياه يتهاديان الرسائل التي تعبر عن مكنون القلوب ، وتحمل الطابع الفتي الرائع ، وقد أورد ابن حزم قطعة تمثل لنا هذا النوع من الرسائل ، هي أبيات من الشعر ، قال إنها جاءت في درج رسالة ، كانت آخر ما خاطبه صديقه ابن الطنبلي به ، وهي هذه :

ت شعري عن حبل ودك هل يـ	سى جديداً لدى غير رثيث
وأراني أرى محيـاك يوماً	وأناجيك من بلاط مغيث
فلو ان الديار ينهضها الشو	ق أذاك البلاط كالمستغيث
ولو ان القلوب تستطيع سيرا	سار قلبي إليك سير الخثيث
كن كما شئت لي ، فإني محب	ليس لي غير ذكر كم من حديث
لك عندي ، وإن تناسيت ، عهد ^(١)	في صميم الفؤاد غير نكيث ^(١)

(١) طوق الحمامة ، ص ١١٧ . وانظر : بغية الملتبس ، ص ١٣٥ .

و بمثل هذه الرسائل المعبرة ظل ابن حزم مرتبطاً بقرطبة ، متعزياً عن تركها ، مدى هذه السنوات الثلاثة التي أقامها في المدينة . ولا ريب أن مثل هذه القطعة كانت تهيج من حنينه ، ولكنه كان يربط على قلبه .

و كانت سن ابن حزم حين هجر موطنه في قرطبة عشرين عاماً ، فقد كان إذن شاباً في دور الأكمال والنضوج ، وإنما الذي أنضجه هو هذه السنوات الأخيرة التي تعرض فيها لصنوف الحزن والأرزاء ، وشهد فيها كيف تتقلب الأمور وتتصرف الأحداث ، بل كيف تتقلب القلوب وتتغير المودات ، وينكر المرء أخاه ، والصديق صديقه . ولكنه كان إذ ذاك في فورة الشباب المحتدم ، وفي عنفوان الرغبة في الاستمتاع بالحياة ، فهو ما يكاد يعبأ بشيء من ذلك كله . وما كان ليترك قرطبة إلا مكرها حين أجلى أهله عن دورهم ، فهو يغادرها ممتلئ القلب أسى وحسرة ، ماتفتاً تلك الصور الحبيبة إليه ، العزيزة لديه ، تراود خياله ، وما يزال الحنين يغالبه عن نفسه ، وقد أخذها بالتصبر والتسلي .

ولكن هذا الشعور كان يعادله في نفسه شعور آخر ، هو شعوره بنفسه مستقلة منفردة ، وإحساسه بذاته قائمة في الحياة وحدها ، فمن نفسه يجب أن يستمد القوة وعناصر الكفاح وروح البقاء .

وربما كانت بداية هذا الشعور حين أخذ يجد نفسه يواجه الحياة ، وقد جعلت أسبابه تتقطع واحدة بعد الأخرى ، إذ يباغت بموت أخيه الأكبر ، ثم بموت أبيه بعد ذلك ، ثم بموت حبيبته « نعم » ، ثم بهذه الأحداث التي تحيق بأسرته ، ولكنه كان على كل حال في موطنه وبين عشيرته ؛ أما

الآن فقد قذفت به الأحداث بعيداً عن الوطن ، وتركته في هذا المغرب ، وجعلت تشعره أنه يواجه الحياة وحيداً ، وأنه يجب أن يعدّ نفسه لمواجهةها والملاءمة بينه وبينها ، إعداداً ذاتياً قوياً لاونية فيه ولا فتور . وفي هذا ما فيه من تكوين الشخصية وتربية الخلق ، فوق ما أتيح له من ذلك قبل .

وقد لا يكون من اليسير أن تتبين على وجه اليقين أو ما يقرب من اليقين الوجهة التي كان يتجه إليها بأماله ، والهدف الذي كان يهدف إليه بنشاطه وأعماله ، ولكننا نتبين أن السياسة كانت إذ ذاك مما يراود نفسه ويخالط تفكيره ، وأن المشاركة في تحقيق بعض الغايات القريبة أو البعيدة التي تعمل لها في هذه الفترة بعض الأحزاب الأموية ، كان مما يشغل باله ، ويستغرق جزءاً غير قليل من همه ، فما يزال قريب عهد بالبيئة السياسية التي نشأ فيها وخرج منها ، وقد كانت السياسة مصدر سعادته ، كما كانت مصدر شقائه .

وليس التهمة التي وجهها إليه خيران ، صاحب المربة ، وسنعرض لها بعد ، إلا دليلاً على هذا الاتجاه . مهما يكن أمره هذه التهمة ، وكذلك ما نراه بعد من انحيازه إلى المرتضى أو وزارته للمستنصر ، فزعته السياسية لا ريب فيها . فليس عجيباً أن تتمثل هذه النزعة في صورة نشاط معين في هذا الوقت ، وذلك على كل حال أمر طبيعي بالنسبة لشاب مثله ، متقدحاسة وحية ، اعتدى عليه أو على أسرته ، وسلبت ما كان لها من حقوق سياسية وغير سياسية ، وقد شرد بهم ، وتركوا يشعرون بالظلم والطغيان

وعذاب الهون . فإنه لجذ طبيعي في مثل هذه الحال أن تتجه مشاعر هذا الشاب إلى دفع ذلك الظلم ، ورد ذلك العدوان ومحاولة استرداد تلك المكانة المسلوبة ، والمشاركة في كل عمل أو تدبير يدبر لغسل ذلك الجرح الذي ما يزال يدمى وينغر .

هذا هو منطق الأمور بالنسبة لمثل ذلك الشاب أبي محمد ابن حزم ، في مثل تلك الظروف ، وإن كنا لانستطيع القطع ، إذ لا نملك من ذلك شيئاً معيناً نستطيع أن نتحققه ونضع أيدينا عليه ، ولكنه فرض على كل حال ، يحملنا على افتراضه ، ويقويه لدينا كل تلك الأسباب والملايسات التي أوردنا .

وإنما الشيء الذي نستطيع أن نستيقنه ونطمئن إلى تقريره ، فهو أنه تابع في المرية ما بدأه في قرطبة ، من تحصيل العلم الذي فاته أن يحصله في حياته المقصورة الأولى ، حيث كان الجانب الفني هو أغلب الجوانب عليها وآثر فيها ، واستمر في تلك السبيل التي اختطها لنفسه ، ورأى فيها نوازعه ، واطمأن فيها إلى كفايته ، وإن كنا لانستطيع أن نتبين على وجه الدقة والإحاطة وجوه نشاطه العلمي في المرية ، إذ كانت النصوص التي يمكن أن تهدينا في هذا قليلة نزرمة مبهمة ، فإننا لنتلمس معالم حياته في هذه المدينة تلمساً ، ونتحسس فيها سبيلنا إلى تصوير حياته فيها تحسّساً ، وسط ظلمات كثيفة ، لاتكاد تتبين فيها العين معلماً واضحاً .

على أنه مهما يكن من شيء ، فإن الهدوء الذي أصابه في المرية ، بعد تلك الفترة المضطربة ، كان مما هو جدير أن يمكن له من تحقيق مطامحه

العالمية ، والمضى فى تلك السبيل التى انتهجها ، وإرواء ظمئه إلى المعرفة على نطاق واسع ، فيتصل فى ظل هذا الاستقرار والهدوء بعلماء هذه المدينة من رجال الحديث وغيرهم ، ممن هو من أهلها أو ممن وفد عليها .

ويحدثنا هو أنه كان متصلاً فى المرية بطبيب إسرائيلى ، بصير بالقراسة محسن لها ، اسمه إسماعيل بن يونس ، وأنه كان يجلس فى دكانه فى لمسة من الأصحاب ^(١) ، والأطباء كانوا فى تلك القرون الوسطى هم رجال الفلسفة ، على النحو الذى رأيناه عند أستاذه « ابن الكتانى » فى قرطبة . وبذلك نستطيع القول إن إسماعيل بن يونس هذا كان من ذلك الطراز ، كما يمكن القول بأن ابن حزم وجد فيه مسدداً له فى سبيل النظر الفلسفى ، ومتابعة تلك الدراسة التى بدأها فى قرطبة ، تلميذاً لابن الكتانى .

ويبدو من ذلك الخبر الذى حكاه ابن حزم أن صلته بهذا الطبيب الإسرائيلى ، إسماعيل بن يونس ، كانت صلة صداقة ومعاشرة ، وأن مجلسه كان مجلس حديث ومناقشة ، فلعل ذلك كان من العوامل التى لفتته إلى تعرف أصول الدين اليهودى ، ومراجعة المعارف الإسرائيلىة ، حتى أصبح فيها حجة ومرجعاً ، مما مكن له من هذه المناظرات التى كان يتولاها مع رجال الدين اليهودى ، حاضر الشواهد والأدلة ، وهذه الفصول المطولة المفتنة التى جعلها فى تفنيد دعاوى الإسرائيلىة ، تفنيداً يلاحظ فيه أول شىء المعرفة الواسعة ، والإحاطة الدقيقة بتفاصيل الثقافة اليهودية ، فلعل الأصل فى هذا يرجع إلى مجلسه فى دكان إسماعيل بن يونس هذا ؛ وكان ما تزال

(١) طوق الحمامة ، ص ١٧

تعرض فيه هذه المسألة أو تلك من مسائل الدين اليهودي ، فتشور حولها المناقشة ، ويحتمد الجدل ، فيدعوه ذلك إلى البحث ، وإدمان المراجعة والدرس ، حتى أصبحت هذه الناحية من نواحي علمه من أشد ما يلفت النظر ويدعو إلى التعجب ، وحتى أصبحت مجالسه مع اليهود موضع تنويه العلماء . وإن إتقانه لهذه الناحية ظاهر في هذه العبارات الساخرة التي كتب بها إليه ابن عمه أبو المغيرة حين نشبت الخصومة بينهما : « ونسيت أبا محمد حاشيتك وشيعتك ، التي صرت رئيس مدراسهم ، وكبير أحراسهم ، تحدثهم عما كان فيهم من العبر ، وتخبهم بما تعاقب عليهم من الصفا والكدر ، فتارة عن السامري والعجل ، وتارة عن القمل والنمل ، وطورا تبكيهم بحديث التيه ، وطورا تضحكهم بقوم جالوت وذويه ، حتى كأن التوراة مصحفك ، وبيت الحزان معتكفك » (١).

وليس إسماعيل بن يونس هذا هو كل من أتيح لنا معرفته ممن اتصل بهم ابن حزم من اليهود في المرية ، وهو يذكر في موضع آخر أنه ناظر في مسألة من المسائل التي يدين بها اليهود « أعلمهم وأجدلهم ، وهو اشموال ابن يوسف اللاوي الكاتب المعروف بابن النغري ، في سنة أربع وأربعائة » (٢) وبتعيينه هذه السنة تبين لنا أن هذه المناظرة كانت في المرية .

وإشموال بن يوسف هذا هو إسماعيل ، ابن النغري أو ابن النغريلى ،

(١) الذخيرة ، القسم الأول — المجلد الأول ، ص ١٣٧

(٢) الفصل ١ : ١٥٢ ، وانظر أيضا ما عرض له من مناظرة ابن النغري في موضوع

آخر ١ : ١٣٥ .

أحد الشخصيات اليهودية الكبيرة في الأندلس بعد ذلك الوقت الذي تؤرخ ابن حزم فيه ، فقد أتيح له بعد أن يكون صاحب السلطان المطلق في غرناطة بغلبته على أميرها باديس بن حبوس . وكان صاحب مطامح سياسية كبيرة حتى « طلب أن يقيم لليهود دولة » كما يقول ابن عذارى ، مما انتهى بقتله سنة تسع وخمسين وأربعمائة ^(١) . ومما ذكره عنه ابن بسام أنه « ألف كتابا في الرد على الفقيه أبي محمد ابن حزم ، وجاهر بالكلام في الطعن على ملة الإسلام » ^(٢) . ومن ذلك تبين أي رجل كان ابن النفرالى هذا في الاعتداد بدينه ، والمجاهرة برأيه ، مع علم واسع وقوة في الجدل ، كما يصفه ابن حزم بأنه أعلمهم وأجدلهم . ولعل صلاته به ، سنة ٤٠٤ ، كانت وهو شاب في نحو سن صاحبنا ابن حزم إذ ذاك ، ولكنه كان شابا نشأ على الثقافة اليهودية وعلى التعصب لها ، وكانت منزلة أبيه يوسف عند حبوس صاحب غرناطة وما أتيح له بهذه المنزلة من أن يعلى من شأن اليهود ، حتى يستطيعوا على المسلمين ، مما جعله حريصا على إبراز مقومات هذه اليهودية ، وتحصيل التراث الإسرائيلي ، والمباهاة به ، والمناظرة فيه .

فلا ريب أن صلاته بابن حزم في ذلك الوقت ، واجتماعه به في مجالس المناظرة ، كان من الحوافز القوية التي حفزت صاحبنا على تحصيل تلك

(١) البيان المغرب ٣ : ٢٦٦ ، وقد ورد الاسم هنا بهذه الصورة « ابن نقرالة » كما أنه عنده يوسف بن إسماعيل لا إسماعيل بن يوسف ، كما جاء في الفصل في الموضعين ، وكما في بعض شعر المنفلت فيه (الذخيرة ١ : ٢ ص ٢٦٦)

(٢) الذخيرة ، القسم الأول ، المجلد الأول ، ص ٢٦٩

الألوان المختلفة من المعارف اليهودية ، مع مقارنتها وتعمقها ، حتى بلغ منها ذلك المبلغ .

فهذه ناحية من النواحي التي أتيحت لابن حزم في المرية ، وبدأ بها يمارس الجدل والمناظرة ممارسة جدية .

وناحية أخرى أتيح لابن حزم أن يلابسها في المرية في ذلك الوقت ، ويجد فيها مثيراً جديداً لنشاطه العقلي ، هي هذه الحركة الكلامية التي كانت ثائرة إذ ذاك في هذه المدينة حول بعض المسائل الدينية التي كان لمذهب ابن مسرة رأى خاص فيها ؛ وكان على رأس هذا المذهب في المرية في ذلك الوقت إسماعيل بن عبد الله الرعيني .

وقد عرض له ابن حزم في غير موضع : فقد ذكره في الباب الذي عقده عن « الكلام في القيامة وتغيير الأجساد » ، كما ذكره في الباب الذي جعله في « ذكر شنع المعتزلة » ، ويصفه بأنه « كان من المجتهدين في العبادة ، المنقطعين في الزهد » ، وأنه « كان عند فرقته إماماً واجبة طاعته ، يؤدون إليه زكاة أموالهم » ، كما ذكر الأقوال التي كان يدين بها ويدعو إليها ، من مذهب إمامه ابن مسرة ^(١) ، ومما أحدثه بعده . وقد كانت الحركة التي

(١) انظر الفصل ٤ : ٨٠ ، ١٩٩ . أما ابن مسرة فمذهبه يحتاج إلى شيء من التحقيق ، فهو فيما يبدو مزاج من النزعة الباطنية والنزعة العقلية . وقد ذكره القفطى في سياق كلامه عن أمينو قليس ، ووصفه بأنه باطنى ، إذ يقول : « ومن المشتهرين في الملة الإسلامية بالانتماء إلى مذهبه محمد بن عبد الله الجبلى الباطنى . . . وهو محمد بن عبد الله ابن مسرة بن نجيح القرطبي » (ص ١٣ ، ط السعادة ، ١٣٢٦ هـ) ، كما نستطيع أن نرى ذلك في قول صاحب المظمح عنه : « وكانت له إشارات غامضة ، وعبارة عن منازل الملحددين غير واضحة ، ووجدت له مقالات رديه ، واستنباطات مردية » =

أحدثها ابن الرعيني هذا في المرية حركة كبيرة الخطر ، فرقت أهلها فرقتين ،
فرقة تتبعه وتبالغ في تقديسه ، حتى ليقول ابن حزم : « ورأيت أنا من أصحاب
إسماعيل الرعيني المذكور من يصفه بفهم منطق الطير ، وبأنه كان ينذر
بأشياء قبل أن تكون فتكون » ، وفرقة تبرأ منه وتجد في محاربتة ، حتى
اضطرته إلى الاختفاء في بجانة ، إحدى القرى القريبة من المرية . وقد بلغ
من شأن هذه الخصومة حوله أن فرقت الأسرة الواحدة ، فتابعه بعضها
وخالفه البعض الآخر ، « وكان أحمد الطيب صهره ممن برى منه ، وثبتت
ابنته على هذه الأقوال ، متبعة لأبيها ، مخالفة لزوجها وابنتها » كما يقول ابن
حزم . وهكذا نرى كيف كانت المرية تموج بهذه الخصومة الدينية والعقلية
حين حل ابن حزم بها ، مما لا نشك في أنه كان كبير الأثر في إلهاب مشاعره
وإثارة تطلعه ، وأنه أتاح له طائفة من مجالس المناظرة ، يستجيب فيها لنشاطه
العقلي المتوثب ، ولتلك الرغبة الكامنة في صدره ، والتي تدفعه إلى التماس
الغلبة وتحقيق السيطرة ، فكان يجد في مجالس المناظرة هذه ما يرضى هذه
الحاجة النفسية الملحة .

== وكذلك يعتبره دوزي في كتابه تاريخ مسلمي أسبانيا (٢ : ١٢٧ ط ١٩٣٢) . أما
اعتزاله ، فتبدو في قوله بالتوحيد فيما يتعلق بصفات الله ، متابعة لأستاذه أمييندوقليس ،
على النحو الذي يشرحه القفطى ، إذ يقول : إنه أول من ذهب إلى الجمع بين معاني
صفات الله تعالى ، وأنها كلها تؤدي إلى شيء واحد .. وإلى هذا المذهب في الصفات
ذهب أبو الهذيل العلاف ، كما يظهر في قوله بالفدر ، كما يقول ابن حزم ، إلى غير
ذلك . ويصف ابن حزم الحكم بن المنذر بن سعيد أنه كان على مذهب ابن مسرة في
الفدر (الفصل ٤ : ٨٠) ، ويصفه في موضع آخر بأنه رأس المعتزلة بالأندلس (طوقه
الحمامه ، ص ٤١) .

وكما كانت المرية مركزاً من مراكز ذلك النشاط الذي يستمد عناصره من مذهب ابن مسرة الأندلسي ومذهب المعتزلة المشرقي ومذهب الباطنية، فقد كانت في حقيقة الأمر مركزاً من المراكز التي تتمثل فيها المذاهب الإسلامية المختلفة، ما هو أجدر بالخاصة وأهل الفكر، وما هو أدنى إلى العامة، بما يصطنع من الأساليب التي تجتذب أهواءهم وتعلق أخیلتهم الساذجة الأولية. وقد أدى إلینا ابن حزم صورة من ذلك في سياق كلامه عن شنع المرجئة قال :

«وقال بعض الكرامية : المنافقون مؤمنون من أهل الجنة ؛ وقد أطلق ذلك بالمرية محمد بن عيسى الصوفي الألبيري . وكانت ألفاظه تدل على أنه يذهب مذهبهم في التجسيم وغيره ، وكان ناسكاً متقلداً من الدنيا ، واعظاً مفوهاً مهذاراً ، قليل الصواب كثير الخطأ . رأيت مرة وسمعتة يقول : إن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يلزمه زكاة مال ، لأنه اختار أن يكون نبياً عبداً ، والعبد لا زكاة عليه ، ولذلك لم يورث ولا ورث ، فأمسكت عن معارضته لأن العامة كانت تحضره ، فخشيت لغطهم وتشنيعهم بالباطل ، ولم يكن معي أحد إلا يحيى بن عبد الكثیر بن وafd ، كنت أتيت أنا وهو معي متنكرين لنسمع كلامه . وبلغتني عنه شنع ، منها القول بحلول الله فيما شاء من خلقه ، أخبرني عنه بهذا أبو أحمد الفقيه المعافري ، عن أبي على المقرئ »^(١) .

وهكذا نرى إلى أي حد كانت المرية بيئة تضطرب بألوان الثقافات

والنزعات والآراء ، كما نرى إلى أى حد كان تطلع ابن حزم إلى الاتصال بكل ما تضطرب به هذه البيئة ، والإحاطة بكل ما يقوله هؤلاء أو أولئك ، يمد به عقله المثوب ، ويعد به نفسه إعدادا دائما لهذه المناظرات التى شغلته وطبعت شخصيته بطابعها ، إذ أصبح منذ ذلك الوقت رجلا جدلا ، يجد فى اصطناع الجدل ، واستشعار الغلبة فيه ، لذة تعوض عليه ما فاتته من صور السلطان .

ولدينا مثل يدل على هذه الروح الجدلية التى غلبت عليه منذ هذه الفترة ، ويصور مبلغ انصرافه إليه ، حتى فيما تعارف الناس أنه ليس موضوعا للجدل ولا محلا للمناظرة ، فهو يجادل فى مسألة من مسائل الحب ، كأنما يجادل فى مسألة من مسائل الدين أو الفلسفة أو السياسة . قال :

« ولقد سألتى يوما أبو عبد الله ، محمد بن كليب ، من أهل القيروان أيام كونى بالمرية — وكان طويل اللسان جدا ، متقنا للسؤال فى كل فن — فقال لى — وقد جرى ذكر الحب ومعانيه — : إذا كره من أحب لقاتى ، وتجنب قربي ، فما أصنع ؟ قلت : أرى أن تسعى إلى إدخال الروح على نفسك بلاقائه ، وإن كره . فقال : لكنى لا أرى ذلك ، بل أوتر هواه على هواى ، ومراده على مرادى ، وأصبر وأصبر ، ولو كان فى ذلك الختف . فقلت له : إني إنما أحببته لنفسى ، ولالتذاذها بصورته ، فأنا أتبع قياسى ، وأقود أصلى ، وأقفو طريقتى ، فى الرغبة فى سرورها . فقال لى : هذا ظلم من القياس أشد من الموت ما تمنى له الموت ، وأعز من النفس ما بذلت له النفس . فقلت له : إن بذل نفسك لم يكن اختيارا ، بل كان اضطرارا

ولو أمكنك ألا تبذلها لما بذلتها ، وتركك لقاء اختياراً منك ، أنت فيه
ملوم ، لإضرارك بنفسك ، وإدخالك الحيف عليها . فقال لى : أنت رجل
جدلى ، ولا جدل فى الحب يلتفت إليه . فقلت له : إذا كان صاحبه مؤوفاً .
فقال : وأى آفة أعظم من الحب « ^(١) .

ولسنا نريد أن نقف عند هذا النص لتعرف دلالاته المختلفة ، فإنما
حسبنا منه هذه الدلالة التى سقناه لها . فهذا هو ابن حزم الجدل المناظر ،
فى مطلع شبابه ، وهو يبدأ العقد الثالث من عمره .

وتلك صورة من حياته العقلية فى المرية ، وهى — كما رأينا — من
الأسس القوية التى بنيت عليها شخصيته العلمية . وفوق ذلك فإننا نحسب
أن هذه الفترة من حياته كانت كبيرة الأثر فى ذلك الطابع النفسى الذى
انطبع به ، إلى جانب تلك العوامل التى أشرنا إليها ، والتى لا بست المرحلة
الأولى والثانية من حياته .

لم يطل بابن حزم الهدوء فى المرية ، إذ ما لبث هذا الركن من الجزيرة
أن دخل فى معمعان الاضطراب الذى تعرضت له قرطبة ، منذ استعانت
الخصومة بين صاحب سبته ، على بن حمود الحسنى ، وبين الخليفة المستعين .
وقد كان ابن حمود أخذ يستشرف لعرش قرطبة ، فهو يدبر أمره ، ويصطنع
الوسائل المختلفة لتحقيق مطمحه هذا ، وتقويض عرش الأمويين ، وكان
من ذلك أن التجأ إلى مخالفة الصقالبة ، ولا سيما كبيرهم خيران العامرى ،

(١) طوق الحمامة ، ص ٤٢ — ٤٣ .

صاحب المرية . ولم يجد خيران حرجا في نفسه أن يسارع إلى مخالفة صديقه
على بن حمود ، وبذل العون له على إزالة المستعين عن مكانه ، ورد الأمر
إلى هشام المؤيد ، وكان الناس ما يزالون يتناقلون أنه على قيد الحياة ،
ومكن لهذه الإشاعة موت هشام الزائف قبل ، واستغل ابن حمود هذه
الشائعات ، فأخرج — كما يقول ابن عذارى — كتابا نسبه إلى هشام بن
الحكم يقول فيه : أنقذني من أسر البرابر والمستعين ، وأنت ولي عهدي^(١)
وتم الأمر لعلى بن حمود بمؤازرة خيران ، فدخل قرطبة ، وقتل المستعين
ووجد هشام دفيناً ، وبذلك ارتقى عرش الأندلس ، وتلقب بالخلافة ،
واسترد بذلك الأدارسة في الأندلس ما فقدوا في المغرب .

وكان من ذلك أن أصبحت المرية التي يقيم فيها ابن حزم مدينة علوية
لا أموية ، بربرية لا صقلبية . ومنذ ذلك الوقت ، بل منذ انعقدت المخالفة
بين خيران وعلى بن حمود ، أصبح مكان ابن حزم في المرية ، يكتنفه الشذوذ
وتحيط به الريب ، ويشير كثيرا من القالات ؛ فهو من أسرة أموية الهوى
والولاء ، معروفة بذلك ، وهو غريم البربر الذين أجلوه هو وأسرته عن
ديارهم ، وشردوا بهم كل مشرد ، وهو حين التجأ إلى خيران فإنما كان
التجأؤه إليه لأنه رجل من موالى العامريين ومن رجال الأمويين . كل
هذه الاعتبارات جعلت مقام ابن حزم في المرية محاطا بالشبه ، ومبعثا
للشائعات ، ومشارا للتهم ، من خيران نفسه الذي كان شديد التحمس لعلى
ابن حمود ، مغالبا في التظاهر بمظاهر الإخلاص له .

(١) البيان المغرب ٣ : ١١٦ .

ولا ريب أن شرق الأندلس لم يكن من الممكن أن يصفو لهذه الدولة الجديدة ، أو يؤمن جانبه إزاءها ، فكان ذلك مما جعل خيران ينصب نفسه في المرية لمناهضة كل حركة أو همسة يشتم منها روح الثورة عليها ، فلم يكن من أجل ذلك يتأخر عن أن يأخذ بالظنة . وقد كانت تلك الاعتبارات الملحوظة في ابن حزم — بصرف النظر عما يمكن أن يكون له من نشاط سياسي — كفيلة بأن تضعه في موضع الاتهام .

وكذلك لم يلبث ، بعد أن استقر الأمر لعلی بن حمود في قرطبة ، أن امتدت إليه تلك اليد التي تتحسس خصومها ، فقبض عليه خيران ، وألقي به في السجن ، وذاق ابن حزم بذلك نوعا جديدا من المحنة . وقد أشار هو نفسه إلى ذلك ، في سياق حديث من تلك الأحاديث الطليقة ، عن بعض علاقات المودة بينه وهو في المرية ، وبين صديق له ظل في قرطبة ، إذ يقول : « فكنا على ذلك إلى أن انقطعت دولة بني مروان ... وظهرت دولة الطالبيين ، وبويع علی بن حمود الحسنی المسمى بالناصر بالخلافة ، وتغلب على قرطبة وتملكها ، واستمر في قتاله إياها بجيوش المتغلبين والثوار في أقطار الأندلس . وفي أثر ذلك نكبتني خيران صاحب المرية ، إذ نقل إليهم من لم يتق الله عز وجل من الباغين — وقد انتقم الله لي منهم — عني وعن محمد ابن إسحاق صاحبي ، أنا نسعى في القيام بدعوة الدولة الأموية ، فاعتقلنا عند نفسه أشهرا ، ثم أخرجنا على جهة التغريب ، فصرنا إلى حصن القصر ولقينا صاحبه أبو القاسم عبد الله بن هذيل التجيبي المعروف بابن المقل ،

فأقمنا عنده شهورا في خير إقامة ، وبين خير أهل وجيران ، وعند أجل الناس
همة ، وأكملهم معروفا ، وأتمهم سيادة » (١) .

وهكذا انتهى مقام ابن حزم في المرية بالسجن ، ثم النفي . وهكذا
انقضت هذه المرحلة من حياته بملك المحنة التي تركت أثرها في نفسه ،
فجعلته لا يطمئن على حال ، ولا يسكن إلى أحد ، فهو دائما قلق مستوفز .

(١) طوق الحمامة ، ص ١١٧ .

ولعل من القريب أن نرد إلى ذلك الوقت الذي أمضاه هو وصاحبه في حصن
القصر هذا الخبر الذي يورده في الطوق (ص ١٦) « ولقد أذكرني هذا الخبر يوما
ودعت أنا وأبوبكر محمد بن إسحاق ، أبا عامر محمد بن عامر ، صديقنا رحمه الله ، في
سفرته إلى المشرق التي لم نره بعدها ، فجعل أبو بكر يبكي عند وداعه ، وينشده متمثلا
بهذا البيت :

ألا إن عينا لم تجد يوم واسط عليك بياقي دمعها لجود
... ونحن وقوف على ساحل البحر بمالقة ، وجعلت أنا أكثر التفجع والأسف
ولاتساعدني عيني ، فقلت مجيبا لأبي بكر :

وإن امرأ لم يغن حسن اصطباره عليك وإن فارقتك لليلد
أما أبو عامر هذا ، فانظر بعض الحديث عنه في الطوق ص ٦٩ — ٧٠ .

وبعد هذه المرحلة تبدأ في حياة ابن حزم مرحلة جديدة مختلفة كل الاختلاف عما سبقها ، وإن كانت تعتبر نتيجة طبيعية لها ، إذ هي تحقيق لما كان يدور في نفسه ، وتهجس به خواطره ، وتحول الظروف بينه وبين الجهر به ، فهي مرحلة نشاط سياسي خالص ، غامر فيه بنفسه ، وصارح فيه برأيه وسيفه ، وإن كان نشاطا انتهى بالفشل ؛ لأن الحركة الأموية التي وضع نفسه في خدمتها وأخذ نفسه بمؤازرتها ، كانت حركة مقضيا عليها بالفشل ، ولأن قضية الخلافة الأموية التي سارع إلى تأييدها ، مخلصا لها ، متفانيا فيها إنما كانت في حقيقتها قضية الأهواء الشخصية لمثل خيران العامري ومنذر ابن يحيى التجيبي ، لم يقصد بها إحياء حق أو إماتة باطل ، وإنما قصد بها — قبل كل شيء — التمهيد لمجد شخصي يرومه كل منهما لنفسه من ورائها ، فإذا بدا لهما أن ما دبراه من ذلك منتقض من هنا أو هنا ، أو متعارض مع هذا أو ذاك ، فقد أسلما الأمر للأقدار ، وتخليا عن هذه القضية ، وذهبا يرسمان خطة جديدة ، ويدبران أمرا آخر ، أدنى إلى الظفر ، وأقرب إلى تحقيق ذلك المجد المرجو . وهكذا لم يغن إيمان ابن حزم شيئا بهذه القضية التي غامر بنفسه فيها ، بعد أن تكشفت عن مهزلة سخيفة ، غير جديرة بما بذل لها ذلك الرجل .

لقد كان ابن حزم — منذ اقتحم البربر قرطبة واستولوا عليها وعاثوا فيها ، وبلغوا بها ، وأخرجوه منها — يحس أن عليه أن يعمل شيئاً يشارك به في رد الأمور إلى نصابها ، وإزالة ذلك المنكر الضارب أطنا به . ولسنا نبعد أن التهمة التي اتهمه بها خيران في المرية ونفاه من أجلها ، كان لها ما يبررها ، وأنه كان حقاً « يسعى في القيام بدعوة الدولة الأموية » . وهو نفسه لم ينف في كلامه هذه التهمة عن نفسه ، ولم يفكرها في إرادته خبرها ، وإنما الذي أنكره هو سعى الباغين به لدى خيران حتى اعتقله ونفاه ، أما أن هذه التهمة صحيحة أو باطلة ، فذلك ما لم يعرض له . فلا علينا إذن أن نساير منطق الأمور ، وأن نقرر هنا ما افترضناه من قبل من أنه في مدة إقامته بالمرية ، لم يخل من المشاركة فيما كانت تدبره وتنظر فيه وتسعى له بعض الأحزاب المناوئة لسيطرة البربر . حتى إذا قام علي بن حمود ، وقتل المستعين ، فقد انتشر التذمر ، وأخذ السعي لإقصاء هؤلاء البربر صورة جادة وأنه كان لابن حزم نصيبه الخفي في هذا السعي .

وكذلك لم يكذب يسمع وهو في حصن القصر ، عند أبي القاسم التجيبي أن تدبير الحزب الأموي قد اتخذ صورة معينة ، وأن عبد الرحمن بن محمد ، سليل عبد الرحمن الناصر الأموي ، قد نودى به خليفة ، حتى أحس أن الأمر يمسّه من قرب ، فاستأذن صاحبه ، وركب البحر من شرق الأندلس حيث يقع حصن القصر ، إلى غربها حيث يقيم الخليفة المرتضى في بلنسية ، ليكون إلى جانبه لا يؤيده ويشد أزره ، ويشارك بكل ما يملك في النضال من دونه ، ويحقق بهذا ذلك الغرض الذي ما زال يراوده ويلح عليه ،

ويكأتمه حيناً ويسرّ به حيناً ، منذ خرج من قرطبة شريداً . وإنه ليأمل
أن يعود بعد ذلك إلى قرطبة ، موطنه ومهوى قلبه ، إلى جوار الخليفة بعد
أن يستتب له الأمر ، ويقضى على عناصر الشغب والفوضى .

وكانت بلنسية في ذلك الوقت في حكم رجلين من الصقالبة ، من عامتهم
انتزيا عليها في غمرة الفتنة ، هما مظفر ومبارك العامريان ، فهما يحكماهما معا ،
وقد استطاعا أن يجعلا منها مدينة من المدن العامرة المرموقة . وبحسبنا في
تصويرها وبيان حالة المجتمع إذ ذاك فيها ، أن ننقل ما يورده ابن عذاري
عنها ، إذ يقول :

« ولحق بهم لأول أمرهم ، من موالى المسلمين ومن أجناس الصقلب
والأفرنج والبشكنس عشيرتهم ، من دربوا على الركوب ، حتى تلاحق
ببلنسية ونواحيها من هؤلاء الأصناف فوارس برزوا في البسالة والثفاف ،
وانفتح على المسلمين ببلاد الأندلس أمر شديد ، في إباقة العبيد ، إذ نزع
إليهم كل شريد طريد ، وكل عاق مشاق . وزهدوا في الأحرار وأبنائهم ،
ومن طراً منهم عليهم ، فلم يواسوهم . وانتمت جماعة هذه الأخطا الممتحنة
الأصاغر معهم ، إلى ولاء بنى أبي عامر ، وانتفت عن نسبها ابتغاء عرض
الدنيا ، فكثروا . وطلب هذان العبدان ، لما اتسعت لهم الدنيا ، فاخر
الأسلحة والآلات والخيول المطهّرات ونفائس الحلّى والحلل ، فصارت دولتهم
أسرى الدول ، ولحق بهم عريف كل صناعة ، فنفق سوق المتاع لديهم ،
وجلبت كل ذخيرة إليهم . وكانا بنيا بلنسية وسدا عورتها بسوراً حاط بمدينتها
تحت أبواب حصينة ، فارفع الطمع عنها ، ورحل الناس من كل قطر

بالأموال إليها ، وطمحت بسكانها الآمال . واستوطنتها طائفة من جالية
قرطبة القلقة الاستقرار ، فألقوا بها عصا التسيار ، وأجملت عشرتهم ، فتبوءوا
بها المنازل والقصور ، واتخذوا البساتين الزاهرة ، والرياضات الناضرة ،
وأجروا بها المياه المتدفقة » (١) .

هذه هي بلنسية في حكم زينك الأمير بن الذين يدعوها ابن بسام
« أميري فتنة » ، بمعنى أن الفتنة هي التي رشحتهم للامارة ، ولكنهما
كانا في حقيقة الأمر من أهل السداد والتوفيق ، كما كان ما بينهما من الألفة
التامة ما أصبح مضرب المثل (٢) . وقد احتفظ ابن حزم من ذلك بصورة
ظلت ماثلة في خياله ، إزاء أخلاق أهل عصره ، وإهدارهم معاني الصداقة ،
ومن ذلك ما يقول : « وأقصى غايات الصداقة التي لا مزيد عليها من
شاركك بنفسه وبماله ، لغير علة توجب ذلك ، وآثرك على من سواك .
ولولا أنني شاهدت مظفرا ومباركا صاحبي بلنسية ، لقدرت أن هذا الخلق
معدوم في زماننا . ولكني ما رأيت قط رجلين استوفيا جميع أسباب
الصداقة مع تأني الأحوال الموجبة للفرقة غيرها » (٣) .

وفي بلنسية هذه كان يقيم عبد الرحمن بن محمد ، مرشح الحزب الأموي
للخلافة ، ولعلها بمناعتها ومجتمعها الذي رأينا منه صورة واضحة في وصف
ابن عذارى ، كانت أصلح مكان لمثل هذا الحزب ، يدبر فيه أمره ، ويبيت

(١) البيان المغرب . ص ١٦٠ .

(٢) انظر في ذلك المرجع نفسه ص ١٥٩ .

(٣) الأخلاق والسير ، ص ٤٣ .

منه نشاطه ، في أمن وطمأنينة ، وإن كان صاحبها أقرب إلى المسألة
والموادعة ولين الجانب .

سارع ابن حزم إذن إلى بلنسية ليلقى الخليفة الذي تحوم آماله حوله ،
ولعله دهش قليلا إذ شهد هنالك خيران الذي زج به بالأمس في السجن ،
ثم نفاه عن المرية ، بتهمة الانتقاض على ابن حمود ، والسعي « في القيام
بدعوة الدولة الأموية » ، وهاهو ذا اليوم إلى جانب هذا الخليفة الأموي ،
يجند له الجنود ، ويحشد له الأتباع ، ويرتب له هو وصاحبه المنذر بن يحيى
الجيوش ، ليسير بها إلى على بن حمود ، وينتزع مقاليد الملك منه . كان
هذا ولا ريب مشهدا أثار في نفس ابن حزم الدهشة ، ولكنه كان جديرا
أن يشير فيها التشاؤم والخوف من عاقبة هذه الحملة . فهذا الذي ناصر على
ابن حمود ، وبالغ في الانتصار له والنكاية في خصومه ، يوشك أن يغدر
بالمرتضى ، إذا أحس أنه لا يحقق له مطمحه .

وسارت جيوش المرتضى ، ومعها ابن حزم ، ماضية في سبيلها إلى
قرطبة ، حتى إذا مرت بغرناطة وقفت أمامها ، وعليها في ذلك الوقت شيخ
البربر ، زاوى بن زيرى الصنهاجى ، فطلب إليه أن يبايع المرتضى ، فأبى
ذلك ، وما كان له أن يفعل ، فخصومة صنهاجة للمروانيين خصومة
أصلية ترجع للمذهب كما ترجع للجنس ، ومذهب هذه القبيلة من قبائل
البربر خاصة هو المذهب الشيعى ، فكيف يبايعون أمويا وينصرونه على
الخليفة الشيعى القائم في قرطبة ، وهو فوق ذلك إفريقى مثلهم . وكذلك

نشبت الحرب بين الفريقين ، وقد شارك ابن حزم فيها .

وظلت الحرب أياما ، انتهت بعدها بهزيمة الأمويين هزيمة شنيعة ، بعد أن كان خيران وصاحبه قد أضمر الغدر بالمرتضى ، فتخليا عنه . وقد وقع ابن حزم في أسر الغرناطين ، ثم أطلقوا سراحه بعد قليل . أما المرتضى فلجأ حين حقت الهزيمة بقادس ، وهناك دس عليه خيران من قتله غيلة .

وهكذا انتهت هذه المحاولة السياسية التي أتيح لابن حزم أن يشارك فيها تلك النهاية التعيسة ، وتكشفت هذه المغامرة التي غامر ابن حزم فيها وأراد بها أن ينتصر لنفسه ولأسرته ومذهبه ، وأن يرجع بها إلى قرطبة عزيزا كريما ، قد مسح الجرح الذي ما زال ينغر ، عن أقسى ألوان الفشل ، تحف بها أخس صور الخيانة والغدر .

ولكن ابن حزم أتيحت له هذه المرة أيضا تجربة جديدة جلت لعينيه من أخلاق الناس وطباعهم ما مكن في نفسه طبيعة الحذر وإساءة الظن والتشاؤم ، وجعلته يقول بعد في تلك الرسالة الصغيرة التي عبر بها عن تجاربه في عبارات جامعة مركزة : « محن الإنسان في دهره كثيرة ، وأعظمها محنته بأهل نوعه من الإنس » ، ثم يقول : « داء الإنسان بالناس أعظم من دائه بالسباع الكلبة والأفاعى الضارية ، لأن التحفظ من كل ما ذكرنا ممكن ، ولا يمكن التحفظ من الإنس أصلا » ^(١) .

(١) الأخلاق والسير ، ص ٩٢ .

ومهما يكن من أمر ، فقد انتهت هذه المرحلة من حياة ابن حزم ،
وقد انطوى على آلامه وأحزانه تؤزّه أزا ، لا يدري ما ذا يفعل ، وأنى
يتوجه ، بعد أن أطلق ابن زيري سراحه ، وخلي سبيله .

لقد كان من الطبيعي في مثل هذه المحنة أن تمثل قرطبة أمامه ، فها هي
ذى صورها تغمر خياله ، وها هي ذى مسارح صباه فيها ومراتع شبابه بها ،
تتبرج له ، وتملاً قلبه حنيناً غامراً ، وشوقاً بالغاً . لقد أخذت الرغبة في العودة
إليها تأخذ صورة عنيفة ، فهي ما زالت تستبد بنفسه وتثير أحلامه . وقد
أصبحت هذه العودة ضرورة لا بد منها لقلبه السليم ونفسه المحزونة ،
فهي التي تستطيع أن تمسح شيئاً من أحزانها ، وتخفف بعض برحائها ،
وتمنحه نوعاً من السكون والروح والدعة ، بعد هذه القلاقل التي ما زالت
به يتبع بعضها بعضاً .

وكان عهد علي بن حمود في قرطبة قد انتهى بمقتله ، وبدأ أخوه القاسم
عهداً جديداً . وقد جعلت تتراعى إلى ابن حزم أخبار السياسة الجديدة التي
اصطنعها لإشاعة روح الطمأنينة والدعة بين أهل قرطبة ، والتعفية على الآثار
البغيضة التي تركتها ولاية أخيه على في نفوس الناس ، وبلغه نداؤه « بأمان
الأحمر والأسود » ، وأنه « أطفأ النائرة بولايته » ، وتنسم الناس روح الرفق
وباشروا ظل الأمن ، واطمأنت بهم الدار ، وأمر بإسقاط التقرية ، وأظهر
البراءة منها ، وأقصى السعاة وطردهم ، وأقر القاضي والحكام والخدمة على

منازلهم» ^(١) ، فكان ذلك كله مما يضعف من شأن الأسباب التي كانت
تعتمل في نفس ابن حزم ، وتقعده به عن إنفاذ رغبته في العودة إلى قرطبة ،
حتى لم يعد أمامه إلا أن يستجيب لتلك الرغبة القوية الملحة .
وهكذا لم يلبث أن أخذ طريقه إليها ، ودخلها في شوال ، سنة ٤٠٩
بعد غيبة طويلة قاربت أن تبلغ سبعة أعوام ^(٢) .

(١) الذخيرة ، القسم الأول — المجلد الثاني ، ص ١٢

(٢) طوق الحمامة ص ١١١ — ١١٩

بعودة ابن حزم إلى قرطبة ثانية يبدأ فترة جديدة من حياته لا ندرى على وجه التحقيق كم امتدت ، ومتى انتهت ، ولكننا نستطيع القطع بأنها لا تقل عن خمس سنين ، ولا تتجاوز التسع .

وقد أقبل ابن حزم بعد هذا الغياب الطويل على قرطبة ، وهو يلتمس فيها شفاء نفسه ، ودواء جروحه ، وسكون روحه ، بعد هذه الاضطرابات العنيفة التي تعرض لها ، ولا سيما في هاتين السنتين الأخيرتين ؛ فهو لا يكاد يدخلها حتى يمضى إلى مراجعة معاهد حياته الأولى ، واجترار صور صباه وشبابه فيها ، ولكنه ما يكاد يفعل حتى يحس إحساسا قويا لأول وهلة أن هذه المعاهد قد طمسها الغير وأحالتها الزمان . شدة ما تغيرت قرطبة في هذه السنوات التي غابها عنها ! وشدة ما يحس الوجيعه لها تقبض صدره وتشير شجونه .

ثم ها هي ذى صاحبته التي كان يألفها في قصر أبيه ألفة المحبة ، والتي تحدث عن جمالها ودلالها وعفافها ذلك الحديث الرائع الذي قدمناه ، إنه ما يكاد يراها الآن ، بعد عشر سنين أو دونها حتى ينكرها ، « وقد تغير أكثر محاسنها ، وذهبت نضارتها ، وفنيت تلك البهجة ، وغاض ذلك الماء الذي كان يرى كالسيف الصقيل والمرآة المهدبة ، وذبل ذلك النوار الذي كان البصر يقصد نحوه متنورا ، ويرتاد فيه متخيرا ، وينصرف عنه متحيرا

فلم يبق إلا البعض المنبئ عن الكل ، والخبر الخبر عن الجميع ، وذلك لقلة
اهتبالها بنفسها ، وعدم الصيانة التي كانت غذيت بها في أيام دولتنا وامتداد
ظلمنا ، ولتبذرها في الخروج فيما لا بد لها منه ، مما كانت تصان وترفع عنه
قبل ذلك » (١) .

فهاهي ذى صورة حبه قد أحالها الزمان ونكرتها الأيام ، وقد أنكرتها
عينه حين هم بمراجعة حياته هنالك ؛ وكذلك فعل الزمان فعله بصدقة من
أعز الصداقات عليه ، فأصابها ، تلك هي صدقة صديقه الكريم انوفى ،
ابن الطيني ، التي نشأت وترعرعت في ذلك العهد الناصر ، في مجلس أستاذه
أبي يزيد الأزدي المصري ، والتي ظلت متصلة تنشر على قلبه الروح ، حتى
في أيام افتراقهما ، فهونت عليه مضاضة النفي وآلام الغربة ، فإذا كان على
وشك أن يرجع إلى قرطبة ، ممتنيا نفسه بلقاء ذلك الصديق ، فقد نعى إليه
وهو في بلنسية . وبذلك انهار أمل كبير من آمال قلبه ، وانطمست صورة
من أعز الصور الوجدانية التي كانت تشوقه في قرطبة .

وكذلك لم يكد يدخلها ، وإن ذكريات تلك الصداقة تغمر نفسه
بجلالها الحزن ، حتى مضى يحاول أن يرى صديقه هذا في حيث كان يحيا ،
وفي آثاره وتراثه الأدبي يتأمله ويتملاه ويعيش فترة معه ، لعله يتعزى
شيئا به عن مصابه في صاحبه ، ولكن حتى هذا الأمل الأخير لم يجد إليه
سبيلا ، فقد حالت الأقدار بينه وبينه ، كما نفست عليه صديقه ، فانتزعته
وهو يعنى النفس بلقائه ، وها هو ذا حديثه عن ذلك :

(١) طوق الحمامة ، ص ١١١ .

« ودخلت قرطبة ، فلم أقدم شيئا على قصد أبي عمرو ، القاسم بن يحيى التميمي ، أخى أبي عبد الله — رحمه الله — فسألته عن حاله ، وعزيمته عن أخيه ، وما كان أولى بالتعزية عنه منى . ثم سألته عن أشعاره ورسائله ، إذ كان الذى عندى منه قد ذهب بالنهب ، فى السبب الذى ذكرته فى صدر هذه الحكاية (يعنى النكبة التى نكبه بها خيران فى المرية) . فأخبرنى عنه أنه لما قربت وفاته ، وأيقن بحضور المنية ، ولم يشك فى الموت ، دعا بجميع شعره ، وبكيتى التى كنت خاطبته أنا بها ، فقطعتها كلها ، ثم أمر بدفنها . قال أبو عمرو : فقلت له : « يا أخى ! دعها تبقى » . فقال : « إني أقطعها ، وأنا أدرى أنى أقطع فيها أدبا كثيرا . ولكن لو كان أبو محمد (يعنينا) حاضرا لدفعتها إليه تكون عنده ، تذكرة لمودتى ، ولكنى لا أعلم أى البلاد أضمرته ، ولا أحى هو أم ميت » . وكانت نكبتى اتصلت به ، ولم يعلم مستقرى ، ولا إلام آل أمرى . فمن مرأى له قصيدة منها :

لئن سترتك بطون اللحد فوجدى بعدك لا يستتر
قصدت ديارك قصد المشو ق ، وللدهر فينا كروور ومر
فألفيتها منك قفرا خلاء فأسكبت عيني عليك العبر^(١)

وهكذا كانت قرطبة فى رأى قلبه حين دخلها . لم يبق من هذه الصور العزيزة التى طوى عليها صدره ، إلا أطلال دارسة ورسوم طامسة ، تهيج الألم ، فوقف عليها يبكيها ويتوجع فيها ، إنها الذكريات وحدها التى تدور برأسه ، وتزاحم فى قلبه ، وتتواتر أمام خياله .

(١) طوق الحمامة ، ص ١١٩

ولكن ابن حزم لم يلبث — على كل حال — أن استأنف حياته في قرطبة ، واندفع قدر ما تأذن طبيعته التي تميل إلى الاعتزال والتوحد ، نحو بيئاتها الأدبية والعلمية ، وبذلك جعل يملأ فراغه ، ويستكمل شخصيته العلمية .

ولا ريب أن الحياة الأدبية في قرطبة كانت قد تأثرت تأثرا كبيرا بهذه النكبات التي أصابتها ، وهذه الصروف التي مازالت تتداولها وتتواتر عليها . وقد كانت تلك الصروف مازالت تضطر كثيرا من شعرائها النابهين وأدبائها البارزين إلى الهجرة عنها ، والتماس مجال نشاطهم الأدبي في غيرها من المدن الأندلسية وقصورها الناشئة . ثم كانت هذه الشواغل السياسية المتردفة التي أخذت بأكظامها ، وملكت أمر ملوكها وسراتها مما لم يدع للشعر والأدب سبيلا فيها ، وبذلك نزل وضعف وتهافت ، فلم يعد له شيء من تلك القوة والروعة والمنزلة التي كانت له قبل عهد الفتنة ؛ فهو إما شعر عابث هازل خفيف طياش ، كشعر أبي العباس أحمد بن أبي حاتم ، وزير القاسم بن حمود ^(١) ، وإما شعر يعتمد على المبالغة في التملق ، والإسفاف في التزلف ، كشعر ابن المنفلت ، أبي أحمد عبد العزيز بن خيرة ^(٢) ، وإما شعر متكلف ، يستمد كيانه من الفنون اللغوية والعلوم اللسانية ، كشعر أبي القاسم ابن الإفيلي ^(٣) . أما الشعر الحق فلم يبق منه في قرطبة إلا القليل الذاهب في هذه الغمرة .

(١) الذخيرة . القسم الأول — المجلد الثاني ، ص ١٥

(٢) الذخيرة . القسم الأول — المجلد الثاني ، ص ١٥٩

(٣) الذخيرة ، القسم الأول — المجلد الأول ص ٢٤٠

وقد وصف ابن شهيد الحياة الأدبية في قرطبة ، في هذه الفترة ،
وصورها صورة رائعة ، وإن تكن صورة ساخرة أيضا ، في رسالة وجه بها
إلى المؤمن العامري ، وذلك إذ يقول فيها :

« . . لا كقوم عندنا ، حظهم من الفهم الحفظ ، ومن العلم الذكر .
وهذا حظ القصاص ، وأعلى منازل النواح . فتري الممخرق منهم إذا قرىء
عليه الشعر ، يزوي أنفه ، ويكسر طرفه ، وإذا عرضت عليه الخطبة ، يميل
شقاه ويلوى شذقه ، فإن تناولها لم يبق ملححة إلا حشدها ؛ ولا أبقى عفصة فجة
إلا جلبها ، وأصل قلة هذا الشأن ، وعدم البيان ، فساد الأزمنة ، ونبو
الأمكنة ؛ وأن الفتنة نسخ للأشياء ، من العلوم والأهواء ؛ ترى الفهم فيها
بأثر السلعة ، خاسر الصفقة ، يلمح بأعين الشنآن ، ويستثقل بكل مكان
هذا دأبنا وحرابنا ، أنا طلبنا البيان ، فأدر كناه بكل لسان ، والتمسنا الإبداع
فأثبتنا كل معجب ، وأتيننا على كل مطرب ، فما سقطنا على سوقة يهش
إلينا ، ولا دفعنا إلى ملك يصوبنا ، وليت إذ لم يكن غم ألا يكون غرم ،
ووددنا أنا برازخ : لا حرب ولا سلم ، ولا يقظة ولا حلم ، كفى بذلك إنحاء
على الزمن ^(١) »

هذا هو الجو العام للحياة الأدبية في قرطبة ، في هذه الفترة التي عاد
فيها ابن حزم إليها ، وأراد أن يصل ما انقطع من أساليب حياته فيها ؛
ومع ذلك فقد كانت لا تزال هنالك بقية من الشعراء الملقين الذين عرفتهم
هذه المدينة في عهدها الماضي المزدهر ، كأبي عامر أحمد بن عبد الملك بن

(١) الذخيرة . القسم الأول — المجلد الأول ، ص ١٧٩ .

شهيد ، هذا الذي يعتصم بروحه الساخرة ، وكأبي حفص بن برد الأصفر ؛
وأبي بكر عبادة بن ماء السماء ، وهم الذين احتفظوا لهذه المدينة بشيء من
سمعتها الأدبية ، وأبقوا على بعض ما كان لها في عالم الشعر والأدب الرفيع
من منزلة عالية ؛ وبذلك استطاع ابن حزم — وقد عرفنا نشأته الأدبية
ومزاجه الفنى — أن يجد في الاتصال بهذه البقية الكريمة ما يلتمسه من
المتاع الروحى ، وأن يرضى بذلك نزعاته الأدبية ، وأن يسد حاجته الملحة
إلى استئناف حياته الأولى

وإذا كنا لانملك الآن من النصوص ما يعيننا على تعيين صلاته
الأدبية المختلفة بقرطبة في هذه الفترة ؛ فليس ينبغي أن يفوتنا النص على
صلاته القوية بأبي عامر ، أحمد بن عبد الملك بن شهيد الذي رأيناه منذ
قليل في تلك القطعة الساخرة ؛ وهو — وإن يكن لا يزال إذ ذاك شابا لم
يكد يبلغ الثلاثين — يعد سيد شعراء قرطبة وأدبائها

والصلة بين ابن حزم وابن شهيد قديمة ، ترجع إلى عهد الصبا الأول ،
فقد كان أبوه عبد الملك أحد كبار الوزراء في عهد الأمويين ، كما كان
وثيق الصلة بالمنصور العامرى ؛ فشان أسرتهما متقارب كما ترى ، وكذلك
كان شأنهما في ذلك العهد ، فكما كان ابن حزم يتردد بين دور العامريين
كذلك كانت نشأة ابن شهيد ، وهو يصف هذه النشأة ويصور تلك
الصلة في إحدى رسائله التى كانت يوجه بها من قرطبة إلى المؤمن
عبد العزيز بن أبي عامر ، كقوله فيها :

« وأقل ما أمت به . . . من مواتى بالمنصور جده — رضى الله

عنهما — أنى نشأت فى حجره ، وريدت فى قصره ، وارتضعت ثدى
كرأته ، واعتجرت رداء مكارمه ، وأغتذيت من فيه ، أكلا زقنيه ، وماء
علنيه ؛ فصرت من أفراخ نعمائه الحمر الحواصل ، ولحقت بأخوة أبنائه الغر
العباهل » ، إلى غير ذلك مما يصور مبلغ هذه الصلة ^(١) ويجعلنا نتمثل
الصبيين وقد نشأ معا ، وعقدت بينهما الألفة والصدقة منذ ذلك العهد
الأول ، ولا سيما إذ كان سنهما متقاربا ، إذ لم يكن ابن شهيد يكبر ابن
حزم إلا بعامين اثنين

على أننا نستطيع إلى جانب هذا أن نرى فى رسالة التوابع والزوابع
لابن شهيد ما يدلنا على هذه الصلة القديمة بين ابن شهيد وأسرة ابن حزم ،
فقد وجه القول فى صدرها إلى شخص كناه بأبى بكر ؛ وقال ابن بسام
فى تقدمتها إنه أبوبكر ابن حزم . وأكبر الظن عندنا أنه أخو صاحبنا الذى
سبقته الإشارة إليه ^(٢)

وقد ظل ابن شهيد فى قرطبة لم تحمله الفتنة على مغادرتها ، كما حملت
صاحبه ابن حزم ، فلما عاد إليها وأخذ يستأنف حياته الأدبية فيها كان
ابن شهيد ذخره المذخور له فيها ، فكان من أعز أصدقائه الذين يحرص

(١) الذخيرة . القسم الأول — المجلد الأول ، ص ١٦٣

(٢) الذخيرة . القسم الأول — المجلد الأول ، ص ٢١٠ ، ولا ينبغي أن يعترض

على هذا الفرض بأن أبى بكر بن حزم هذا مات شابا ، ففى صدر هذه الرسالة ما يدل
على أن ابن شهيد كتبها كذلك وهو شاب : « لله أبى بكر ظن رميته
فأصميت . . . حين لمحت صاحبك الذى تكسبته ، ورأيت قد أخذ بأطراف السماء . .
فقلت : كيف أوتى الحكم صبيا ، وهز بجذع نخلة الكلام فاساقط عليه رطبا جنيا » .

عليهم ، فكانا ما يزالان يتزاوران ويتبادلان الشعر والرسائل . ويحكى
المقري أن « أبا محمد ابن حزم قصد أبا عامر ابن شهيد ، في يوم غزير المطر
والوحل ، شديد الريح ، فلقية أبو عامر ، وأعظم قصده على تلك الحال ،
وقال له : يا سيدى ! مثلك يقصدنى في هذا اليوم ؟ فأنشده بديها :

ولو كانت الدنيا دوينك لجة وفي الجو صعق دائم وحريق
لسهل ودى فيك نحوك مسلكا ولم يتعذر لى إليك طريق ^(١)

وهذه القصة على بساطتها تصور لنا مبلغ ما كان يشعر به ابن حزم
نحو ابن شهيد من صداقة قوية عميقة ، وحرص بالغ شديد على لقائه
والتحدث إليه .

وقد أشار ابن خلكان في سياق ترجمته لابن شهيد ، إلى أنه كانت
« بينه وبين ابن حزم الظاهري مكاتبات ومداعبات » ^(٢) . ولم يورد شيئا
من هذا الذى كان بينهما من ذلك . ولكن هذه الإشارة تدلنا — على
كل حال — على شيء من طبيعة هذه الصلة التى بقيت قائمة بين الرجلين ،
وكل منهما أحرص من صاحبه عليها ، وأرغب فى تعزيزها واستدامتها ،
وهو روح الدعابة التى تبدو لأول وهلة أمرا غريبا بالنسبة لابن حزم .

أما ابن شهيد فروح الدعابة ظاهرة أجلى ظهور فيه ، ويقول أبو مروان
ابن حيمان من صفته أنه « كان فى تنميق الهزل والنادرة الحارة أقدر منه
على سائر ذلك . . . وله رسائل كثيرة فى فنون الفكاهة وأنواع التعريض

(١) نفح الطيب ١ :

(٢) وفيات الاعيان

والأهزال ، قصار وطوال »^(١) . فأما ابن حزم فنسبة الدعابة إليه تبدو أمراً غريباً ، كما قلنا ، لأن أول ما يبدو منه هو هذه الحدة وصرامة الخلق ، والواقع أنه كان يخفى وراء ذلك الجد الذي يظهر لنا في كتبه ميلاً إلى الدعابة قوياً ، غير أنه كان يغالبه ويقاومه ، إذ كان يكره أن يعرف به . وهو يعدّ هذا الميل إلى الدعابة فيه فيما يعد من العيوب التي لم يزل يروض نفسه — فيما يقول — على مداواتها . وهو يقول في ذلك : « ومنها دعابة غالبية . فالذي قدرت عليه فيها إمساكي عما يغضب الممازح ، وسأحت نفسي فيها ، إذ رأيت تركها من الانغلاق ، ومضاهيها للكبر »^(٢) . وما كان أحوج ابن حزم في هذه المرحلة أن يستجيب لطبيعته في الممازح والدعابة ، فذلك جدير أن يخفف عنه شيئاً من عبء تلك الأحاسيس التي أرهقته بها الكوارث والأحداث .

وهكذا نرى أن الروابط التي كانت تربط ابن حزم بابن شهيد كانت روابط وثيقة ، مشتقة من الزمن الطويل ، وروح الحفاظ على العهد ، ومن النزعة الأدبية القوية ، ثم من طبيعة الممازح والدعابة ، وبذلك وجد ابن حزم في ابن شهيد عنصراً من عناصر الروح النفسى ، في هذه الفترة من حياته ، مما نحسب أثره كبيراً في تسليده .

وقد ظلت علاقة ما بين الرجلين قوية إلى آخر لحظة . وليس علينا بأس هنا في أن نخالف قليلاً الخطة التي رسمناها لهذا البحث ، من مسطرة حياة ابن حزم مرحلة مرحلة ، لننظر إلى ما كان بينهما ، حين اشتدت

(١) الذخيرة . القسم الأول — المجلد الأول ، ص ١٦٢ .

(٢) الأخلاق والسير ص ٢٣ .

العله بابن شهيد ، « و غلب عليه الفالج الذي عرض له في مستهل ذي القعدة
من سنة خمس وعشرين وأربعمائة » ، وكانت علة شديدة القسوة على نفسه ،
وقد بقي لنا من شعره ما يصور أحاسيسه لقاءها . ومن ذلك هذه القطعة التي
اتجه بها إلى صديقه ابن حزم ، وهي قطعة غاية في الروعة والصدق :

ولما رأيت العيش ولي برأسه	وأيقنت أن الموت لاشك لاحق
تمنيت أني ساكن في غيابة	بأعلى مهب الريح في رأس شاهق
أدر سقيط الحب في فضل عيشة	وحيدا وحسى الماء ثنى المفالق
خليلي من ذاق المنية مرة	فقد ذقتها خمسين ، قوله صادق
كأنني وقد حان ارتحالي لم أفز	قدما من الدنيا بلوحة بارق
فمن مبلغ عني ابن حزم وكان لي	يدا في ماماتي وعند مضايقي
عليك سلام الله إني مفارق	وحسبك زاد من حبيب مفارق
فلاتنس تأييني إذا ما فقدتني	وتذكر أيا مي وفضل خلاقتي
فلي في ادكاري بعدموتي راحة	فلا تمنعونيها علالة زاهق
وإني لأرجو الله فيما تقدمت	ذنوبي به مما درى من حقائق

فأجابه ابن حزم بقطعة من الشعر أورد ابن بسام منها هذه الأبيات :

أبا عامر ناديت خلا مصافيا

يفديك من دهم الخطوب الطوارق

وألقيت قلبا مخلصا لك ، ممحضا

بودك موصول العرى والوثائق

شدائد يحلوها الإله بلفظه فلاتأس أن الدهر جرم المضايق

ورب أسير في يد الدهر مطلق ومنطلق والدهر أسوق سائق
سفينة نوح لم تضق بحلولها وضاق بهم رحب الفلا المتضايق
فإن تنج قلت : الحمد لله ، مخلصا فمن أعظم النعمى بقاء المصادق^(١)

و بعد ، فهذه إحدى علاقات المودة وصلات الأدب التي أتاحت لابن
حزم في قرطبة في هذه الفترة ، وقد استطاع أن يجد فيها عوناً صادقاً على
حياته النفسية ، كما وجد فيها متاعاً لنزعة الأدبية الأصيلة

وربما كان كثير من الشعر الذي أودعه كتابه طوق الحمامة ، وبقي
لنا طرف منه في النسخة التي بين أيدينا ، مما يرجع إلى هذه الفترة ، إلى
جانب إنتاجه الشعرى الذي يرجع إلى ما قبل ذلك ، وأشارنا إلى بعضه فيما
سبق . وإنه ليدلنا دلالة صريحة على أن ابن حزم ظل حريصاً على صفته
الأدبية ، لا يغفلها ولا يهملها ، وإن أخذت شخصيته تبرز بروزاً قوياً في
الناحية الدينية والعلمية .

(١) الذخيرة . القسم الأول — المجلد الأول ، ص ٢٨٢ — ٢٨٣

وليس من ريب في أن ابن حزم ظل متابعاً في هذه المرحلة أيضاً دراساته الدينية ، وتلقيه عن شيوخ الحديث والفقه . وقد أشرنا من قبل إلى أستاذه عبد الله بن يوسف الرهوني الذي يكثر الرواية عنه كثرة ملحوظة ، وقد عاش عبد الله بن يوسف هذا إلى سنة ٤٢٥ ، ولأنشك أن ابن حزم قد جدد صلته به ، منذ عاد إلى قرطبة ، كما جدد صلاته بغيره ، ممن بقي من شيوخها فيها

ولكن ابن حزم رجع إلى قرطبة رجلاً ناضجاً ، قوى الشخصية ، مستكمل الأداة ، وقد نشأ معتدا بنفسه ، ثم زادته الأحداث التي عرضت له ، وأفردته في كثير من الأحيان ، اعتداداً بالنفس ، واستقلالاً في الرأي ، وكانت مجالس المناظرة التي أتيحت له في المرية ، ونجاحه فيها ، وشهادة مناظريه له ، مما سدده في سبيل النظر المستقل ، والرأي الذي لا يخضع إلا لما يجتمع له من أدلة تقنعه ، في مسائل الدين والعلم ، ووجه نشاطه في ذلك هي الوجهة التي طبعت حياته العقلية والمادية بطابعها

فلم تلبث مظاهر هذه الشخصية القوية المستقلة أن أخذت في الظهور والإعلان عن نفسها ، بعد أن عاد إلى قرطبة ، واستقرت له حياته فيها ، فلم يكفه أن خرج على المذهب المالكي السائد بين أهل الأندلس ، واصطنع

مذهب الشافعي ، حتى تجاوز ذلك تجاوزا بعيدا إلى مذهب آخر يرفض هذه المذاهب المعروفة جميعا ، إذ يخالفها في أحد الأصول الأولى التي بنت عليها وهو القياس ، وذلك هو مذهب داود بن علي الأصماني ، رأس المذهب الظاهري في الشرق ^(١)

والذي يعنيها هنا ، مما يدخل في نطاق موضوعنا ، هو أن تتعرف الأسباب والعوامل التي حولت ابن حزم إلى هذا المذهب ، الذي يعد مذهبا غريبا بين أهل الأندلس ، وإن وجد بعض الأتباع له فيهم ، مع ما في ذلك من

(١) هذا هو ما ترجمه في فترة اعتناق ابن حزم للمذهب الظاهري ، وإن كنا لا نستطيع أن نفترض لهذا تاريخا معينا ، جاهر فيه باعتناقه له . ولكن الذي نملك القطع به هو أن ذلك كان قبل تأليف طوق الحمامة في نحو سنة ٤١٧ هـ ، كما سيحيى تحقيقه ، وذلك إذا صح ما أورده المقرئ ، أنه عن كتاب طوق الحمامة قال : « قال ابن حزم في طوق الحمامة أنه مر يوما هو وأبو عمر ابن عبد البر بسكة الخطابين ، بمدينة أشبيلية ، فلقيهما شاب حسن الوجه ، فقال أبو محمد : هذه صورة حسنة ، فقال له أبو عمر : لم تر إلا الوجه ، فلعل ماسترته الثياب ليس كذلك . فقال ابن حزم ارتجالا :

وذى عدل فيمن سباني حسنه يطيل ملاهى في الهوى ويقول
أمن أجل وجه لاح لم تر غيره ولم تدر كيف الجسم ، أنت عليل
فقلت له : أسرفت في اللوم ، فائتد فعندي رد لو أشاء طويل
ألم تر أني ظاهري ، وأنتي على ما أرى حتى يقوم دليل
ولم نجد هذه القصة في نسخة الطوق التي بين أيدينا . ولكن ذلك لا يطعن في رواية المقرئ ، إذ كانت هذه النسخة منشورة عن نسخة عملت فيها يد صاحبها بالحذف والاختيار ، كما هو ظاهر في العبارة التي أثبتتها في نهايتها :
« كملت الرسالة المعروفة بطوق الحمامة ... بعد (...) أكثر أسماءها وإبقاه
العيون منها تحسينا لها وإظهارا لمحاسنها وتصغيرا لحجمها ، وتسهيلا لوجدان المعاني
الغريبة من ألفظها ، بحمد الله وعونه وحسن توفيقه » .

مواجهة الأذى والتعرض للمكروه . عندنا أن جملة العوامل ترجع إلى أصليين كبيرين ، يتصل أحدهما بمزاجه الشخصي ، ويتصل الآخر بالبيئة الدينية وما بداخلها ، وذلك إلى جانب بعض الملاحظات التي كان لها - ولا ريب - أثرها الحافز إلى اعتناق هذا المذهب والدعوة إليه والنضال دونه .

وتفسير المذهب الظاهري عندنا هو أنه رد فعل طبيعي للمذهب القياسي والإسراف فيه ، على النحو الذي نراه باطراد في تاريخ العلم الإسلامي فالوقوف عند النص يقابل الإسراف في تجاوزه ، والمبالغة في الاستنتاج منه وتحميله الكثير المختلف ، مما يحتمل ومالا يحتمل ، كالذي نراه في تفسير القرآن ، عند ابن عمر ثم عند ابن المسيب مثلاً ، بعد أن استفاد من القول في القرآن ، من تحميل آياته ما تطيق ومالا تطيق ، واجتلاب الأخبار والآراء من هنا ، والتكثير من ذلك ، لإقحامها في تفسير القرآن ؛ كالذي نراه في رواية الحديث من تخرج قوم عن الرواية جملة ، نتيجة تكثير قوم منها ، وتجاوزهم الحدود الواجبة فيها ، واعتبارهم هذا التكثير غاية في نفسه يتحرونها

والأمر في تاريخ الفقه شبيه بذلك ، ومن هذا الباب جاء المذهب الظاهري الذي نراه أولاً ، في صورة ما ، عند معتزلة البصرة ، إزاء أهل الرأي في الكوفة ، ثم لانبث حتى نراه يتخذ صورة مذهب تشريعي كامل مستقل في القرن الثالث للهجرة ، في بغداد ، على يد أبي سليمان ، داود بن علي الأصبهاني ، بعد أن أخذت صناعة القياس تبسط سلطانها ، ويشهد إغراؤها للفقهاء ، فيذهبون بها المذاهب المختلفة في التشريع والإفتاء ، فكان

من الطبيعي أن تظهر النزعة المعارضة لذلك ، نراها عند أحمد بن حنبل في صورة ، وعند داود بن علي هذا في صورة أخرى .

بهذا التفسير لنشأة المذهب الظاهري نستطيع أن نفسر تحول ابن حزم إليه .

وقد أتيح لابن حزم أن يدرس « الفقه » في مذاهبه المختلفة ، وأن يقرأ من كتب المذاهب المعتبرة طائفة غير قليلة ، نستطيع أن نعرفها في رسالته التي أورد المقرئ نصها ، في فضل علماء أهل الأندلس ، وأن يمعن في الأحكام التشريعية المختلفة التي جاءت بها هذه المذاهب ، ودونها هذه الكتب ، نظراً وتأملًا وتتبعًا ، بتعرف مصادرهما ومواردها ، وأسباب التخالف بينها ، واختلاف السبل بها ، وكيف كان هذا التفاوت البعيد فيها ، إذا كانت تصدر عن أصول لم يختلف المسلمون عليها ، وهي كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وسنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الصحيحة بصحة أسانيدها ، وعدالة روايتها وناقليها ، فما بال هذا الاختلاف البعيد والافتراق الشديد إذن ؟ إنما هو القياس والرأي ، يحكمونه في هذه النصوص ، ويمعنون في هذا التحكيم ، فإذا هي خاضعة ، أو هي في حقيقة الأمر خاضعة لهم هم ، إذ كان هذا القياس شيئًا مختلفًا ، لا ميزانا ثابتًا عادلًا ، فهم إنما يصدرون إذن في هذه الأحكام التشريعية عن الهوى الذي يسمونه قياسًا ورأيًا ، ومن ذلك كان اختلاف هذه الأحكام ذلك الاختلاف المتباعد الأطراف ، وذلك التشتت الذي لا يكاد يضبطه ضابط . « وجميع أهل القياس مختلفون في قياساتهم ، لا تكاد توجد مسألة إلا وكل

طائفة منهم تأتي بقياس تدعى صحته ، تعارض به قياس الأخرى ، وهم كلهم
مقرون مجمعون على أنه ليس كل قياس صحيحا ، ولا كل رأى حقا . كما
هو نص عبارة ابن حزم^(١) .

ولا نكاد نشك في أن هذا الفساد الذي تعرضت له الحياة الاجتماعية
في الأندلس عامة ، وفي قرطبة خاصة ، كان له أثره البعيد في البيئات الفقهية
والقضائية ، وكان القياس وما إليه من الاستحسان مركبا ذلولا طيعا ،
استطاع به جماعة من هؤلاء الفقهاء أن يوائموا من أحكامهم وفتاواهم ،
وبين مقتضيات الحياة الفاسدة التي اطرحت فيها مبادئ الخلق والضمير
اطراحا ، ومسخت فيها كل أصول الدين وآدابه مسخا ، وأصبح الرجل
العاقل فيها هو « من حمله كل بلد ، ونفق عند كل أحد » ، كما يقول
أبو المغيرة ابن حزم^(٢) .

فمثل هذه « الوصولية » التي أصبحت خلق العصر ، وذلك النفاق
الذي أصبح قوام الحياة « العاقلة » ، لا يمكن إلا أن يضع ميسمه ويترك
أثره على الحياة التشريعية في قرطبة خاصة ، وقد رأينا مبلغ ما تعرضت له
من ذلك . هذا أمر طبيعي لا غضاضة مطلقا في تقديره ، وبذلك لم يقف
القياس والاستحسان واعتبار المصلحة عند الحدود التي وضعت لها ، بل اتسع
فيها ، وتسومح في رعاية الشروط المفروضة لها والقيود المضروبة عليها .
وذلك أشبه شيء بالفوضى التي لا ضابط لها ، فكان من الطبيعي الذي يجارى

(١) كتاب المحلى ١ : ٥٨ ، القاهرة ، ١٣٤٧ هـ .

(٢) الذخيرة . القسم الأول — المجلد الأول ، ص ١٢٩

منطق الأمور ، أن يحدث لهذا « رد فعل » كالذي حدث في بغداد في القرن الثالث ، بمنع القياس البتة ، فضلا عما عداه مما هو أبعد عن قيود النص مدى .

وكان ابن حزم أصلح من تظهر على يديه حركة رد الفعل هذه في شكل ثابت قوى ، إذ كان — كما رأينا — رجلا عالما واسع الاطلاع على المذاهب والآراء المختلفة ، وإذ كان رجلا من أصحاب المبادئ الذين يضعون دينهم وخلقهم وضميرهم ومعتقدهم فوق كل اعتبار ، كما رأينا ذلك واضحا في غير مناسبة ، وإذ كان رجلا صريح النفس ، مستقيم الخلق ، لا تغشيه غاشية ، ولا يقوم دون ضميره حجاب . يكره المواربة ، ويبغض الالتواء ، ويمقت التأول ؛ يمضى إلى غايته قدما ، ويأخذ السبيل إلى هدفه مباشرة ، دون مداورة . ثم كان مع هذا كله شديد الثقة بنفسه والاعتداد بها والإعجاب بمواهبها ، إلى حد الغرور أو العجب الشديد ، كما رأينا ذلك أيضا ، وكما يصرح هو به في ذكره لعيوبه التي لم يزل بالرياسة يعانى مداواتها حتى أعان الله على أكثرها (١) .

وبعد هذا كله ، كان رجلا سيئ الظن بالناس ، وسوء الظن هذا صفة أصيلة عنده ، بل لعلها من أرسخ صفاته وأعماقها في نفسه ، نشأت معه في حياته المقصورة الأولى ، وقوتها الملازمات التي لا بست حياته على النحو الذي رأينا طرفاً منه في مثل صلته بخيران العامري ، حتى كان ذلك كالطبيعة له ، فكان يقول في أواخر حياته : « من امتحن بأن يخالط الناس فلا يلق

(١) الأخلاق والسير ، ص ٣٣

بوجهه كله إلى من صحب ، ولا يبن منه إلا على أنه عدو مناصب ، ولا يصبح كل غداة إلا وهو مترقب من غدر إخوانه ، وسوء معاملتهم ، مثل ما يترب من العدو المكشف ، فإن سلم من ذلك فله الحمد ، وإن كانت الأخرى ألفي متأهبا ، ولم يمت هما ^(١) كما كان يقول : « محن الإنسان كثيرة ، وأعظمها محنة بأهل نوعه من الأنس » ، « داء الإنسان بالناس أعظم من دائه بالسباع الكلبة ، والأفاعى الضارية ، لأن التحفظ من كل من ذكرنا ممكن ، ولا يمكن التحفظ من الإنسان أصلا » ^(٢) . وهو بذلك لم يكن يعدّ هذا الخلق عيباً من عيوبه ، بل يقره وينكر على من ينكره ، إذ يقول : « وأما سوء الظن فيعده قومه عيباً على الإطلاق ، وليس كذلك ، إلا إذا أدى صاحبه إلى ما لا يحل في الديانة ، أو إلى ما يقبح في المعاملة . وإلا فهو حزم ، والحزم فضيلة » ^(٣) . وسوء الظن ماله من أثر في الحكم على الأشياء عامة ، من تجسيم العيوب وتكبير المنات ، والنظر إلى الأعمال من جهة بعينها تفرضها هذه النزعة .

بهذا الخلق الناقم المتشائم ، وبهذه الشخصية المتعالية المترفعة ، وهذا الطبع الصريح المستقيم الواضح ، جعل ابن حزم ينظر إلى هؤلاء الفقهاء والقضاة ، وما يستنبطونه من الأحكام ويقضون به ، فإذا هو سيء الرأي فيهم ، شديد النقمة عليهم ، وإنما هو القياس عنده الذي مكن لهم من أن

(١) الأخلاق والسير ، ص ٤٠

(٢) المرجع نفسه ، ص ٦٢

(٣) المرجع نفسه ، ص ٣٤

يقولوا في الدين برأيهم، ويحكموا في كلام الله وسنة الرسول أهواءهم ، حتى كانت هذه الفوضى التشريعية في رأيه . وهكذا أتيح لظاهرة « رد الفعل » في هذا المجال أن تجد فيه معبراً عنها ، فانصرف ابن حزم عن المذهب الشافعي الذي لم يخل في اعتناقه له من مؤاخذه مواطنيه ، إلى المذهب الظاهري الذي يرجع بالدين وأحكامه إلى ظاهر النص وحده ^(١) .

وبدأ ابن حزم بذلك عهداً جديداً تعرض فيه لنوع آخر من الاضطهاد ، اضطهاد الفقهاء وجمهرة رجال الدين ، استطاع أن يثبت له ، كما بدأ عهداً جديداً من النشاط العقلي ، في تقرير مذهبه هذا وتوطيد أركانه والدفاع عنه ، ظهرت فيه شخصيته أقوى ظهور ، بما كان يعقده ويديره من المناظرات المتصلة العنيفة بينه وبين هؤلاء الفقهاء . وقد أمدته ملكاته العقلية وشدة مراسه وطلاقة لسانه ومثانة خلقه ، بما أظهره في هذه الخصومة من الناحية العقلية ، وأذاع من شأنه في البيئات العلمية المختلفة . ولعلنا نستطيع أن تتمثل صورة من هذه الخصومة في كتابه « المحلى » ، وإن كنا لانملك القطع

(١) هذا هو الأصل في اعتناق ابن حزم المذهب الظاهري ، فيما هو طريقتنا في تفسير المذاهب والاتجاهات ، وإن كان ذلك لا يمنع أن تكون هناك ملاسبات ثانوية ، كالذي أشار إليه مترجم ابن حزم في دائرة المعارف الإسلامية من تأثير تعاليم أستاذه أبي الحيار ، وقد سبقت الإشارة إليه ، « وكان داودي المذهب لا يرى التقليد » (الصلاة ص ٥٥٩ وانظر بغية المتمسك ص ٤٥٣) . وربما كان من ذلك ما كان يضمن من إعجاب وإكبار للقاضي أبي الحكم منذر بن سعيد ، « وكان داودي المذهب » قويا على الانتصار له ، كما يقول هو عنه في رسالته « فضل علماء الأندلس » (٢ : ٧٧١ ط بولاق) . وانظر في ذلك أيضا : تاريخ قضاء الأندلس ، ص ٧٤ . (ط دار الكتاب المصري ، ١٩٤٨ م) .

بتاريخ وضعه ، إلا أنه يمثل لنا على كل حال موقف الرجل من مناظره
في هذا المذهب الذي اصطنعه ، كما يمثل لنا اندفاعه في المهاجمة دون هوادة
أو مصانعة .

ولم يكن ابن حزم ظاهري المذهب في أمور الفقه ومسائل التشريع
فحسب ، فظاهريته التي ترجع — كما رأينا — إلى أصول ثابتة من طبيعته
وخلقه ومزاجه ، منفصلة بخلق عصره ، والصفات الغالبة على الحياة العقلية
فيه ، فإذا كانت ظاهريته كذلك ، لم يكن من الطبيعي أن تقف عند هذه
الأمور التشريعية لاتعدوها ، فهي بالنسبة له ظاهرة تتبع أسبابها وتصدر
عن مقدماتها ، على النحو الذي عرضنا الآن طرفا منه . وابن حزم رجل
صريح الطبع مستقيم الخلق بعيد عن الالتواء والتعقد ، كذلك كان نهجه
في الحياة ، وكذلك كانت ظواهر حياته العقلية ، تنبع من ذلك النبع ،
وتسير في ذلك المسار ، شخصية متوحدة مجتمعة لا تفكك فيها ولا تنافر بين
ظواهرها . وبذلك نرى أن ظاهريه ابن حزم كانت أعمق وأكثر من أن
تنحصر في دائرة الفتيا والتشريع وأصول الفقه ، فقد وجهت آراءه في العقائد
والمذاهب الكلامية وجهتها ، وطبعها بطابعها ، فهو ظاهري فيها ، كما هو
ظاهري في الفقه والتشريع . ولم تكن الفوضى في هذه الدائرة ، دائرة العقائد ،
أقل منها في مجال الفقه ، إن لم تكن أكثر وأخطر .

وقد أجمل ابن حزم مذهبه هذا في قوله : « وجملة الخبر كله أن تلزموا
ما نص عليه ربكم تعالى في القرآن ، بلسان عربي مبين ، لم يفرط فيه من
شيء ، تبينا لكل شيء ، وما صح عن نبيكم ، صلى الله عليه وسلم ، برواية

النقات من أئمة أصحاب الحديث ، رضى الله عنهم ، مسندا إليه عليه السلام .
 فهما طريقتان يوصلانكم إلى رضى ربكم عز وجل » ^(١) . وهذه النصوص
 كافية مبينة عن نفسها بنفسها ، لا شئ من دين الله خارج عنها ، أو مستتر
 وراءها : « واعلموا أن دين الله ظاهر لا باطن فيه ، وجهر لا سر تحته ، كله
 برهان لا مسامحة فيه . واتهموا كل من يدعو إلى أن يتبع بلا برهان ، وكل
 من ادعى للديانة سرا وباطنا ، فهى دعاوى ومخارق . واعلموا أن رسول
 الله ، صلى الله عليه وسلم ، لم يكن من الشريعة كلمة فما فوقها ، ولا أطلع
 أخص الناس به ، من زوجة أو ابنة أو عم أو ابن عم أو صاحب ، على شئ
 من الشريعة كتمه عن الأحمر والأسود ورعاة الغنم ، ولا كان عنده ،
 عليه السلام ، سر ولا رمز ولا باطن ، غير ما دعا الناس كلهم إليه ، ولو
 كتمهم شيئا لما بلغ كما أمر . ومن قال هذا فهو كافر . فإياكم وكل قول لم
 بين سبيله ، ولا وضح دليله ، ولا تعوجوا عما مضى عليه نبيكم ، صلى الله عليه
 وسلم ، وأصحابه ، رضى الله عنهم » ^(٢) .

ودلالة هذه النصوص التى هى المرجع الأصيل فى العقيدة الإسلامية
 هى الدلالة اللغوية ، « وحمل الكلام على ظاهره الذى وضع له فى اللغة
 فرض لا يجوز تعديده إلا بنص أو إجماع ، لأن من فعل غير ذلك أفسد
 الحقائق كلها ، والشرائع كلها ، والمعقول كله » ^(٣) ، « ومن أحال شيئا من

(١) الفصل ٢ : ١١٦ — ١١٧

(٢) المرجع نفسه ٢ : ١١٦

(٣) المرجع نفسه ٣ : ٣

الألفاظ اللغوية عن موضوعها في اللغة ، بغير نص محيل لها ، ولا بإجماع من
أهل الشريعة ، فقد فارق حكم أهل العقول والحياة ، وصار في نصاب من
لا يتكلم معه ^(١) »

فالرجوع إلى النص والاعتماد عليه إنما يكون بوساطة هذه الدلالة
اللغوية المتفق عليها بين أهل اللغة . وذلك ما يصر ابن حزم عليه إصرارا ،
ويكرره تكرارا ، في كل مناسبة ، وفي سياق كثير من المناقشات التي يمتحن
بها آراء خصومه ، كقوله في سياق الكلام عن تحديد معنى الجسم ، والفرق
بينه وبين الشيء والحق والحقيقة والمثبت : « هذا حكم هذه الأسماء في
اللغة التي هذه الأسماء منها ، فمن أراد أن يوقع شيئا منها على غير موضوعها
في اللغة ، فهو مجنون وقاح ، وهو كمن أراد أن يسمى الحق باطلا والباطل
حقا ، وأراد أن يسمى الذهب خشبا ، وهذا غاية الجهل والسخف » إلا أن
يأتي نص بنقل اسم منها عن موضوعه إلى معنى آخر ، فيوقف عنده ،
وإلا فلا . وإنما يلزم كل مناظر يريد معرفة الخفائق أو التعريف بها ، أن
يحقق المعاني التي يقع عليها الاسم ، ثم يخبر بعد بها أو عنها بالواجب . وأما
مزج الأشياء ، وقلبها عن موضوعاتها في اللغة ، فهذا فعل السوفسطائية
الوقحاء ، الجهال ، العابثين لعقولهم وأنفسهم ^(٢) »

وفي جميع هذه الأقوال نلاحظ أنه إنما يحيز العدول عما يدل عليه
الوضع اللغوي حين يكون هناك نص محيل لهذه الدلالة ، أو إجماع بصرفها .

(١) الفصل ٣ : ٢٧

(٢) المصدر نفسه ٢ : ١١٨

وقد زاد حالة الثالثة في موضع آخر فصل فيه القول ، وهي ضرورة الحس ،
وذلك إذ يقول : « إن كلام الله تعالى واجب أن يحمل على ظاهره ،
ولا يحال عن ظاهره البتة ، إلا أن يأتي نص أو إجماع أو ضرورة حس ،
على أن شيئاً منه ليس على ظاهره ، وأنه قد نقل عن ظاهره إلى معنى آخر
فلا نقياد واجب علينا لما أوجبه ذلك النص أو الإجماع أو الضرورة ، لأن
كلام الله تعالى وأخباره وأوامره لا تختلف ، والإجماع لا يأتي إلا بحق ،
والله تعالى لا يقول إلا الحق ، وكل ما بطله برهان ضروري فليس بحق »^(١)

وحسبنا هذه النصوص بياناً لظاهرية ابن حزم في ناحية الأصول ،
وقد استطاع أن يقيم هذا المذهب في جميع المسائل الكلامية ، وأن يطبق
مبادئه عليها تطبيقاً بارعاً دقيقاً ، وأن يحتج برأيه في هذه المسائل احتجاجاً
قوياً ، وأن يخاصم فيه جميع المتكلمين دون استثناء مخاصمة عنيفة ، يبسط
فيها حجته بسطاً رائعاً ، كما يبسط فيهم لسانه أحياناً بسطاً لاذعاً ، انتصاراً
لهذا المذهب الذي اصطنعه في الكلام ، كما اصطنعه في الفقه . ولا نكاد
نعرف له فيه هنا سلفاً يقرره هذا التقرير ، ويبسط مبادئه ذلك البسط ،
إنما هي بعض المسائل المفردة ، نراها عند مثل الشافعي وداود الأصبهاني^(٢)

وهكذا وقف ابن حزم وحده هنا في مسائل الكلام ، كما وقف وحده
هناك في مسائل الفقه والتشريع

وكان ابن حزم قد أتيح له أن يدرس المذاهب المختلفة دراسة عميقة

(١) الفصل ٢ : ١٣٣ ، وانظر أيضاً : ٢ : ١٢٢

(٢) انظر مثلاً : الفصل ٢ : ١٤٠

مفصلة ، وأن يستحضر في ذهنه تفصيلاتها ودقائقها استحضاراً دائماً ، وأن يعرف من تاريخ هذه المذاهب وسير أصحابها ما يعينه على امتلاك ناصية القول فيها ، والاستجابة لطبيعته الغالبة في نقدها وتقنيدها وتزييفها . وإنا لنستطيع من خلال قراءة كتابه « الفصل » أن نتمثل في يسر مبلغ مطالعته الكثيرة ودراساته المفصلة لكتب المتكلمين من أهل المذاهب المختلفة من المشاركة والمغاربة ، كالنظام والجاحظ والباقلاني وأبى جعفر السمناني ومحمد بن زكريا الرازي ومحمد بن الحسن بن فورك وابن مسرة ، إلى كثير غيرهم ، ولكنه كما كان يقرأ هذه الكتب بعقله الفاحص المدقق ، فقد كان يقرؤها كذلك بشخصيتها الفعالية المتشائمة ، وينظر إليها بعينه الناقدة التي تقع أول ما تقع على العيوب والمآخذ مكبرة متضخمة ، فلا جرم كان إirاده لما في هذه الكتب من آراء ، وتوجيه لها ، متأثراً بشخصيته ورأيه ، مطبوعاً بطابعه ، إلى الحد الذي قد يتهم فيه بتعمد التحوير والتزوير والتشويه

ومهما يكن من أمر ، فقد أخذ ابن حزم يهاجم هذه المذاهب والآراء الكلامية المختلفة ، مهاجمة عنيفة متصلة ، كلما أتاحت له الفرصة لمهاجمتها ، بل لم يكتف بمجالس المناظرة التي كانت تنعقد بينه وبين خصومه من هذه الطوائف المختلفة ، وكانت ممثلة في الأندلس تمثيلاً وافياً ، بل جعل يضع في ذلك الرسائل والكتب ، كذلك الكتاب الذي أشار إليه في الفصل وأضافه إليه ؛ ونحسب أنه إنما ألفه في هذه الفترة التي تصور حياته فيها ، وهو : « النصائح المنجية ، من الفضائح الخزية ، والقبائح المردية من أقوال

أهل البدع ، من الفرق الأربع ، المعتزلة والمرجئة والخوارج والشيعة »
وهذه الفرق الأربع التي كانت معروفة منتشرة في أرجاء الأندلس في
ذلك الوقت ، كانت كل واحدة منها تنطوي على فرق مختلفة وآراء متعارضة
ومذاهب كثيرة ، وإن يكن يجمعها أصل المذهب الذي تنتمي إليه ، وكل
ذلك مما كان يجعل أمر الفكر الإسلامي أقرب إلى الفوضى التي لا ضابط لها ،
وكما قلنا ، وإلى جانب هذه الطوائف الإسلامية كانت هنالك طوائف
اليهود والنصارى والملاحدة ، تضطرب بمختلف النوازع ، وشقي الآراء
والأهواء ، وتصطنع في ظهورها والتعبير عن نفسها المظاهر المختلفة
والأساليب الكثيرة

كل ذلك كان يتمثله ابن حزم في ذهنه تمثلاً واضحاً متميزاً ، وقد وقف
من هؤلاء جميعاً موقف الرجل الكبير لنفسه ، المعتمد أكبر الاعتداد برأيه ،
المؤمن أقوى الإيمان بمذهبه ، إلى الحد الذي يكاد معه يهدر كل ما عدا
رأيه من آراء ، ويلغى كل ما سوى عقله من عقول . بذلك اتسمت مناظراته
ومناقشاته إلى جانب ما اتسمت به أيضاً من قوة الحججة وسطوع الدليل ؛
وكما اتسمت في أكثر الأحيان بسلطة اللسان ، والتهجم على المناظر بألوان
مختلفة من السباب والتسفيه والتكفير والتفسيق ، وهي سمة ترجع - في
بعضها - إلى ذلك الخلق الذي عرضنا بعض وجوهه ، كما ترجع إلى سبب
عضوي يتصل بكيانه الجسدي ، وهو مرضه الذي أشار إليه وهو يتأمل
نفسه ، ويحلل حالاته ويعاينها ، فيقول : « ولقد أصابتني علة شديدة ،
ولدت على ربوا في الطحال شديداً ، فولد ذلك على من الضجر ، وضيق

الخلق ، وقلة الصبر والنزق ، أمرا حاسبت نفسي فيه ، إذ أنكرت تبدل
خليقي ، واشتد عجبى من مفارقتى لطبعى ، وصح عندى أن الطحال موضع
الفرح إذا فسد تولد ضده ^(١) فلعل ذلك المرض كان من الأسباب التى
وسمته فى مناظراته بتلك السمة التى ينكرها الكثير منا .

ومهما يكن من أمر ، فهكذا كان شأن ابن حزم فى خصوصته العلمية
والدينية ، وفى موقفه من علماء عصره ، سواء الفقهاء والمتكلمون ، وسواء
المسامون وغير المسلمين ، وذلك أول ما يحسه الناظر فى كتاب ككتاب
الفصل ، وقد كان ذلك — ولا ريب — من أول ما أفسد بينه وبين
معاصريه ، وأثار عليه الزوابع والأعاصير .

وهكذا انصدع ما بين ابن حزم وأهل عصره ، وما زال هذا الصدع
بتفاقم ويتسع منذ ذلك ، وما زالت الأعاصير تأخذه من كل جانب ،
وهو ماض فى سبيله لا يكاد يعبأ بها ، فهو يرى نفسه موكولا إليه محاربة
هذه المذاهب والآراء ، وإذاعة المذهب الذى يراه المذهب الحق ، وأنه
بأداء هذه الرسالة يحقق نفسه ، وأن إيمانه بنفسه على هذا الوجه لا يقيم
وزنا لإنكار الناس وما يثرونه عليه ، وما يحيطونه به من تشيع عليه وتنفير
منه ، بل إنه ليرى فى موقفه من إنكار الناس فضيلة من أكبر فضائله ،
ونقيية من أجل ما يجب أن يحرص عليه من نقائبه ، « وهو اطراح المبالاة
بكلام الناس ، واستعمال المبالاة بكلام الخالق عز وجل » على حد تعبيره
وكما يقول فى هذا الموضع نفسه : « من حقق النظر ، وراض نفسه على

السكون إلى الحقائق ، وإن آلمتها في أول صدمة ، كان اغتباطه بدم الناس
إياه ، أشد وأكثر من اغتباطه بمدحهم إياه ^(١)

فهو إذن لا يكتفى بعدم المبالاة بإنكار الناس عليه ، بل يلذ ذلك
الإنكار ويستشعر الغبطة به .

وبعد ، فهذه صورة موجزة من حياة ابن حزم العقلية في هذه المرحلة
من حياته ، ومنها نرى كيف بعد المدى بين حالته ، وهو مقبل على قرطبة
في كثير من الشغف والنفهم والحنين ، وحالته وهو منصرف عنها ، بعد أن
لابس هذه البيئات ، فملأت نفسه خيبة ، وانبت ما بينه وبينها

(١) رسالة الأخلاق والسير ، ص ١٣

لم يكن نشاط ابن حزم خلال هذه المرحلة خالصاً كل الخلوص لهذه الألوان من النشاط الأدبي والديني والعقلي ، بالرغم من استغراقه فيها . فإن هذا الاستغراق لم يصرفه تماماً عن السياسة ، والتفكير في أمر الحكم ، منذ استقر في قرطبة ، وجعلت نفسه تثوب إليه ، وأخذت تجتمع فيها ثانية أحلامه المبعثرة وآماله المتناثرة ، فإنه ليرنو بعينيه إلى ذلك اليوم الذي يعود فيه الحق إلى نصابه ، ويرجع أمر السلطان فيه إلى بني أمية ، ويدال لهم من هؤلاء الجوديين الدخلاء على الأندلس ، الواثبين على عرشها عدواناً وظلماً ، الغاصبين له في غفوة الأيام ، هؤلاء الشيعة الذين ملئوا قرطبة بالسودان والبربر ، يسودونها ويتحكمون فيها ويركبون أهلها بأنواع العسف

وإذا كان الأمان الذي بذله القاسم بن حمود قد أتاح له أن يعود إلى قرطبة ، ويستقر في موطنه ، ويضع حداً لحياة الخوف والقلق والاضطراب والتشرد التي سيطرت عليه زماناً ، ومكن له من أن يفرغ لدراساته وقراءاته ومناظراته ، وهذه الرسالة الدينية والعقلية التي يراها منوطة به ، موكولة إليه ، إذا كانت قد أتيح له ذلك كله بفضل إمامه القاسم بن حمود ، وفي ظل سياسته الرخية الرضية ، وإغضائه عن خصومه السياسيين وتسامحه معهم ، فما كان ذلك لي يجعله يهدر آماله السياسية ، ويرجع عن رأيه وأمويته ،

فأمويته أعمق وأرسخ من أن تخدع عن حقيقتها بشيء من ذلك ، وأجل
من أن ترضى بحكم هؤلاء العلويين وعماهم وقوادهم من السودان والبرابرة
وأهل العدو الأخرى .

ولا ريب أن ابن حزم كان على اتصال بجماعة الأمويين في قرطبة ،
يشاركهم في السعي والتدبير ، حتى إذا ضعف أمر القاسم ، واضطرب الحبل
في يده ، « وتسلبت عليه البرابرة ، حتى احتقروه » كما يقول ابن حيان ،
فقد أخذت آمال ذلك الحزب الأموي تنتعش ، وجعل الأمل يمثل أمامه :
لقد أراد القاسم أن يخلص من سلطان هؤلاء البربر الذين جعلوا يعبثون به
فأحل السودان محلهم ، يضرب هؤلاء بأوائك ، وما كان لإعرشه يضربه .
فقد أحنق البربر صنيعة ، فأخذوا يتآمرون عليه مع ابني أخيه يحيى وإدريس .
فما إن أحس بهذه المؤامرة ، وشعر أنها تضيق الخناق عليه ، حتى رأى من
الحكمة أن ينجو بنفسه ، ويدع قرطبة ، فهرب منها إلى أشبيلية ، سنة ٤١٢
ولكنه إنما هرب منها ليحییء ابن أخيه يحيى فيجلس على عرشها . وإذا
كان الوقت لم يكن قد حان بعد للحزب الأموي لكي يضرب ضربته ويبلغ
أربه ، فقد كانت الأمور سائرة في سبيل ذلك ، بتفرق الحموديين هذه
الفرقة ، وانحلال أمرهم ذلك الانحلال . فلم يطل المقام بيحيى حتى تنزل
عرشه هو أيضاً ، حين رأى نفسه وحيداً في قرطبة ، قد تفرق عنه السودان
والبربر جميعاً ، فآثر العافية ، وأتمس الأمن لنفسه ، وترك قرطبة كما تركها
عمه من قبل ، منذ عام وبعض عام ، واتخذ سبيله إلى مالقة ، ولكن الأمر
لم يكن ثم بعد للأمويين ، فعاد القاسم مرة أخرى .

وفي خلال ذلك كان الحزب الأموي بقرطبة يقوى ويشتد ، وكانت هذه الصدوع التي أصابت بناء الحموديين قد كثرت واتسعت فاستطاع ذلك الحزب أن ينفذ إلى غرضه منها ، فيعيد العرش إلى أصحابه من بنى أمية ، ويطرد عن البلاد هؤلاء الدخلاء من السودان والبربر ، الذين نكروا وجهها ، وأمرّوا عيشها ، وأفسدوا الحياة فيها ، وسلطوا عليها الفزع والخوف زمناً غير قليل

وهكذا لم يلبث القاسم الحمودي أن أحس بثورة به ، في عام ٤١٤ ، ثورة انتهت بخلعه ، « فارتفعت بزواله عن قرطبة دولة آل حمود ، بعد وقعة للبرابرة على أهلها بالمرج ، باد فيها جماعة منهم ، ثم انصرفت الكرة على البرابرة ، فقتلوا قتلاً ذريعاً ، وارتحلوا عن قرطبة ، وجاء القاسم مغلولاً إلى أشبيلية » (١)

وإذا كنا لا نعرف أى دور كان يؤديه ابن حزم في مناهضة الحزب الأموي للحموديين وثورته عليهم ، فإن ما نعرفه من مشاركاته السياسية من قبل ، ومن رأيه في الأموية واعتزازه بها ودفاعه في كل مناسبة عنها يجعلنا نفترض أن مكانه من ذلك الحزب لم يكن بالمغمور ، وأنه أخذ بنصيبه في هذه الحركة التي انتهت بسقوط الأسرة الحمودية ، لإعاده الأمويين إلى عرش الأندلس ، بعد ذلك العهد الطويل

وهكذا استشرف ابن حزم مرة أخرى إلى هذا الحلم الذي مازال يراود خياله منذ تلك الفتنة الكبرى التي قذفت به ، من عشر سنوات ، خارج

(١) الذخيرة ، القسم الأول — المجلد الثاني ، ص ١٧

قرطبة ، وشرده بين شرق الأندلس وغربها : وهو أن يرى بالأندلس
دولة أموية قوية ، تحي ذكرى تلك الدولة التي ظل محتفظاً بها في ذاكرته ،
ويقوم عليها رجل يمثل الحزم النافذ ، كما يمثل العقل البصير والذهن المستنير
والذوق المرفه الدقيق .

ولكن وأسفاه ! هيهات هيهات ! فإيما تلك تعالآت أو علالات
فقد انتهى عهد الأمويين في الأندلس إلا تلك الومضات الخاطفات ! .
وقد كان جديراً بابن حزم أن يعرف ذلك حق معرفته ، فهو يرى بقايا
الأمويين من سلالة تلك الأسرة ، وقد ضعفوا وهانوا ، وقل فيهم من
يمكن أن يتوسم فيه الخير ، ويرجى منه القيام بهذا الأمر ؛ ولكن رغبة
ابن حزم القوية وحفاظه الشديد للأموية ، غلباه على أن يرى ذلك .

وقد ومضت الأموية ومضت سريعة خاطفة ، عقب سقوط الدولة
المجودية ، لم تعد سبعة وأربعين يوماً ، ولّى فيها الخلافة عبد الرحمن بن
هشام الناصري ، ولقد لقب بالمستظهر . وكان كما يصفه ابن حيان « لبقاً
ذكياً ، وأديباً لودعياً ، لم يكن في بيته يومئذ أبرع منه منزلة . وكان قد
نقلته المخاوف ، وتقاذفت به الأسفار ، فتحنك وتخرج وتمرن فيها » (١)
ويصفه في موضع آخر بقوله : « وكان على حداثة سنه ذكياً يقظاً ، لميباً
أديباً ، حسن الكلام ، جيد القريحة ، مليح العبارة ، يتصرف فيما شاء
من الخطابة ؛ بديهة وروية ، ويصوغ قطعاً من الشعر مستجادة . وقد
اقتضب بحضرة الوزراء في أيامه عدة رسائل وتوقيعات لم يقصر فيها عن

(١) الذخيرة ، القسم الأول — المجاهد الأول ، ص ٣٤

الغاية ، يزين ذلك بطهارة أثواب وعفة وبراعة من شرب النبيذ سراً
وعلانية ؛ وكان في وقته نسيج وحده ، ختم به فضلاء أهل بيته الناصريين .
فلم يأت بعده مثله» (١)

يمثل هذا الشاب المثقف تلك الثقافة الأدبية الرفيعة ، المهيأة تلك التهيئة
النفسية الممتازة ، كانت تتعلق آمال الحزب الأموي عامة ، وآمال رجل
كابن حزم خاصة ، في استحياء الدولة الأموية ، واستعادة ذلك المجد
القديم ، ثم في تمثيلها لتلك المثل الرفيعة التي كانت الدولة تعنى بها من قبل
عناية خاصة ، في أيام الناصر والمستنصر وابن أبي عامر ، من رعاية الأدب
وحماية العلم ، فقد كان بتلك الصفات التي عرف بها ، وصار من أجلها
الوحيد بين سلالة الأمويين ، جديراً بتحقيق ذلك ، إلى جانب طهارة
ثوبه وبراءة دخليته ، وبعده عن الدنيا والسفاسف التي استهترت بها هذه
البقايا الأموية ، حتى صارت سمة كل أموي في الأندلس

وكذلك أراد المستظهر أن يسبغ على دولته وعلى قصره صبغة أدبية
تلائم نزعتة الخاصة ، فاتخذ وزراء وحاشيته من رجال الأدب ، من أهل
السابقة . فكان منهم صاحبنا أبو محمد بن حزم ، وابن عمه أبو المغيرة
عبد الوهاب بن حزم ، وأبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد ، كما كان
منهم أيضاً الشاعر البارع حسان بن مالك بن أبي عبدة (٢) ، والكاتب
الرائع ابن برد ، « واشتغل مع ابن شهيد وابني حزم بالمباحثة في الآداب

(١) الذخيرة ، القسم الأول — المجلد الأول ، ص ٤٠

(٢) انظر نفح الطيب : ٢ ٣٧٠ (ط أوربا)

ونظم الشعر « كما يقول المقرئ ^(١) . وقرت عين ابن حزم بهذا الظفر ،
وبرؤية هذه الدولة الأموية ماثلة في الحياة ، وإن تكن محدودة الأفق ،
ضيقة الموارد ، وبأن يكون إلى جانب هذا الشاب المترف الدقيق الحس ،
الطامح إلى استحياء تلك التقاليد الأموية القديمة التي رفعت شأن الأندلس
وأذاعت صيتها في العلم والأدب

وما كان يدور بخلد ابن حزم ، وهو في نشوته الغامرة ، أن هذا
الاتجاه الأدبي الذي اتجهت إليه الدولة الجديدة ، كان من العوامل التي
ساعدت على انتهائهما وشيكا ، وعلى انقضاء حياة ذلك الشاب الطموح .
لقد كان الفساد الذي عم قرطبة ، والإسفاف الذي غلب عليها وتغلغل فيها
يأبى أن تقوم فيه دولة مثل هذه الدولة تقيم مثل هذه المثل الرفيعة ، فلم
يلبت أن أصبح قصر المستظهر ودولته الجديدة أحداثا منكرا ، فقد كان
تقريبه لهذه الطبقة من الأدباء ، مما أحقد عليه مشايخ الوزراء والكبراء
كما يقول المقرئ ، فجعلوه مضغة في أفواههم ، ومضى خصومه والحاقدون
والمزورون يستغلون اختياره لهؤلاء ، فيملأون الجو تشهيرا به وتشنيعا عليه
« فأبو عامر ابن شهيد ، في رفته وبراعته وظرفه ، خليعها المنهمك في
بطالته ، وأعجب الناس تفاوتنا ما بين قوله وفعله ، وأحطهم في هوى نفسه ،
وأهتكم لعرضه ، وأجروهم على خالقه » ، كما يقول أبو حيان في ذلك
السياق ^(٢) ، أما ابن حزم « فهو المشهور بالرد على العلماء » وكفى بذلك

(١) نفح الطيب ١ : (٢٣١ ط بولاق)

(٢) الذخيرة ، القسم الأول — المجلد الأول ، ص ٣٦

تشهيراً به ، « وابن عمه عبد الوهاب الغزل المترف في حالته » .

وهكذا كانت هذه الصبغة الأدبية التي أراد بها المستظهر أن يرفع بها من شأن دولته وبالا على هذه الدولة ، لا أقول إنها هي التي قوضتها ، فالواقع أن العوامل المحيطة بها كانت بحيث لا تدع لها شيئاً من قوة تدفع عنها أو تمسكها ، ولكنني أحسب أنها كانت من الأسباب التي عجلت بمصيرها ، فلم تلبث الكارثة أن وقعت ، وقتل المستظهر ، وانتهى ذلك الحلم الجميل الذي تبرج لابن حزم فترة من الزمن .

وقتل المستظهر مظهر من مظاهر الفساد المتغلغل أشد التغلغل ، ودليل على ما انتهت إليه هذه الأسرة الأموية في الأندلس ، فقد انتقل العرش إلى أموى آخر ، فكأن ذلك القتل كان لحسابه ، وكفى بهذا انحلالاً وتفككا وإدباراً .

وإذا كانت الخلافة ظلت بعد المستظهر أموية ناصرية ، إذ تحولت إلى محمد بن عبد الرحمن الناصري ، الذي اتخذ لنفسه لقب « المستكفي » ، فما كان أبعد ما بين الرجلين ، وشتان ما بين النقيضين ! وقد رأينا صفة ابن حيان للمستظهر ، وها هي ذي صفته للمستكفي ، قال : « ولم يكن هذا المستكفي من هذا الأمر في ورد ولا صدر ، إنما أرسله الله تعالى على أهل قرطبة محنة وبلية ، إذ كان منذ عرف غفلا عطلاً منقطعاً إلى البطالة ، مجبولاً على الجهالة ، عاطلاً من كل خلة تدل على فضيلة ، عضته الفتنة فأملق ، حتى استجاز طلب الصدقة . . . وبالجمل في تلخيص التعريف بأمره ، أن أجمع

أهل التحصيل أنه لم يجلس في الإمارة مدة تلك الفتنة أسقط منه ولا أنقص ،
إذ لم يزل معروفاً بالتخلف والركاكة ، مشتهراً بالشرب والبطالة ، سقيم
السر والعلانية ، أسير الشهوة ، عاهر الخلوة ، ضداً لقتيله عبد الرحمن المستظهر
في الأدب والمعرفة ^(١) »

ومن هذا نعرف أي نكسة شديدة أصابت الخلافة الأموية في
الأندلس ، وأصابت آمال ابن حزم التي لم تلبث أن تطلعت حتى ارتدت حسيرة
مقهورة . وما قيمة أن تكون الخلافة أموية إذا كان ممثلها والقائم عليها هذا
النكس المتخلف ؟ وإذا صارت مقاليد أمورها إلى أراذل الناس ، وأصحاب
الطبقة الدنيا من العامة والخدمة وزعانف الكتاب ، على حد تعبير ابن
حيان . ما لهذا كان ابن حزم يسعى ويتطلع .

ومن الطبيعي أن لم يعد لصاحبنا مكان في دولة المستكفي هذا ، ولعله
لم يكن يرجو أكثر من أن يترك لشأنه ، لا عليه ولا له . ولكن المستكفي
لم يلبث أن أحس بتغيير الأحوال في قرطبة ، واضطراب الجو فيها ببعض
التيارات التي أخذت تهز عرشه ، وأن هناك مؤامرة تدبر ضده مع يحيى بن
حمود في مالقة ، وتوشك إن لم يأخذ للأمر عدته فيما يقدر أن تهب عليه
فتقتله ، فجعل يصطنع أساليب العنف ، يأخذ بها من يكون في طريق
اتهامه ، وكان أول هؤلاء عنده أصحاب سلفه وشيعة قتيله المستظهر ،
فسجن من سجن ، وقتل من قتل ، إلا من لم تظفر به يده ، كأبي عامر
ابن شهيد ، الذي نجا بنفسه فاراً إلى مالقة ، وكان من بين من قذف بهم

(١) الذخيرة ، القسم الأول - المجلد الأول ، ص ٣٨٠

في ظلمات المطبق صاحبنا ابن حزم وابن عمه عبد الوهاب . وهكذا امتحن
ابن حزم بالسجن مرة أخرى ، وكانت محنة جديدة من سلسلة المحن التي
تعرض لها .

ولا ندري كم لبث ابن حزم في السجن ، ولكن عهد المستكفي لم يطل
على كل حال ، فلم يلبث أهل قرطبة ، هذه المدينة الثوارة ، أن ضاقوا به ،
وثاروا عليه ، فقتلوا وزيره وأحدقوا بقصره ، يريدون أن يظفروا به ويقتلوه ،
لولا أنه استطاع أن يتسلل من القصر هارباً متنكراً ، وبذلك انقضت أيام
هذا الخليفة ، في سنة ٤١٦ هـ ، بعد سبعة عشر شهراً ، وأتيح لابن حزم أن
يخرج من سجنه . ولكن قرطبة كانت إذ ذاك في أشد حالات الفوضى ،
لا حاكم فيها ، ولا ضابط لها ، ولا وازع يزع أهلها . فإذا أقبل عليها من
يريد أن يضبطها ويحكمها من لدن يحيى الحمودي ، فإنه لا يلبث أن يرى
الثورة تعصف به ، وإذا جاءها بعد ذلك خيران ، صاحب المرية ، ومجاهد
صاحب دانية ، وقد تعاقدا على أن يكونا حليفين في حكمها ، فإنهما لا يلبثان
أن يتركاها الواحد بعد الآخر ، والفوضى مهيمنة عليها ، والفتنة
تعمث فيها .

ولسنا ندرى على التحقيق ماذا صنع ابن حزم بعد خروجه من السجن أقام في قرطبة أم تركها ملتصقاً مقاماً له في غيرها ، وهل ظل على صلته بالسياسة والحزب الأموي ، أم انصرف عنها ، بعد أن يؤس منها ، ورأى ألا خير يرجى من المشاركة فيها ، وألا جدوى من هذه المحاولات لاستحياء تلك الدولة ؟

أما العلامة دوزي فيذهب هذا المذهب الأخير ، ويرى أن ابن حزم ودع السياسة بعد المستظهر الوداع الأخير ، وانصرف انصرفاً تاماً عن مظاهر المجد الديني ، وجعل يلتمس العزاء والسوى ونسيان الماضي في الدرس والهدوء والعبادة^(١) . وأما ياقوت فينقل أنه بعد أن وزر للمستظهر ، كان وزيراً « لهشام المعتد بالله ، بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر ، ثم نبذ هذه الطريقة ، وأقبل على قراءة العلوم ، وتقعيد الآثار والسنن »^(٢) . وهذا الذي يورده ياقوت إنما ينقله عن كتاب « أخبار الحكماء » لصاعد بن أحمد الجياني الأندلسي ، وهو معاصر لابن حزم . فقد ما بين سنتي ٤٣٠ و ٤٦٣ ، وكان — فوق ذلك — أحد تلاميذه

(١) Histoire des Musulmans d'Espagne Jusqu'à la Conquête del'Andalousie par les Almoravides 2 : 333

(٢) معجم الأدباء ١٢ : ٢٣٧ (ط . دار المأمون)

الذين ردوا عنه ، كما ينص على ذلك ابن بشكوال في ترجمته له . وهو يصفه فيها بأنه « كان متحريراً في أموره » ، وأنه « كان من أهل المعرفة والذكاء والرواية والدراية » ^(١)

وإذ كان من حفظ حجة على من لم يحفظ ، كما يقول منهج البحث فليس لنا إلا أن نقبل قول صاعد هذا الذي أداه إلينا ياقوت ، ما لم يقم دونه ما يعترضه ويمكن أن يبطله ، ولا سيما إذ كان صاعد — كما رأينا — ثقة يمكن الركون إليه ، مع ما يعضده في هذا من المعاصرة التي هي من أقرب وسائل المعرفة . وليس هناك — فيما نعلم — ما ينص على أن ابن حزم اعتزل السياسة بموت المستظهر ، فقطع ما بينه وبينها منذ هذا التاريخ ، كما يذهب إليه العلامة دوزي ، دون أن يطلع — فيما نرجح — على ما نص عليه صاعد ، ونقله عنه ياقوت

والحق أنه ليس لدينا من دليل على ولاية ابن حزم الوزارة للمعتد ، غير هذا النص . ولكن مهما يكن من أمر فلسنا نملك أن نغفله إغفالا تاماً أو قريباً من التمام في أخباره وآثاره ، فلعل فيما ضاع منا أو غاب عنا من ذلك ما يمكن أن يؤازر ذلك القول ويعضده ويفصل مجمله

وإذن فلا بد لنا الآن من قبول هذه الرواية ، على أي وجه من الوجوه ، حتى يثبت لدينا ما ينقضها ، وعلى ذلك فقد ظل ابن حزم بعد خروجه من سجن المستكني محتفظاً بنزوعه إلى المشاركة في الحياة السياسية مستأنفاً نشاطه السياسي ، على المذهب الذي ما زال مؤمناً به أشد الإيمان

(١) الصلة ص ٢٣٤

وأعمقه ، وهو أحقية الأمويين للخلافة ، بالرغم من كل ما حدث ، وبقى
— كما كان من قبل — عضواً عاملاً في الحزب الأموي ، وقد كان هذا
الحزب الذي ما زال عرضة للكوارث المختلفة ، ولأسباب التشييط والخيبة ،
يتلفت هنا وهنا باحثاً عن شخصية أموية جديدة جديرة أن يركز فيها نشاطه ،
ويحقق بها آماله ، فيضعها على عرش قرطبة ، وينوط بها إمامة المسلمين ،
ويجعلها الخليفة الشرعي في البلاد الأندلسية ، يضبط الأمور بحزمه وحكمته
ويقضي على ذلك الاضطراب العنيف الغامر الذي ساد قرطبة ، وما زال
ينشر فيها الفزع والقلق والهرج والمرج الذي لا تستقيم معه حياة

وقد كان الاهتمام إلى مثل هذه الشخصية التي تستطيع أن تضع
الأمر في نصابها أمراً عسيراً بعيد المنال ، بعد أن تفسخت الأسرة الأموية
وأصبحت بقاياها المبعثرة بين فاجر مسرف في اللهو والمجانة ، منصرف إلى
العبث والخلاعة ، على نحو ما كان عليه المستكفي ، وبين ضعيف مقصوص
الجناح مهيبض الجانب خافت الصوت ، كما كان المستظهر ، وكان أمثل
أسرته جميعاً . ولكن لم يكن بد من إيجاد هذه الشخصية قدر ما يمكن ،
وأخيراً وقع الاختيار على ذلك الأمير الأموي ، هشام بن محمد بن عبد الملك
ابن عبد الرحمن الناصر . ولعل أكبر ما كان يرشحه للخلافة أنه أخو
الخليفة المرتضى الذي قتل دون الخلافة ، ففي استخلافه إحياء لذكراه ، ثم
كان مما يزيه أنه كان قد جاوز في ذلك الوقت سن الكهولة ، ودخل
في دور الشيخوخة ، فهو وإن « كان معروفاً بالشاطرة في شبابه » كما كان

شأن ذلك الجيل من شباب الأمويين ، إلا أنه « أقلع مع شيبه ، فرجى
فلاحه » كما يقول ابن عذارى^(١)

وكان هشام ، بعد هزيمة أخيه ومقتله في غرناطة ، وبعد أن ظل
مشرداً حيناً ، قد آوى إلى قرية حصينة من قرى يلبسية تسمى البونت
(Alpuente) ، يلتبس فيها العزاء والسوى ، ويستشعر فيها الهدوء والروح ،
ويظفر فيها بالأمن والطمأنينة ، في جوار صاحبها الأمير عبد الله بن قاسم
الفهرى ، وهو الذى أجاره وضيّفه ، بعد أن أنكره العامريون وزهدوا فيه ،
على حد تعبير ابن عذارى

اتجه الحزب الأموى إلى ذلك الأمير ، إذ قدر أنه واجد فيه الخليفة
الجدير بما عقد عليه من أمل وناط به من رجاء ، أما صاحبنا ابن حزم فلا
ندرى على وجه التحقيق ماذا كان موقفه إزاء ذلك الاختيار ، وإن يكن
أكبر الظن عندنا أنه كان راضى النفس به ، مطمئن الخاطر له ؛ فعلاقته
بأبى بكر هشام بن محمد علاقة قديمة ، وقد جمعت بينهما تلك المحنة التى
تعرضت لها الخلافة الأموية منذ عشر سنين ، أمام أسوار غرناطة ، وإزاء
جنسد صنهاجة ، وكانا جميعاً إلى جانب الخليفة المرتضى ، يقاتلان معه ،
ويؤازرانه في الدفع عن الخلافة الأموية الممتحنة . وقد شهدا معا مصرعه
دون ذلك الغرض الأسبى ، وكل ذلك من شأنه أن يربط بين قلبيهما
برباط وثيق ، وسرى بعد قليل مصداق ذلك في قصيدة من الشعر يمدحه
بها . فلا جرم كان ابن حزم جديراً بأن يكون مطمئن النفس إلى ترشيح

(١) البيان المغرب ٣ : ١٤٧

مثل ذلك الرجل ، ففي ولايته الخلافة إحياء لذكرى ذلك الخليفة المنكود ،
كما أن فيها إحياء لذلك الأمل الذي كان يملأ نفس ابن حزم ، فأخذته
الأقدار ، وطمسته ظروف الزمان .

ذلك هو — فيما نقدر — موقف ابن حزم من ذلك الترشيح . ومن
يدري فلعله بهذه العلاقة الوثيقة التي كانت تربطه بأبي بكر ، كان ذا أثر
كبير في توجيه جماعة الحزب الأموي إليه ، واختيارهم له .

أما كيف كانت صلته به بعد أن استخلف — وكان قد اتخذ لنفسه
لقب المعتد — وعلى أى وجه كانت وزارته له ، وهل كان ذلك في
البونت أم في قرطبة — فقد ظل الرجل منذ بويع بالخلافة مقبلاً في البونت
مدى عامين ، حتى سنة ٤٣٠ ، إذ انتقل إلى قرطبة ، وظل بها إلى أن خلع
عام ٤٣٣ — فذلك مالا سبيل لنا إلى القول فيه ، إذ ليس لدينا — كما قلنا —
إلا ذلك النص الذي نقله ياقوت عن صاعد .

على أن ما نعرف عن خلافة المعتد وملايساتها يجعلنا نأخذ وزارة
ابن حزم له بأقل معانيها ، وأدنى صورها ، فلا نراها امتدت أو اتحدت
شكلاً جدياً . ذلك أن المعتد كان في خلافته واقعاً تحت تأثير وزيره من
وزراء ذلك الزمان ، قالوا إنه كان حائكاً من أبناء الزعانف ، « لم تكن له
سابقة شرف ، ولا جاه متقدم ، يعرف بحكم بن سعيد القزاز » ، وكان
سلطان هذا الوزير عليه سلطاناً مطلقاً ، صورته ابن عذارى بقوله : « ... فقلده
هشام حكماً القزاز جملة تلك الأعمال ، وأطلق يده في المال ، فجرى مجرى

أعظم الوزراء المستبدين على فتية الملوك في سالف الأزمنة ، فحجر هو على هذا الخليفة في سن الشيخوخة ، بطبق ومائدة ، كانا طباق همته الكاسدة عكف عليهما راضيا بأدنى العيشة . وقد بقي في قصره ، ينظر بعينه ، ويسمع بأذنه ، ويدنى من أدناه ، ويقصى من أقصاه ؛ وخلاه ومعظم الأمور يدبرها بجهله وخرقه واعتسافه وتهوره ، فلم يلبث أن انتقضت به ، واحتاج حكم إلى رجال يستعين بهم في تديره ، فلم يهتد منهم إلا إلى نغل دغل ، أو ما جن سفيه ، أو سوقى رذل ، سقطت به عليهم المشاكلة ، واتخذهم بطانة ، فدوا له في الغواية ، وجروا في هواه طلق الجموح ، ما فيهم حازم ولا نصيح » ، ثم يقول بمد ذلك في تصوير علاقاته بالناس : « فبدر لأول وقته بعداوة الأحرار ، وتنقص الفضلاء ، والميل على ذوى البيوتات بالأذى ، وصير صنائعه في أضدادهم ، فكانوا وزراءه وأنصاره » (١)

فهذا هو الجو الذي كان يعيش فيه المعتد ، وهذه هي الحاشية التي كانت تحيط به ، أفكان من الممكن أن يكون لابن حزم مكان فيها ؟ وهكذا نكب ابن حزم في أمله هذا أيضاً

وكذلك نرى أنه لم يلبث أن انصرف عنه ، ومضى لشأنه ، يأساً من تحقيق ذلك الأمل الذي ظل دهرًا يراوده ويداعب أحلامه ، أمل استحياء ذلك المجد القديم الذي كان يتمثل له دائماً في هذه الخلافة الأموية ، فقد كان أبو بكر هذا عنده هو البقية الباقية التي كان يدور حولها ، ويتشبث

(١) البيان المغرب ، ٣ : ١٤٧ - ١٤٨

بها ذلك الأمل ، والتي كان ابن حزم يحبك منها أحلامه التي ذهبت
بدوا ، وضاعت سدى

ولعلنا نستطيع أن نتمثل مبلغ ما كان يضمه ابن حزم لأبي بكر ،
هشام بن محمد هذا ، من حب وتقدير له ، وأمل فيه ، في هذه الأبيات
التي بقيت لنا من قصيدة قالها في مدحه . وقد أوردها في كتابه طوق
الحمامة . قال :

أساعة توديعيك أم ساعة الحشر ليلة بيني منك أم ليلة النشر ؟
وهجرتك تعذيب الموحّد : ينتقضي
ويرجو التلاقي ، أم عذاب ذوى الكفر ؟

.....

سقى الله أياما مضت ولياليا تحاكي لنا الفيولفر الغض في النشر
فأوراقه الأيام حسنا وبهجة وأوسطه الليل المقصر للعمر
لهونا بها في غمرة وتألف تمرّ فلا ندري وتأتى فلا ندري
فأعقبنا منه زمان كأنه ولا شك حسن العقد أعقب بالغدر

.....

فلا تياسى يا نفس ! علّ زماننا يعود بوجه مقبل غير مدبر
كما صرف الرحمن ملك أمية إليهم ، ولوذى بالتجمل والصبر

.....

أليس يحيط الروح فينا بكل ما دنا وتناهى وهو في حجب الصدر

كذا الدهر جسم وهو في الدهر روحه محيط بما فيه وإن شئت فاستقر

.....

إتاوتها تهدي إليه ، ومنه تقبلها منهم تقاوم بالشكر
كذا كل نهر في البلاد وإن طمت غزارته ينصب في لجج البحر (١)
وينص ابن حزم في أثناء هذه الأبيات ، عند إيراد الأربعة الأخيرة
منها ، على أنها في مدح « أبي بكر هشام بن محمد ، أخى أمير المؤمنين
عبد الرحمن المرتضى ، رحمه الله » ، فيلاحظ في هذه العبارة أنه لم يصف
أبا بكر — كما وصف أخاه — بإمارة المؤمنين . وإذن فهذه القصيدة ترجع
إلى عهد سابق على العهد الذى بويع فيه بالخلافة . فهذا من جهة ، ومن
جهة أخرى ، نرى في هذه الأبيات الأربعة إشارة إلى الترشيح للخلافة ،
فهو روح الدهر ، محيط بكل ما فيه ، وهو البحر تنصب الأنهار إليه ،
وهذه الإتاوات تهدي له ، وتصرف نحوه

فهل لنا أن نرى في هذا إشارة إلى فترة ترشيح أبي بكر للخلافة من
لدى الحزب الأموى ، وإلى بعض ما كان يتخذ لذلك من وسائل وتدابير
لإنجاح ذلك الترشيح ، وأن تلك القصيدة إنما ترجع إلى تلك الأيام التى
أعقبت خلع المستكفي ، سنة ٤١٦ هـ ، ووقوع قرطبة فريسة للفوضى
والاضطراب والهرج والمرج ، يتنازعها البربر ، وعليهم المعتلى بالله يحيى بن
على ، والصقالية ويمثلهم مجاهد وخيران ، ومحاولة الحزب الأموى الخروج
من هذه الفتنة ، بإسناد الأمر إلى ذلك الشيخ المقيم فى البوننت ، وبذلك

(١) طوق الحمامة ، ص ٧٣ — ٧٤

نعتبر هذه القصيدة أثراً من الآثار الأدبية التي تصور أمل الحزب الأموي عامة ، وابن حزم خاصة ، في استحياء الخلافة الأموية ، في شخص أخى الخليفة المرتضى الذى قتله البربر ، و « قد وقع بينهم وبينه ، ما وقع بين أهل قرطبة وبينهم » (١) ؟

وإذا صح هذا الفرض ، وهو فرض كما نرى قريب ، مسير لطبيعة الأمور ومنطق الأحداث ، ففيه كذلك ما يؤيد القول الذى رأينا من أن ابن حزم لم ينصرف عن السياسة والحياة السياسية ، بعد عهد المستظهر ، بل ظل فى أيام المستكفي ، وفى خلال الفتنة التى أعقبته ، متصلاً بها مغامراً فيها داعياً إلى تحقيق مذهبه السياسى بما يملك من وسائل ، ليس إلى تحقيق القول فيها من سبيل

والآن نعود إلى السؤال الذي سألناه من قبل : أين كان ابن حزم بعد خروجه من سجن المكتفى ، أأقام في قرطبة أم غادرها ؟

أما أن قرطبة لم تعد ، في حقيقة الأمر ، بيئة صالحة له ، في تلك الفتنة المطبقة ، لا لنشاطه السياسى ، ولا لنشاطه الدينى والعلمى ، وإذن فإلى أين يتجه ؟ لم يكن بد من أن يخرج إلى بلد صديق ، وجوهادى رقيق . وكذلك نراه اختار بلاد العامريين في شرق الأندلس ، كما اختارها قبل في مهاجرة الأول من قرطبة . واختار من هذه البلاد إمارة بلنسية التي ذهب إليها منذ عشر سنين للقاء المرتضى ، أيام المظفر والمبارك . أما الآن فكان أميرها عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبى عامر ، وكان آثر العامريين منزلة وأدناهم إلى قلوب أوليائهم ، وكان — كما يقول ابن عذارى — « من أوصلهم لرحمه ، وأحفظهم لقربته . ابتعثه الله رحمة للممتحنين من أهل بيته ، فأواهم ، وجبر الكسير ، ونعش الفقير ، طول مدته ، حتى بلغ من ذلك مبلغاً أعيا ملوك زمانه » (١)

وكذلك نرى ابن حزم لاجئاً مرة أخرى إلى هذه الأقاليم الشرقية ، بحكم طابعها العامرى ، وقربها من الأموية ، التي لا يزال يدين بها . ولكننا

(١) البيان المغرب ٣ : ١٦٤

نراه هذه المرة في مدينة شاطبة (Jativa) ، إحدى مدن إمارة بلنسية
وفي هذه المدينة ، في هذه الفترة ، وضع كتابه « طوق الحمامة » ،
كما أشار إليها غير مرة في هذا الكتاب ، فهو يقول في مقدمته :
« ... فإن كتابك وردني من مدينة المرية إلى مسكني بحضرة شاطبة » .
كما يقول في موضع آخر ، في سياق الحديث عن رجل يعرفه ، من أبناء
الكتاب ، كان كثير التصاون : « فأول خبر طراً على بعد إجماع شاطبة ،
أنه خلع عذاره ... الخ » ^(١) ، ويذكرها كذلك في موضع ثالث منه ،
فيقول : « ولعهدى بصديق لي داره المرية ، فعنت له حوائج إلى شاطبة
فقصدها ، وكان نازلاً بها في منزلي مدة إقامته بها » ^(٢)

أما تاريخ وضع الكتاب فنستطيع أن نجد الإشارة إليه أو الدليل
عليه في غير موضع منه أيضاً . ففي هذا النص الأخير نجده يشير إلى ما كان
بين مجاهد ، صاحب الجزائر الشرقية ، وخيران صاحب المرية ، من منابذة
ومحاربة ، فهو يقول عن صديقه هذا : « ... وكان له بالمرية علاقة هي
أكبر همه ، وأدهى غمه ، وكان يؤمل تبتيته وفراغ أسبابه ، وأن يوشك
الرجعة ويسرع الأوبة ، فلم يكن إلا حين لطيف بعد احتلاله عندي ، حتى
جيش الموفق ، أبو الحسن مجاهد صاحب الجزائر ، الجيوش ، وقرب
العساكر ، ونابد خيران صاحب المرية ، وعزم على استئصاله ، فانقطعت
الطرق بسبب هذه الحرب ، وتحوميت السبل ، واحترس البحر بالأساطيل » .

(١) ص ٢٧

(٢) ص ٨٢

وإذن فإنما كتب ابن حزم كتابه طوق الحمامة بعد هذه الخصومة العنيفة التي فرقت بين الرجلين ، وشبت بينهما نار الحرب على هذه الصورة التي نراها هنا . وقد كان ذلك في شهر ربيع الثاني ، سنة ٤١٧

وهناك إشارة أخرى تجعل هذا الكتاب قبل سنة ٤٣٠ ، وهي السنة التي مات فيها ، أو في نحوها ، الحكم بن المنذر بن سعيد ، كما يذكر ذلك ابن بشكوال^(١) ، فقد أشار إليه ابن حزم في سياق بعض الأخبار بقوله : « وحكم المذكور في الحياة ، في حين كتابتي إليك بهذه الرسالة قد كفَّ بصره ، وأسن جداً »^(٢)

على أن هناك إشارة ثالثة تقصر هذا المدى شيئاً ، وهي تقع في سياق قصيدته التي أوردنا بعض أبياتها منذ قليل ، في مدح هشام بن محمد . وقد رأينا هناك ، من أجل هذه الإشارة ، أنها ترجع إلى ما قبل خلافته ، فكذلك يجب أن يكون الأمر في هذا الكتاب الذي أورد فيه هذه الأبيات وتلك الإشارة . وإذن فقد وضعه قبل شهر ربيع الثاني ، سنة ٤١٨ ، وهو تاريخ مبايعة هشام خليفة ، وتلقيه بأمر المؤمنين المعتد بالله .

وهكذا نستطيع القول بأن ابن حزم كتب « طوق الحمامة » ، في الفترة التي تقع بين ربيع الثاني سنة ٤١٧ ، وربيع الثاني من السنة التي تليها ، ٤١٨

وكتاب « طوق الحمامة » هذا هو كتاب أو « رسالة في صفة الحب

(١) الصلاة ، ص ١٤٩

(٢) ص ٤٢

ومعانيه وأسبابه وأعراضه ، وما يقع فيه وله ، على سبيل الحقيقة ^(١) ، على حد تعبيره عنه في مقدمته . وليس مما تحتمله هذه السيرة أن نتحدث عن هذا الكتاب الفذ ، تعريفاً به ، وتحليلاً له ، وتبييناً لأصوله ؛ فذلك أجدر أن يكون في بحث خاص به ، أو دراسة مقصورة على منهج الرجل العلمي أو أسلوبه الأدبي ، ومدى مشاركته في تطور العقل الإسلامي . أما ونحن إنما نجلو صورة حياته ، بتتبع سيرته وتعرف الملابس المؤثرة فيها أو الكاشفة لها ، فليس يعنيننا من هذا الكتاب إلا ما يكشف لنا هذه الناحية ، ويلقي الضوء على هذه الفترة التي أمضاها في مدينة شاطبة ، تاركاً مرة أخرى وطنه ومسارح صباه وملاعب شبابه ومجمع ذكرياته

وإذن فما هي الملابس التي لابسته في الاتجاه إلى هذا الكتاب وتأليفه ؟ يقول هو في مقدمته ، موجهاً الحديث إلى صديق قديم ، كان يسكن مدينة المرية : « . . . فإن كتابك وردني من مدينة المرية ، إلى مسكني بحضرة شاطبة ، تذكر من حسن حالك ما يسرني . . . ثم لم ألبث أن اطلع على شخصك ، وقصدتني بنفسك ، على بعد الشقة ، وتنأى الديار وشحط المزار ، وطول المسافة ، وغول الطريق ؛ وفي دون هذا ما سلى المشتاق ونسى الذاكر إلا من تمسك بحبل الوفاء مثلك ، ورعى سالف الأذمة ووکید المودات وحق النشأة ومحبة الصبي ، وكانت مودته لله تعالى . . . وكانت مغازيك في كتابك زائدة على ما عهدته في سائر كتبك ؛ ثم كشفت لي بإقبالك غرضك ، وأطلعني على مذهبك ، سجية لم تزل علينا من مشاركتك

لى فى حلوك ومرك ، وسرك وجهرك . . . وكلفتني — أعزك الله — أن
أصنف لك رسالة فى صفة الحب وممانيه وأسبابه وأعراضه وما يقع فيه وله
على سبيل الحقيقة ، لامتزيذا ولا مفتتاً ، لكن مورداً لما يحضرني على
وجهه ، وبحسب وقوعه ؛ فبادرت إلى مرغوبك «

فقد كتب ابن حزم إذن كتابه هذا استجابة لصديقه كما يقول . وإن
كان من الممكن أن يقال إن هذا الذى قدم به كتابه ليس إلا أسلوباً من
الأساليب التقليدية فى تقديم الكتب ، وإن الأولى بنا أن نفعل مثل هذه
الأشكال التى جرى عليها المؤلفون ، ونمضى إلى ما وراءها ، فى تعرف
الخوافز الحقيقية التى تثير فى نفوسهم الرغبة نحو كتابة هذا الكتاب
أو ذاك .

ومهما يكن من أمر ، فسواء صح أن كتاب طوق الحمامة صدر عن
استجابة ابن حزم لرغبة هذا الصديق أم لم يصح ، فالذى لا ريب فيه عندنا
أنه لا بد من الحافز النفسى ، ولا بد لهذا الحافز النفسى من الملبسات التى
تملك أن تثيره وتبعثه من مكانه . فإذا صح أن صديقه هذا اقترح عليه ،
وليس ما يمنع منه ، فقد صادف إذن اقتراحه هوى فى نفسه . وصديقه هذا
— كما يقول — صديق قديم ، شاركه « حق النشأة ، ومحبة الصبي » ،
فهما يشتركان إذن فى ذكريات عهد النضارة ، أو فى ذلك الكنز الذهبى
الذى يدخره الإنسان فى خياله ، يرجع إليه ، ويمتخ منه ، ويسعد به فى
أيام الجذب والجفاف وقسوة الحياة

ولا ريب أن ابن حزم كان يعانى ، فى هذه الفترة من حياته ، محنة

نفسية قاسية ، أشعرتة بمعنى الغربة ، مطبقة عليه من كل جانب بوحشتها
وكآبتها وظلامها . لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يترك فيها قرطبة ،
موطنه ومهوى قلبه ، ولكنه — فيما يبدو — لم يحس قبل كما يحس الآن
أنه يفارقها إلى غير رجعة ، وبغير أمل في معاودتها . وإن كان خرج منها
يحف به ذلك الأمل في استحياء الخلافة الأموية ، ولكنه — بعد كل
تلك التجارب — أمل تعبث به هذه الحقائق الصارخة التي تتجاوب بها
قرطبة والأندلس جميعاً ، فهو أمل ضعيف خافت مضطرب ، لا يكشف ظلمة
ولا يدفع وحشة ، ولا يجلب عزاء

وهكذا كان إحساسه بالغربة هذه المرة إحساساً قوياً غامراً عميقاً .
ولقد كانت عناصر هذا الإحساس قديمة ، خلقها في نفسه ظروف حياته التي
أسلفنا تصويرها ، فقد تجمعت الآن هذه العناصر ونمت وتشعبت وأظلت نفسه
وتغلغلت في طواياها ، فإذا هو منفرد متوحد متوحش ، يعيش في نفسه ، فيما
يدرس ويقرأ ويتأمل ، فإذا أحس فيما بين ذلك الحاجة إلى الاسترواح ، فانصرف
عن هذا اللون من العيش ، فإما ينصرف إلى هذه الصور الجميلة الحبيبة
العزيزة التي حفلت بها نفسه ، عن أيام صباه ، وعهود شبابه ، يحول بينها
ويلذها ، ويستمتع بها ، ويستغرق في تأملها واجتلاء مفاتها . وعن هذه
الحالة النفسية الطبيعية صدر — فيما نرى — كتاب طوق الحمامة

فهو إذا كان — في ظاهر الأمر — استجابة لرغبة صديقه ، فهو — في
حقيقة الرأي — استجابة لنزعة التعبير عن تلك الحالة ، إذ مضى في كتابه
هذا يسترجع صور تلك الحياة الماضية ويتأملها ويسجلها ويدون مشاعره

إزاءها . وقد رأينا مكان الحب في حياة ابن حزم ، ومبلغ ما كان له من أثر في توجيه هذه الحياة وتلويينها .

ومن ذلك كان طوق الحمامة ، في حديثه عن الحب ، لا يعرض لأخباره المأثورة ، أو آثاره المروية المحفوظة ، مما تقدم به الزمان ، أو يختلف فيه المكان ، كما يقول هو في مقدمته : « ودعني من أخبار الأعراب والمتقدمين ، فسبيلهم غير سبيلنا ، وقد كثرت الأخبار عنهم ، وما مذهبي أن أنضى مطية سواي ، أو أنحلي بحلي مستعار » ، إذ كان حافزه إلى هذا الكتاب هو تلك الحالة النفسية التي رأيناها ، والاندفاع الطبيعي إلى مقاومة تلك الأزمة ، والخروج من تلك الغربة ، والتحرر من هذه الغاشية المطبقة ولعل ذلك صادف بعد موافقة لما نعرفه فيه من اعتداد بالنفس ، تظهر في هذه العبارة نغمته ، أو تعصب لموطنه

ولسنا نعدم في كتابه هذا ما يعبر عن هذه الحالة النفسية التي كان يعانها تعبيراً صادقاً قوياً ، كالذي نجده في هذه الكلمات الحارة الدافقة ، التي يوردها في سياق بعض كلامه فيه ، إذ يقول : « . . . وما انتفعت بعيش ، ولا فارقني الإطراق والانغلاق ، مذ ذقت طعم فراق الأحبة ، وإنه لشجى يعتادني ، وولوع هم ما ينفك يطرقني . ولقد نغص تذكري ما مضى كل عيش أستأنفه ، وإني لقتيل المموم في عداد الأحياء ، ودفين الأسي بين أهل الدنيا ، والله الحمود على كل حال ، لا إله إلا هو » ^(١)

أراد ابن حزم إذن أن يسترد حياته تلك في قرطبة ، على النحو الذي يستطيع

أن يملكه ويحققه ، فكان له ذلك على هذا الأسلوب ، وكان كتاب « طوق الحمامة » ، فهو إذا شئنا كان صورة من حياته تلك في قرطبة ، وإذا شئنا كان صورة من تلك الحالة النفسية التي استبدت به بعد خروجه منها ، وما يداخلها من يأس ممض . وإذا كان هو — بعد أن رأى كتابه هذا ماثلا بين يديه — أخذ يعجب من أنه استطاع أن يذكر حياته الماضية ، مع هذه الحال التي يعانيتها ، فيقول في آخر الكتاب : « والكلام في مثل هذا إنما هو مع خلاء الذرع ، وفراغ القلب . وإن حفظ شيء وبقاء رسم وتذكر فائت لمثل خاطري ، لعجب ، على ما مضى وذهني . فأنت تعلم أن ذهني متقلب ، وبالي متهضم ، بما نحن فيه من نبوء الديار ، والجلاء عن الأوطان ، وتغير الزمان ، ونكبات السلطان ، وتغير الإخوان ، وفساد الأحوال ، وتبدل الأيام ، وذهاب الوفر ، والخروج عن الطارف والتالد ، واقتطاع مكاسب الآباء والأجداد ، والغربة في البلاد ، وذهاب المال والجاء ، والفسكر في صيانة الأهل والولد ، واليأس من الرجوع إلى موضع الأهل ، ومدافعة الدهر ، وانتظار الأقدار ، ولا جعلنا الله من الشاكين إلا إليه ، وأعادنا إلى أفضل ما عودنا ، وإن الذي أبقى لأكثر مما أخذ... »^(١)

إذا كان ابن حزم يرى من العجيب أن يستطيع تذكر ذلك الفائت واسترداد تلك الرسوم ، مع هذه الحال التي أجمل صفحتها ، والتي تصور مشاعره أدق تصوير ، فإننا لنرى أن هذه الحالة نفسها هي التي أتاحت له ذلك الكتاب ؛ بل إن العجيب عندنا حقا هو أنه كان يملك إخراج مثل

كتابه هذا ، دون أن يكون قد تعرض لمثل ما تعرض له من تلك الحنة
النفسية القاسية ، وتلك الغربة الروحية الشديدة ، وذلك اليأس « من
الرجوع إلى موضع الأهل » كما يقول

وأما بعد ، فهذا هو كتاب « طوق الحمامة » ، من حيث الملاحظات
التي لا يسته ، ومن حيث كونه يؤرخ مرحلة من مراحل هذه الحياة العجيبة
المضطربة ، فيجلوها ويضيء بعض جوانبها ، ويكشف لنا عن بعض ما كان
يداخلها ، مما هو نتيجة من نتائج المراحل السابقة ، وأثر من آثارها ، ومما
قد يكون مدرجة لما يتلوها ، ومهيئاً لما يجيء بعدها ، أما ما عدا ذلك من
الكتاب نفسه ، فليس من شأن هذه الرسالة ، ولا هو مما تحتمله

وإذا كان ابن حزم يذكر « اليأس » في غير موضع من كتابه ، كما
رأينا في ذلك النص الذي أوردنا ، وكما في هذه الأبيات التي جعلها
خاتمة لكتابه :

جعلت اليأس لي حصناً ودرعا فلم ألبس ثياب المهتضام
وأكثر من جميع الناس عندي يسير صانتي دون الأنام
إذا ما صح لي ديني وعرضي فلست لما تولى ذا اهتمام

فإن الأمل لم يبلغ - فيما يبدو - غايته ، فإن هذا الظلام الموحش
كان ما تزال تشقه ، بين حين وآخر ، خاطفة برق تجيء من ناحية البونت ،
حيث كان يقيم هشام بن محمد ، معقد أمل الأمويين ، قتهفو نفسه ، وتشير
قليلاً مما خبا من أمله ، وتراوده أن يمضي إليه ، ويخلص من هذا الظلام

الذي يحتوشه ويطبق عليه . ولكن ذلك الأمل ما يلبث أن يتبدد ، على
النحو الذي رأينا . وبذلك نفرض يديه من تلك الآمال السياسية التي
كانت ما تزال تراوده وتتبرج له ، وتفريه على أن يخرج من برجه العاجي ،
كما يقولون الآن ، بعد أن انتهت عنده هذه المحاولة الأخيرة لاستحياء
الخلافة الأموية إلى الفشل ، وإن كانت لم تبلغ غايتها الصريحة التي انتهت
إليها بعد ، سنة ٤٢٢ (١)

(١) يرد اسم « ابن حزم » بين من كانوا مع زهير الفتي في حربه مع باديس
ابن حبوس . سنة ٤٢٩ : « وعف باديس عن دماء حملة الأقلام دونه ، إلا من أصيب
منهم في الحرب . وأطلق ابن حزم والباقي وغيرهما » (ابن عذاري ٣ : ١٧١) .
ولكن ابن حزم هذا هو - فيما نعتقد - أبو المغيرة ابن حزم ، لا أبو محمد صاحبنا

هكذا انتهى العهد الأموي في نفس ابن حزم بآماله وأحلامه إلى غير رجعة ، وانتهى بذلك أيضاً نشاطه السياسي ؛ وكانت هذه المحاولة الأخيرة الفاشلة هي الحد الفاصل بين عهدين في تاريخ الرجل ، وبداية العهد الذي خلص فيه للعالم والدين والكفاح العالمي والمذهبي ، دون أن يخالطه شوب من اعتبار سياسي ، أو قصد إلى مجد دنيوي ، إذ لم يعد هنالك مكان للأمل في استحياء الرفات الرميم . وحسبه هذه التجارب الثلاث التي شارك فيها ، إلى جانب المرتضى أولاً ، ثم إلى جانب المستظهر ثانياً ، ثم إلى جانب ذلك الخليفة التعيس المعتد ، أخيراً ، وقد تبين أن استخلافه إنما كان مهزلة منطوية على مأساة ، أو مأساة منطوية على مهزلة . كذلك لم يكن هنالك موضع في نفس ابن حزم يأذن له أن يشارك في سياسة دولة غير تلك الدولة التي نصب نفسه داعية لها ، إذ كان إنما يحمله على مناصرتها والدعوة لها إيمان عميق بفضل الأمويين ، تعرض بسببه لكثير من ألوان الأذى ، ووفاء مطلق كان أغلب الصفات عليه ، كما كان هو أحرص على أن يوصف به ، كما يتبين ذلك من تأمل شخصيته ومنهج حياته عامة ، وكما يظهر في غير موضع من كتابه طوق الحمامة ^(١) .

(١) انظر مثلاً ص ٧٨ ، ١١٤

والحق أن شخصية ابن حزم على النحو الذي تبيناه حتى الآن ، وفي تلك الملابس التي لا يستها وتكونت بها ، لم تكن تصلح لمثل هذا الذي أخذ نفسه به من المغامرة في السياسة ، ولكننا غره بها — فيما يبدو — ذكرى مجد سياسي غابر ، وخیال منزلة قديمة ، كانت تهيجه وتبتعثه ، وتراوده مرة ومرة ومرة . وربما كان من الممكن أن يصلح الرجل لشيء من ذلك ، لو أن العصر كان عصر استقرار وطمأنينة ، أما في ذلك الاضطراب الغامر وتلك الفوضى الشاملة لكل شيء ، والملاحقة لكل مبدأ ، فهيهات هيهات .

انتهى إذن هذا الشطر الأول من حياة ابن حزم ، وقد كان كما — رأينا — سلسلة متصلة الحلقات من الحزن والنكبات والتشرد في أنحاء الأندلس شرقها وغربها ، والامتحان بما كانت تنطوي عليه نفوس الناس في ذلك الوقت من غدر وتقلب وعدم مبالاة . وقد كانت حياته في هذه المرحلة صورة من الصراع العنيف الدائب بين ثبات الخلق واضطراب الأهواء ، كما كان تشرده وتعرضه لصنوف الأذى والنكر ، صورة لما تعرضت له قرطبة خاصة والأندلس عامة من شر ومكر .

وانتهى ابن حزم من السياسة وشواغلها ومكايدها وبغتها ، ولكنه لم ينته مع ذلك من التعرض للأذى والاضطراب . فلم يكن الفساد هنالك هو فساد الحياة السياسية وحدها ، وإنما كان فساد الحياة السياسية في الأندلس صورة من الفساد الاجتماعي ، وظاهرة من ظواهره ، وصدى من أصدائه . وإذن فلم يكن اعتزاله السياسة ليعصمه مما تضطرب به الحياة عامة

وإن كان منعه — إلى حد ما — مما تضطرب به بيئات السلطان ، إلا أن يتجنب المجتمع كله ، وهذا مالا سبيل إليه بالنسبة لرجل مثله . لقد كان الرجل في حقيقة الأمر شذوذاً في عصره ، وكان يمثل نزعة المقاومة لذلك الفساد الغالب عليه ، فلا جرم أن استمرت المحادة بينه وبين المجتمع ، كما سنرى فيما تصوره لنا المرحلة التالية من حياته ، ولم يعفه منها اعتزاله السياسة ، وتجنبه السلطان ، وانصرافه إلى حياة العلم والتأمل والمناظرة والمدارسة والتأليف والتصنيف .

لقد حاول ابن حزم أن يصل ماضى أسرته فلم يفلح ، وسيحاول بعد الآن أن تركز إلى الناحية الأخرى من ناحيتيه اللتين ظلتا حتى اليوم تتنازعانه : مجد الدنيا ومجد الآخرة . ولكن ذلك لن يبلغ ما لعله كان يتشرف إليه ويعمل النفس به ، من هددوه النفس وسكون القلب . ومرجع ذلك كله إلى تكوين شخصيته أولاً ، ثم إلى طبيعة العصر ثانياً ، تلك الطبيعة التي تبتد لنا من خلال هذه الدراسة . ولأبى المغيرة ابن حزم ، ابن عم صاحبنا كلمة تعبر عن هذه الطبيعة خير تعبير . وهى قوله : « والعقل من حمله كل بلد ، ونفق عند كل أحد ، وأعقل منه من عرف الناس ولم يعرفوه ، فاستراح من أجنبي متكلف ، وأقرب غير منصف ، ولم يفتقر إلا إلى ربه ولم يأنس إلا بنور لبه » ^(١) . فالعقل فى هذه الحكمة إما أن يكون وصولياً لا مبدأ له ولا خلق يعصمه ويقف به ، وإما أن

(١) الذخيرة ، القسم الأول — المجلد الأول ، ص ١٢٩

يكون رجلاً ناسكاً اعتزل الناس وهجرهم . ولم يكن ابن حزم ، وما كان
من الممكن أن يكون واحداً من هذين .

قضى ابن حزم هذا الشطر الأخير من حياته مضطرباً في شرق الأندلس
متنقلاً بين هذه الإمارات المختلفة التي تخلفت عن ذلك الملك العريض
الرفيع الشامخ ، حين طاحت به الطوائف ، فتهافت أجزاءه ، وتناثرت
أشلائه ؛ لا يكاد يستقر ببلد حتى يزعمج عنها ، فيمضي يلتمس غيرها ، إلى
أن انتهى أخيراً إلى أشبيلية ، فلبلة ، في غرب الأندلس ، موطن أسرته ،
ومنبت أرومته . وهناك انتهت حياته وغربت شمسها ، وانتهى حيث بدأ
تاريخ هذه الأسرة .

ولن نستطيع متابعة ابن حزم في تجواله بشرق الأندلس، نزل بنزوله
ونرحل برحيله، فذلك مالا تتيحه لنا أخباره المقتضبة، كما لا نجد من
الإشارات في كتبه ما يمكننا من وضع هذا الشطر من حياته في نسق منظم
مطرد. وقد رأيناه في مدينة شاطبة يضع كتابه طوق الحمامة، قبل أن
يستخلف الخليفة المعتد، ولسنا نعرف إلى أين مضى بعد ذلك، وفي أي
بلد كان مقامه، ولكننا نعلم أنه في هذه الفترة أخذ يضع كتابه: « الفصل
في الملل والأهواء والنحل »

وكما استطعنا أن نستخلص من « طوق الحمامة » تاريخ وضعه،
كذلك نجد كتاب الفصل يمدنا ببعض الإشارات الدالة على تاريخه،
في غير موضع منه، ففي أوائله يشير إلى « زماننا هذا الذي هو وقت ولاية
هشام المعتد »^(١)، وبذلك ينبغي أن نضع تاريخه فيما بين سنة ٤١٨
وسنة ٤٢٢. وفي موضع آخر، في الفصل الذي جعل عنوانه: « مطلب
بيان كذب من ادعى لمدة الدنيا عددا معلوما »، يقول في سياق بعض
ما يورده تدليلا على هذا: « وله عليه السلام، منذ بعث، أر بعائة عام
ونيف »^(٢)، ولكن دلالة هذا النص يداخلها الإبهام من ناحية هذا

(١) ١١٦: ١

(٢) ١٠٦: ٢

« النيف » وهو لفظ مبهم . على أن الإبهام يزول بهذا النص الثالث ، إذ يقول في بيان عجز العرب عن معارضة القرآن : « إنما حملهم على ذلك العجز عما كلفهم من ذلك . . . ثم عم الدنيا من البلغاء الذين يتخللون بالسنتهم تخلل الناقه ، ويطيلون في المعنى التافه ، إظهاراً لاقتدارهم على الكلام ، جماعات لا بصائر لهم في دين الإسلام ، منذ أربعمائة عام وعشرين عاماً ، فما منهم أحد يتكلف معارضته إلا افتضح وسقط . . الخ » (١)

فهذا النص يعين عدداً معيناً من السنين ، هو أربعمائة وعشرون . وعندنا أنه يقصد بهذا العدد التاريخ المستعمل ، أي منذ الهجرة ، وإن كان يبدو من سياق القول أن ذلك منذ البعثة ، أي قبل ذلك بثلاثة عشر عاماً . ولكن يمنع ذلك الاعتبار عندنا ما يؤدي إليه من التعارض مع النص الأول القائل بأن الكتاب وضع في أيام المعتد بالله ، وإذن فلا بد لنا من حمل هذا العدد على أنه بيان للتاريخ الهجري ، وبذلك يكون تاريخ وضع كتاب الفصل هو عام ٤٣٠ (٢)

وكتاب الفصل هذا هو كتاب ضخيم ، عرض فيه ابن حزم المذاهب المختلفة ، إسلامية وغير إسلامية ، عرضاً يبين عنها بياناً واضحاً قوياً ، وناقشها فيه مسألة مسألة ، مناقشة تكشف عن قوة شخصيته وكمال استقلاله

(١) ١ : ١٠٦

(٢) هذا التاريخ هو التاريخ الأول لكتاب الفصل ، إذ يبدو أنه كتب غير مرة وفي أكثر من فترة ، ولعل ذلك هو بعض السبب في تسميته له في غير موضع ديواناً ؛ ومن ذلك نراه يذكر في موضع آخر متأخر ، تاريخاً آخر متأخراً عشرين عاماً عن هذا التاريخ ، وذلك حيث يقول في سياق كلامه عن إعجاز القرآن : « وهذا هو الذي جاء به النص ، والذي عجز عنه أهل الأرض منذ أربعمائة وأربعين عاماً » (٣ : ٢١)

كما يكشف عرضها لها من مختلف جهاتها وشتى أجزائها عن علم واسع ،
ومعرفة شاملة ، وبصيرة نافذة ، وذلكاء متوقد . وإنه ليشير في مقدمته إلى
أسلافه الذي ألفوا في هذا الموضوع غير مرتض منهمجهم ، إذ يقول : « أما
بعد ، فإن كثيراً من الناس كتبوا في افتراق الناس في دياناتهم ومقالاتهم
كتباً كثيرة جداً ، فبعض أطال وأسهب وأكثر وهجر ، واستعمل
الأغاليط والشغب ، فكان ذلك شاغلا عن الفهم ، قاطعا دون العلم ، وبعض
حذف وقصر وقلل واختصر ، وأضرب عن كثير من قوى معارضات
أصحاب المقالات ، فكان في ذلك غير منصف لنفسه ، في أن يرضى لها
بالغين في الإبانة ، وظالما لخصمه في أن لم يوفه حق اعتراضه ، وباخساحق
من قرأ كتابه ، إذ لم يغنه عن غيره . وكلهم — الاتحالة القسم — عقد
كلامه تعقيداً يتعذر فهمه على كثير من أهل الفهم ، وحلق على المعاني من
بعد ، حتى صار ينسى آخر كلامه أوله . وأكثر هذا منهم ستائر دون فساد
معانيهم »

فقد قرأ ابن حزم إذن هذه الكتب الكثيرة التي كتبها في المقالات
من قبله ، وتأمل ما فيها وعرف مناهجها ، ولكنها لم تكن كل مصادره
لتأليف كتابه هذا وإنما كانت له مصادره الأولى ، مما يدلنا إلى استقامة منهجه
وسداد أسلوبه ، إلى جانب ما يدلنا عليه من سعة علمه . فهو حين يعرض
المذاهب اليهودية يعرضها مما جاء في التوراة وكتب اليهود ، وحين يعرض
المذاهب المسيحية يعرضها مما جاء في الإنجيل وكتب النصارى الأولين ،

وكذلك شأنه في المذاهب الإسلامية المختلفة ، كذهب الشيعة والخوارج والمعتزلة والمرجئة والأشاعرة . وليس يعنيننا من ذلك — في هذه الرسالة — إلا أن نتمثل شخصية ابن حزم في هذه الفترة من حياته ، كما يؤديها إلينا هذا الكتاب ، فنراها شخصية ناضجة متسعة الأفق متعددة جوانب المعرفة ، جادة فيما تأتي من الأمر .

كما يعنيننا أيضاً ونحن ننظر في هذا الكتاب ، أن نتعرف منه ما كان لابن حزم قبل وضعه له من ألوان نشاطه العلمي ، وفنون حياته العقلية ، مما تمثل فيه ، إما بالإشارة إليه ، وإما بتضمنه فيه

فما أشير إليه فيه كتبه التي جمعها في حدود المنطق ، على حد تعبيره عنها ^(١) . ولعل من بين هذه الكتب ما تقع عليه إشارة صاعد الأندلسي فيما نقل عنه ياقوت — إذ يقول : « فعنى بعلم المنطق ، وألف فيه كتاباً سماه كتاب التقريب لحدود المنطق ، بسط فيه القول على تبين طرق المعارف واستعمل فيه مثلاً فقهية ، وجوامع شرعية . وخالف أرسططاليس واضع هذا العلم ، في بعض أصوله ، مخالفة من لم يفهم غرضه ، ولا ارتاض في كتبه ، فكتابه من أجل هذا كثير الغلط ، بين السقط » ^(٢) ، ومثل ذلك ما يقوله ابن حيان فيما ينقل عنه ابن بسام : « وله في بعض تلك الفنون كتب كثيرة غير أنه لم يخل فيها من الغلط والسقط ، لجرأته على التسور على الفنون ، ولا سيما المنطق ، فإنهم زعموا أنه زل هنالك ، وضل في سلوك

(١) ٢٠ : ١

(٢) معجم الأدباء ١٢ : ٢٣٧ — ٢٣٨ (ط . دار المأمون)

تلك المسالك» (١). أما الحميدى ، وهو تلميذ ابن حزم ، فعرض لكتابه هذا فى المنطق بلهجة غير هذه اللهجة ، فقال — كما يروى عنه الضبى : « وكذلك كتاب التقريب لحد المنطق والمدخل إليه ، بالألفاظ العامة ، والأمثلة الفقهية ، فإنه سلك فى بيانه ، وإزالة سوء الظن عنه ، وتكذيب المخرقين به ، طريقة لم يسلكها أحد قبله ، فيما علمنا » (٢) .

فها هو ذا كتاب التقريب لحدود المنطق ، عند خصومه وعند أصحابه . وقد أشار فى موضع آخر من الفصل إلى كتاب له يسميه : « التقريب فى حدود الكلام » ، وذلك فى أول باب من أبواب كتابه هذا ، جعل ترجمته هكذا : « باب مختصر جامع فى ماهية البراهين الجامعة الموصلة إلى معرفة الحق ، فى كل ما اختلف فيه الناس ، وكيفية إقامتها » ، ثم يبدأ هذا الباب بقوله : « هذا باب قد أحكمناه فى كتابنا الموسوم بالتقريب فى حدود الكلام ، وتقصيناه هنالك غاية التقصى ، والحمد لله رب العالمين » (٣) . ومن هذه العبارة التى ترجم للباب بها ، تم مما أورده فيه ، يبدو جلياً ، أن هذا الكتاب إنما هو كتاب فى المنطق ، وأن كلمة المنطق مرادفة عنده فى هذا الموضع لكلمة الكلام ، ثم لا نكاد نشك أنه هو نفسه الكتاب الذى

(١) الذخيرة ، القسم الأول — المجلد الأول ، ص ١٤٠ ، وانظر أيضاً معجم الأدباء ١٢ : ٢٤٧ ، فقد أورد هذا النص بقليل من المخالفة أو التحريف ، رواية عن أبى مروان ابن حيان أيضاً .

× (٢) بغية الملتبس ، ص ٤٠٣ .

(٣) ١ : ٤ ، وانظر أيضاً إشارته إليه فى الفصل الذى عقده عن الخلا (٥ : ٧٠) .

يذكره صاعد والحميدى باسم (التقريب لحدود المنطق) .

ومهما اختلف الرأي في هذا الكتاب ، بل مهما دلت الصفات التي أطلقها عليه خصوم ابن حزم والناقمون عليه ، فإنها تدل على أنه أراد أن يجعل من علم المنطق علماً مطبوعاً بطابعه وشخصيته ، جاريًا مع التفكير العلمى الإسلامى ، غير متعلق بأذيال المنطق الأرسططالى ، وتلك هى شخصية ابن حزم المستقلة التي نعرفها .

ومن هذه الكتب التي تمثل نشاطه التأليفى ، قبل كتاب الفصل ، مما جاءت فيه الإشارة إليه ، رسالة له فى إعجاز القرآن على ما هو رأيه فيه «من أن القرآن خارج عن نوع بلاغة المخلوقين ، وأنه على رتبة قد منع الله جميع الخلق عن أن يأتوا بمثله » وقد أشار إلى هذه الرسالة بقوله : (ولنا فى هذا رسالة مستقصاة ، كتبنا بها إلى أبى عامر ، أحمد بن عبد الملك بن شهيد) ، ثم عقب على ذلك بقوله : «وسند كرمها هنا ، إن شاء الله تعالى ما فيه كفاية ، فى كلامنا مع المعتزلة والأشعرية فى خلق القرآن ، من ديواننا هذا»^(١) وهكذا نرى أن هذه الرسالة ممثلة تمثيلاً كافياً فيما عقده على الكلام فى القرآن ؛ فى الجزء الثالث من الفصل .

وقد أشرنا فى فصل سابق إلى كتابه الذى أسماه : « النصائح المنجية من الفضائح الخزية ، والقبائح المردية ، من أقوال أهل البدع ، من الفرق الأربع ، المعتزلة والمرجئة والخوارج والشيعة » . وقد جاءت الإشارة إلى هذا

(١) ١ : ١٠٧ .

الكتاب في الفصل ، في سياق كلامه عن نحل أهل الإسلام وافتراقهم فيها ، ^(١) ، ثم قال عنه : « ثم أضفناه إلى آخر كلامنا في النحل من كتابنا هذا » .

فإذا تركنا هذه الكتب الكلامية ، وجدناه يشير في غير موضع إلى كتاب أدنى إلى أن يكون من كتب الفلسفة ، وضعه في الرد على « كتاب العلم الإلهي » لمحمد بن زكريا الرازي ، سماه التحقيق ، أشار إليه أولاً في فاتحة كتابه ، عند إجمال الكلام في رموس الفرق المخالفة للإسلام وما يتولد عنها ، إذ يقول : « ومثل ما قد ذهب إليه جماعة من القائلين به وناظرهم عليه ، من القول بأن العالم محدث ، وأن له مدبراً لم يزل ، إلا أن النفس والمكان المطلق — وهو الخلاء — والزمان المطلق ، لم يزل معه . . . وهو قول يؤثر عن محمد بن زكريا الرازي الطبيب . ولنا عليه فيه كتاب مفرد ، في نقض كتابه في ذلك ، وهو المعروف بالعلم الإلهي » ^(٢) ثم يشير إليه مرة أخرى في سياق كلامه عن القدماء الخمسة عند المجوس ^(٣) ثم يشير إليه مرة ثالثة في أثناء الفصل الذي عقده في أواخر كتابه على « الكلام في الجواهر والأعراض وما الجسم وما النفس » ، وقد نص في هذا الموضع على أن اسم كتابه هذا هو : « التحقيق » ، في نقض كتاب محمد بن زكريا الرازي الطبيب ^(٤) .

(١) ١١٦ : ٢ .

(٢) ٣ : ١ .

(٣) ٣٤ : ١ .

(٤) ٧٠ : ٥ .

ومن الكتب التي أشار إليها في الفصل أيضاً كتاب في الفقه ، ذكره في سياق كلامه عن المجوس ، وأنهم أهل كتاب ، فقال : « وقد بينا البراهين الموجبة لصحة هذا القول في كتابنا المسمى الإيصال ، في كتاب الجهاد منه ، وفي كتاب الذبائح منه ، وفي كتاب النكاح منه والحمد لله رب العالمين » ^(١) . وكتاب الإيصال هذا من كتبه الكبيرة . وقد تكلم عنه الضبي ووصف منهجه في أثناء ترجمته لابن حزم ، فقال : (وألف في فقه الحديث كتاباً كبيراً سماه كتاب الإيصال إلى فهم الخصال ، الجامعة لجل شرائع الإسلام ، في الواجب والحلال والحرام ، وسائر الأحكام ، على ما أوجبه القرآن والسنة والإجماع . أورد فيه أقوال الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم من أئمة المسلمين ، في مسائل الفقه ، والحجة لكل طائفة عليها ، والأحاديث الواردة في ذلك من الصحيح والسقيم بالأسانيد ، وبيان ذلك كله ، وتحقيق القول فيه » ^(٢) .

وهكذا نرى من خلال هذا الكتاب مبلغ نشاط ابن حزم في تأليف الكتب ، في شتى نواحي البحث الديني ، قبل هذا الوقت ، كما نرى إلى أي مدى كان الرجل ناضج العقل ، واسع الأفق ، شديد الطموح الأدبي ، مكتمل أسباب الشخصية العلمية الممتازة ، حين أخذ يضع كتابه هذا .

ومما يصوره هذا الكتاب من صور نشاطه العقلي - إلى جانب ما رأينا في ناحية الكتابة والتدوين والتأليف - نشاطه الذي عرضنا له

(١) ١ : ١١٤

^x (٢) بقية المتن ، ص ٤٠٣ .

من قبل ، وتتبعناه منذ بدايته ، في مناظرة خصومه من العلماء وأصحاب
المذاهب وأهل الرأي ، والكتاب نفسه تعبير رائع قوى لقوته في الجدل ،
وبراعته في المناظرة ، وحضور بديهته وسعة حيلته في إلزام الخصم ، وإفحام
المناظر ، وإقناع القارىء ، مما يرجع إلى استعداده العقلى لهذا النوع من
النشاط أولاً ، كما رأينا من قبل ، ثم إلى درجة طويلة ، وارتياض به دائب
متصل ، فالمناظرة نوع من الرياضة العقلية ، لا بد من ممارستها ومعالجتها
وأخذ العقل بفنونها ومذاهبها ، حتى يحسنها ويبرع فيها ، هذا البراعة التي
نراها عند ابن حزم ، ويمثلها لنا كتاب الفصل هذا ، حتى ليستبد العجب
بقارىء هذا الكتاب حين يرى في كل مسألة من المسائل التي يعالجها ، هذه
الحركات العقلية واللفقات البارة والوثبات الرائعة والمداورات المفتنة ، وإذا
يراه يتناول فيها الخصم تناولاً هو مزاج من العنف والبراعة جميعاً ، إذ لم
يعنفه عنف الرجل الذى يلحّ عليه الشعور بالضعف من قرارة نفسه ، فهو
يحاول بما يصطنع منه أن يستره وراء ذلك المظهر ، بل هو عنف الرجل القوى
الركن الواثق من نفسه ، المؤمن بقدرته ، المعتد بشخصيته ، وقد بلغ من
ذلك مبلغ الاستخفاف بخصمه .

فقدوة ابن حزم الجدلية ، كما ترجع إلى قوة عقله ونفوذ بصيرته وسعة
معارفه ، ترجع إلى درجته الطويلة على المناظرة . وقد رأينا فيما صورنا من
حياته حتى الآن كيف كان مقبلاً على هذا النوع من النشاط العقلى ،
مأخوذاً به ، منذ أن كان شاباً غض الإهاب ، لم يتجاوز العشرين من
عمره ، وقد فتنه به ما أتيح له من ظفر ، وما كان يداخل نفسه منه من شعور

بلذة الانتصار على الخصم ، والفلاح في الخصومة . والحق أن كتاب ابن حزم
يمدنا في كثير من فصوله بما يمثل حياته في هذا الميدان تمثيلاً كافياً ، منذ
أن كان يناظر ابن النعريلى ، الكاتب اليهودى ، وهو لا يكتفى بالإشارة
إلى هذه المناظرات وموضوعها ، بل كثيراً ما يعرض أطرافها ، كشأنه فيما
يعرض من نشاطه في ناحية التأليف كما رأينا ، من ذلك مناظرته لمن ذهب
إلى أن النفس غير محدثة ، إذ يقول : « وقد ناظرني قوم من أهل هذا
الرأى ، ورأيتهم كالغالب على ملحدى أهل زماننا ، فالزمتمهم إلزاميات لم
ينفكوا منها ، أظهرت بطلان قولهم ، بعون الله وقوته . ولم نر أحداً ممن
تكلم قبلنا ذكر هذه الفرقة ، فجمعت ما ناظرتهم به ، وأضفت إليه ما وجبت
إضافته إليه ، مما فيه تزييف قولهم » . وقد عقب ذلك بصورة من هذه
المناظرة ^(١) . ومن ذلك أيضاً مناظرته لمن يقر بالخالق ولا يقر بالنبوة ^(٢) ،
إلى غير ذلك مما هو كثير شائع في الكتاب .

فهذا هو كتاب الفصل ، جالونا منه بعض ما يمس موضوع هذه الرسالة
مما هو تصوير لحياة ابن حزم ، وبيان لوجوه نشاطه ، في هذه الفترة وما
قبلها ، وما أكثر ما يزخر به من ذلك .

(١) ٢٥ : ١ ، وما بعدها .

(٢) ٦٥ : ١ — ٦٩ .

وإذا كنا لم نستطع أن نعرف أين كان ابن حزم بعد أن كتب كتابه طوق الحمامة في «شاطبة» وأي بلد من بلاد الأندلس شهد تأليف كتابه «الفصل»، فإننا لا نلبث، على كل حال، أن نراه في تلك المدينة الحصينة التي كان بها الخليفة للمعتد، حين نودى به، قلعة البونت. ولكن بعد أن تركها ذلك الخليفة إلى قرطبة. إذ نجد الإشارة إلى هذه الزيارة في مقدمة رسالته التي وضعها في فضائل علماء الأندلس، حيث يذكر أنه إنما كتبها استجابة لرغبة صاحب البونت، حين كان في حضرته، وذلك إذ يقول: «ثم لما ضمنا المجلس الحافل بأصناف الآداب، والمشهد الأهل بأنواع العلوم والقصر المعمور بأنواع الفضائل، والمنزل المحفوف بكل لطيفة... قراره المجد ومحل السؤدد، ومحط رحال الخائفين، وملقى عصا التسيار، عند الرئيس الأجل، الشريف قديمه وحسبه، الرفيع حديثه ومكتسبه... أبي عبد الله، محمد بن عبد الله بن قاسم، صاحب البونت، أطال الله بقاءه، فرأيت — أعزه الله — حريصاً على أن يجاوب هذا المخاطب... الخ» (١).

وأبو عبد الله، محمد بن عبد الله بن قاسم هذا ولي أمر البونت بعد

(١) نفح الطيب ٢ : ٧٦٧ (ط . بولاق) .

وفاة والده ، عبد الله بن قاسم ، الذي مضت الإشارة إليه ، إذ كان جار الخليفة المعتد ، وكانت وفاته سنة ٤٢١ . وإذن فقد كانت زيارة ابن حزم لقلعة البونت ، في فترة تبدأ من هذا التاريخ . على أننا نستطيع مع هذا أن نحدد هذه الفترة شيئاً من التحديد ، إذا نحن استطعنا أن نعرف التاريخ الذي كتبت فيه الرسالة ، باعتبار أن وجوده في قلعة البونت سابق على هذا التاريخ .

ذلك أن في الرسالة إشارة إلى أشخاص ينص على أنهم لا يزالون أحياء وبعضهم يعين مرحلة الحياة التي يجتازها . فيقول عن أبي غالب ، تمام بن غالب ، المعروف بابن التبانى : « وهو — أظن — في الحياة بعد » ؛ ويقول عن أبي الحسن ، علي بن محمد بن أبي الحسين الكاتب ، صاحب كتاب التشبيهات : « وهو حي بعد » ؛ كما يقول عن أبي مروان ابن حيان ، صاحب التاريخ الكبير في أخبار أهل الأندلس : « وهو في الحياة بعد ، لم يتجاوز الأكتحال » ؛ وعن صديقه وصاحبه أحمد بن عبد الملك بن شهيد : « وهو حي بعد ، لم يبلغ سن الأكتحال » . فمن هذه الإشارات نستطيع أن نضع بعض الحدود الزمنية التي تعين على تحديد زمن كتابته لهذه الرسالة ، مما يصل بنا إلى تعيين فترة زيارته لقلعة البونت

وقد لا تجدنا هذه الإشارة في مثل أبي الحسن ، علي بن محمد بن أبي الحسين ، إذ كان مبلغ ما يقال عنه أنه عاش إلى أيام الفتنة ولا يزيدون^(١) ، كما أن جدواها قليلة جداً في مثل ابن التبانى المتوفى في سنة ٤٣٦ ، إذ تدع

(١) انظر ابن بشكوال والضبي في ترجمتهما له .

المدى واسعا فسيحا بين أول الفترة وآخرها ، ولكن الإشارتين الأخيرتين
الخاصتين بابن حيان وابن شهيد تقعان حيث نريد ، لأنه حدد فيهما سن
كل منهما نوعا من التحديد ، فأولهما لم يتجاوز الاكتمال ، وثانيهما لم
يبلغ هذه المرحلة بعد ، وهى المرحلة التى تقع بين سن الأربعين وسن الخمسين
فإذا علمنا أن ابن حيان ولد سنة ٣٧٧ ، ففترة الاكتمال بالنسبة إليه
تقع بين سنة ٤١٧ ، ٤٢٧ . أى أنه ينبغى أن يكون ابن حزم كتب رسالته
هذه قبل سنة ٤٢٧ . وبعد سنة ٤٢١ . على أن النص الآخر الخاص
بابن شهيد يجعلنا نقارب فى تحديد التاريخ مقارنة أكثر من هذا ، إذ
كان تاريخ ميلاده سنة ٣٨٢ ، وإذا كان يكون بدء فترة اكتماله فى سنة ٢٢ .
فإذا استقام لنا هذا ، ولا شئ فيما نرى يدفعه ، كان تاريخ كتابته هذه الرسالة ،
فى فضائل علماء أهل الأندلس يقع فيما بين عام ٤٢١ ، ٤٢٣
وإذا كان ذلك كذلك ، فقد كانت زيارة ابن حزم لقلعة البونت
بعيد ولاية أبى عبد الله بن قاسم لها .

وكان ابن قاسم هذا ، فيما يبدو من وصف ابن حزم له ، ووصف
مجلسه « الحافل بأصناف الآداب ، الأهل بأنواع العلوم » ، أميراً من
هؤلاء الأمراء الذين يأخذون بتقاليد الإمارة فى ذلك الوقت ، من تشجيع
العلم ، وتقريب العلماء ، والمغالاة بالأدب ، والمنافسة فى اصطناع الأدباء
وأهل الثقافة الرفيعة . ولا ريب فى أن كان لذلك أثره فى اتجاه ابن حزم
إليه ، ونزوله لديه

على أن هناك فى هذه المقدمة ، التى أوردنا فقرات منها ، صفة أخرى

يصف ابن حزم بها أبا عبد الله بن قاسم ، ولا نحسب إلا أنه كان يعنيها ،
وهي أنه « محط رحال الخائفين وملقى عصا التسيار » . فـهل كان يعنى
بذلك معنى عاما في الرجل ، أم كان يقصد إلى شيء يمسّه هو ويحسه بينه
وبينه ؟ وهل كان ينظر إلى هشام المعتد بالله حين لجأ إليه ، واستجار به ،
أم كان يقصد نفسه ؟ والواقع أن حصن البونت كان من الأمكنة القليلة
التي ظلت تتمتع بقدر غير قليل من الهدوء ، في غمرة ذلك الاضطراب
العنيف الذي كانت تموج به الأندلس جميعا ، وحسبنا أن نعلم أن أسرة
ابن قاسم هذه ظلت على إمارة حصن البونت مائة عام ، منذ الفتنة ، إلى عام
خمسائة ، وهي مدة غير قليلة ، تدل على نوع من الاستقرار لا نكاد نجد
له نظيراً في الأندلس في ذلك الوقت . فليس عجيباً إذن أن يمضي ابن حزم
إليها ، يلتمس الروح والهدوء بين جنباتها ، ولا سيما حين يكون صاحبها في
هذه المنزلة التي رأينا من تقريب العلماء وحمايتهم والمنافسة بهم

ويشبه عندنا أن يكون ابن حزم أخذ يستشعر منذ ذلك الوقت
« المطاردة » الذي وسمت حياته في هذا الشطر ، والتي ما زالت به تدفعه
من بلد إلى بلد ، على النحو الذي صورّه ابن حيان بقوله : « . . . وكان
يحمل علمه هذا (يعنى قول أصحاب الظاهر) ، ويجادل من خالفه فيه ، على
استرسال في طباعه ، واستناد إلى العهد الذي أخذّه الله على العلماء من
عباده ، ليبيننه للناس ولا يكتمونه ؛ فلم يك يلفظ صدعه بما عنده بتعريض ،
ولا يزفه بتدريج ، بل يصك به معارضه صك الجندل ، وينشقه متلقيه
إنشاق الخردل ، فينفّر عنه القلوب ، ويوقع بها الندوب ، حتى استهدف

إلى فقهاء وقته ، فتمالأوا على بغضه ، وردوا قوله ، وأجمعوا على تضليله ،
وشنعوا عليه ، وحذروا سلاطينهم من فتنته ، ونهوا عوامهم عن الدنو منه ،
والأخذ عنه ، يقصونه عن قربهم ، ويسيرونه عن بلادهم ، إلى أن انتهوا
به إلى منقطع أثره بترية بلده ... الخ »^(١)

ليس ببعيد عندنا أن يكون ابن حزم أخذ منذ ذلك الحين يعاني هذه
« المطاردة » المتصلة ، وأن يكون دخوله حصن البوت ، ونزوله عند صاحبه
ابن قاسم « محط رحال الخائفين وملقى عصا التسيار » مظهراً من مظاهر
هذه المطاردة ، وأثراً من آثارها ؛ فوجد لديه الروح والطمانينة والنزوع
العلمي ، وقد حفزه إلى كتابة هذه الرسالة التي تؤدي إلينا صورة أخرى
مجتمعة من سعة اطلاعه ، فهي سجل حافل بمظاهر النشاط العلمي والأدبي
في الأندلس ، مما رآه وقرأه وتمعن فيه ، حتى يستطيع أن يحكم عليه عن
بصيرة ، كما فعل فيما أورد من ذلك ، ولم يورد إلا « التأليف المستحقة
للذكر » على حد تعبيره ، « وأما التأليف المقصرة عن مراتب غيرها ، فلم
نلتفت إلى ذكرها ، وهي عندنا ، من تأليف أهل بلدنا ، أكثر من أن
نحيط بعلمها » . أما ما لا يدخل في علمه ، ولا يملك الحكم عليه ، فإنه لا يتردد
في المصارحة بذلك ، ناقلآ آراء غيره ، كما فعل حين وصل إلى علم العدد
والهندسة ، إذ يقول : « وأما العدد والهندسة فلم يقسم لنا في هذا العلم نفاذ ،
ولا تحققنا به ، فلسنا نشق بأنفسنا في تمييز الحسن من المقصر في المؤلفين

(١) الذخيرة . القسم الأول — المجلد الأول ، ص ١٤١ .

فيه ، من أهل بلدنا ، إلا أنى سمعت من أثق بدينه وعقله ، من أهل العلم ،
ممن اتفق على رسوخه فيه يقول ... الخ) ^(١)

ولم تخل هذه الرسالة من أصداء الحالة النفسية التي كان ابن حزم يعانيها ،
تتردد فيها بقوة وصدق لهجة ، فلا تكاد تعرض فيها المناسبة ، حتى نراه
مندفعا يعبر عن الألم الجاثم على قلبه ، والمرارة المستبدة بنفسه ، إذ يقول :
« وأما جهتنا فالحكم في ذلك ما جرى به المثل السائر : أزهد الناس في
عالم أهله . وقرأت في الإنجيل أن عيسى عليه السلام قال : لا يفقد النبي
حرمة إلا في بلده . . . ولا سيما أندلسنا ، فإنها خصت من حسد أهلها
للعالم الظاهر فيهم الماهر منهم ، واستقلالهم كثير ما يأتي به ، واستهجانهم
حسناته ، وتتبعهم سقطاته وعثراته ، وأكثر ذلك مدة حياته ، بأضعاف
ما في سائر البلاد ، إن أجاد قالوا : سارق مغير ، ومنتهل مدح ؛ وإن توسط
قالوا : غث بارد ، وضعيف ساقط ؛ وإن باكر الحيازة لقصب السبق قالوا :
متى كان هذا ؟ ومتى تعلم ؟ وفي أى زمان قرأ ؟ ولأمة الهبل ! . وبعد ذلك إن
ولجت به الأقدار أحد طريقين : إما شغوفادأما بغلبه على نظرائه ، أو سلوكا
في غير السبيل التي عهدوها ، فهناك حمى الوطيس على البائس ، وصار غرضا
للأقوال ، وهدفا للمطالب ، ونصباً للتسبب إليه ، ونهباً للألسنة ، وعرضة للتطرق
إلى عرضه ، وربما نحل ما لم يقل وطوق ما لم يتقلد ، وألحق به ما لم يفه به ،
ولا اعتقده قلبه . وبالخرأ وهو السابق المبرز — إن لم يتعلق من السلطان
بخط — ألا يسلم من المتالف ، وينجو من المخاوف . فإن تعرض لتأليف

(١) نفح الطيب ٢ : ٧٧٤ (ط بولاق) .

غمر ولمز ، وتعرض وهمز ، واشتط عليه ، وعظم يسير خطئه ، واستشنع هين
سقطه ، وذهبت محاسنه ، وسترت فضائله ، وهتف ونودي بما أغفل . . .
ولا يتخلص من هذه النصب إلا الناهض الفأث ، والمطفف المستولى
على الأمد (١) .

إن هذه العبارات ، وإن يكن كأنما يقولها في الحكم على قضية عامة ،
تعبّر كل واحدة منها تعبيراً مريراً عن نفس موجعة ، وتكشف عن حالته
خاصة ، وتصور ما يحس به إزاء هؤلاء الذين ما يزالون به يقذفونه ويتعقبونه
يطاردونه ، حتى كادت تضيق به الأندلس على سعتها ورحبها .

ومثل هذا الذي نراه في هذه الكلمات من مشاعر موجعة ساخطة ،
نراه في قصيدة خاطب بها قاضي الجماعة بقرطبة ، عبد الرحمن بن بشر ،
وقد عبر فيها عما يغمر نفسه من مرارة ، وما يبهظها من برم بهذه الحياة التي
يحياها ، وما يسيطر عليه من نزوع إلى الخروج من هذه البلاد التي تكفره
وتجحد علمه ، وتحاول بكل ما تملك أن تطمس فضله ، كما يجحد الأنبياء في
أوطانهم ، ويفقدون كراماتهم في بلادهم وبين أهليهم . وإنه — وهو
الأندلسي الصميم المتعصب لأندلسيته — ليتخيل نفسه ، وقد هاجر من
هذه البلاد ، ومضى إلى العراق ، فلم يلبث أن أخذ هؤلاء الذي يضيقون
به اليوم ويطاردونه ، يتطلعون إليه ، ويتأسفون لبعده عنهم ، وحرمانهم
أن ينهلوا من بحره ، ويتشوفون لأخباره ورسائله تروى غليلهم ؛ وكأنما كان
يجد في هذا التخيل متاعاً لنفسه المكروبة وقلبه المجمع .

(١) نفح الطيب ، ٢ : ٧٧٠ — ٧٧١ (ط بولاق) .

وها هي ذى القصيدة التي تعبر عن هذه الأحاسيس ، كما تعبر
عن شعور بالفخر يملأ نفسه ، وليس في حقيقة الأمر إلا النتيجة الطبيعية
لما يعانيه من إنكار وجوده واهتضام حق :

أنا الشمس في جو العلوم منيرة ولكن عيبي أن مطلعى الغرب
ولو أننى من جانب الشرق طالع لجد على ماضع من ذكرى النهب
ولى نحو أكناف العراق صباية

ولا غرو أن يستوحش الكاف الصب

فإن ينزل الرحمن رحلى بينهم	فحينئذ يبدو التأسف والكرب
فكم قائل : أغفلته وهو حاضر	وأطلب ما عنه تجيء به الكتب ؟
هنالك يدري أن للبعد غصة	وأن كساد العلم آفته القرب
فواعجبا ! من غاب عنهم تشوفوا	له ودنو المرء من دارهم ذنب
وإن مكانا ضاق عني لضيق	على أنه فسح مهامه سهب
وإن رجالا ضيعوني لضيع	وإن زمانا لم أنل خصبه جذب
ولكن لى فى يوسف خير أسوة	وليس على من بالنبي اثتسى ذنب

يقول — وقال الحق والصدق — إننى

حفيظ عليم ، ما على صادق عتب (١)

وهكذا نرى كيف التقى الشعر والنثر في التعبير عن تلك الحالة النفسية

(١) الذخيرة . القسم الأول — المجلد الأول ، ص ١٤٥ — ١٤٦ وانظر تفج
الطيب ١ : ٣٦٦ (ط بولاق) . وقد أورد الضبي (ص ٣٤٧) بلبتين منها فى مدح
قاضي الجماعة .

التي جعل ابن حزم يعانيتها في ذلك الوقت . إنه لون جديد من ألوان ذلك
الإحساس بالغربة الذي رأيناه قبل اليوم

وعندنا أن هذا الشعر الذي يساير ذلك النثر في التعبير عن تلك
الأزمة ، قيل في ذلك الوقت أيضا أو قبله بقليل ، فقاضي الجماعة ،
عبد الرحمن بن بشر ، الذي وجه إليه بهذه القصيدة ، مات ، كما ينص على
ذلك ابن بشكوال ، في سنة ٤٣٢^(١) . وكان قفيها أدبيا قوى الخلق وثيق
النفس ، ولي القضاء فترة طويلة ، منذ العهد الحودى الأول بقرطبة إلى عهد
المعتد ؛ وكان هو الذي عزله . وقد كان له في نفس ابن حزم منزلة كبيرة ،
يدل عليها توجيهره إليه بهذه القصيدة ، ويعبر عنها هذان البيتان اللذان
أوردهما الضبي :

ولو أنى خاطبت في الناس جاها
لقل دعاو لا يقوم لها صلب
ولكننى خاطبت أعلم من مشى
ومن كل علم فهو فيه لنا حسب

(١) الصلاة ، ص ٣٣١ ، وانظر عن القاضي عبد الرحمن بن بشر أيضا ما جاء عنه
في تاريخ قضاة الأندلس للنباهي ، ص ٨٩ .

وبعد ، فهذه صورة من مشاعر القلق والألم والضيق التي كانت تداخل
نفس ابن حزم ، بعد أن تخلّى عن السياسة ، وانصرف انصرافاً تاماً إلى
حياة العلم والدرس . فلا عجب أن يتخذ هذا القلق الداخلي مظهراً خارجياً
فيكثر اضطرابه بين البلاد ، سواء كان ذلك نتيجة للمطاردة المسادية أم
المطاردة المعنوية ، فقد أشعره ذلك بالوحشة ، فأخذ ينتقل بين هذا البلد
وذاك ؛ وكان ذهابه إلى «البونت» مظهراً من مظاهر هذه الحالة ، كما قلنا . وإن
كنا لا نعرف من تنقلاته هذه بشرق الأندلس إلا القليل ، كمضيه إلى تلك
الجهة من جهات الثغور : «البونت» ، وكذهابه بعد إلى «ميورقة» ، كما
سنرى ذلك بعد قليل . ولكن عهد ميورقة يعتبر بالقياس إليه عهد استقرار
ولكنه كان قبل ذلك ما يزال هنا وهنا ، يطارده العلماء والسلطان كما يطارده
قلقه النفسى المسيطر عليه .

وكما كشفت لنا هذه الرسالة التي ما تزال بين أيدينا ، والتي عرفتنا
بذهابه إلى «البونت» ، طرفاً من تلك الأزمة النفسية ، فإنها تعرفنا كذلك
بإحدى هذه الرحلات ، إذ تشير إلى أنه قبل أن يتوجه إلى «البونت» كان
قد مضى إلى صاحبه أبي بكر ، محمد بن إسحاق ، صديقه القديم ، وشريكه
في بعض الحنن التي تعرض لها في صدر شبابه ، فقد كان زميله في سجن

المرية حين اتهمهما خيران بالدعوة للأموية ، وكان رفيقه في السفر إلى حصن القصر ، حين أطلق خيران سراحهما ، وفي الالتجاء إلى أبي القاسم عبد الله بن هذيل التجيبي ، وفي الإقامة لديه إقامة امتدت عدة أشهر ، يرتقبان الفرج ويؤملان الدول ، وفي مآله حين وقفا على ساحل البحر يودعان صديقيهما أبا عامر ، وهو راحل إلى المشرق .

ولا نكاد نعرف من شأن أبي بكر هذا - فيما عدا هذه العلاقة - أكثر مما يذكره عنه الضبي ، إذ يقول : « محمد بن إسحاق المهلبى ، أبو بكر الإسحاقى ، من أهل الأدب والفضائل . وهو الذى خاطبه أبو محمد ، على ابن أحمد برسالته فى فضل الأندلس » ^(١) ، ولكن حسبنا ما نعرف من هذه العلاقة ، وهذه الصداقة الوثيقة التى تحفل بطائفة من أعز الذكريات كانت ولا ريب مما أثار ابن حزم إلى زيارته .

ويعرض لنا ابن حزم صورة من زورته هذه فى صدر تلك الرسالة ، إذ يقول : « أما بعد ، يا أخى أبا بكر . سلام عليك سلام أخ مشوق ، طالت بينه وبينك الأميال والفراسخ ، وكثرت الأيام والليالى ، ثم لقيك فى حال سفر ونقلة ، ووادك فى خلال جولة ورحلة ، فلم يقض من محاورتك أربا ، ولا بلغ فى مجاورتك مطلباً . وإنى لما احتلت بك ، وجالت يدي فى مكنون كتبك ، ومضمون دواوينك ، لحمت عينى فى تضاعيفها درجا ، فتأملت ، فإذا فيه كتاب لبعض الكتاب ، من مصاقبيننا فى الدار ، أهل أفريقية ... الخ » ^(٢)

(١) بغية الملتبس . ص ٥٠ .

(٢) نفح الطيب ٣ : ٧٦٧ (ط . بولاق) .

فالذي يبدو من هذا أن ابن حزم قصد صاحبه أبا بكر في موطنه ، على شوق إليه ، وحنين إلى رؤيته ، والتماس للروح في جواره ، ولكنه صادفه عرتحلا ، فلم يحل ذلك بينه وبين أن يحل في بيته ، ويقضى بعضاً من وقته في مكتبته ، يجيل فيها عينه ويده وعقله . ثم لا نعرف بعد ذلك شيئاً عن هذه الزيارة ، واسكنها — على كل حال — مثل لما كان يلبس حياة ابن حزم ويسيطر عليها من قلق واضطراب .

وقد ذكر ابن حيان في النص الذي أوردناه عنه في هذا ، أن اصطناع ابن حزم للمذهب الظاهري ، ومعارضته فقهاء وقته كان إلى جانب جهله بسياسة العلم — هو الذي جعلهم ينقمون عليه ويشيرون السلطان ضده . وقد ذكر بعد ذلك سبباً آخر في اضطهاده ومناوئته ، وهو أمويته ، قال : « وكان مما يزيد في شنائنه تشييعه لأمرأى بنى أمية ، ماضيهم وباقيهم ، بالشرق والأندلس ، واعتقاده صحة إمامتهم ، وانحرافه عن سواهم من قریش ، حتى نسب إلى النصب لغيرهم » ^(١) . وهذا جهل بسياسة العصر أخطر من الجهل بسياسة العلم . لقد انصرف ابن حزم عن السياسة وممارستها ، ولكن بقي مذهبه السياسي عقيدة نظرية ، كأنها جزء من مجموعة آرائه الكلامية التي يدافع عنها وينظر فيها . وهكذا اجتمع عليه الجهل بسياسة العلم والجهل بسياسة العصر ، ومتى اجتمعا معاً فقد جمعا حوله كل أسباب النفرة ، ووسماه عند الناس — ولا سيما في ذلك العصر الفاسد المضطرب

(١) الذخيرة . القسم الأول — المجلد الأول ، ص ١٤٢ .

— بكل سمات الشذوذ ، وعرضه لكل صور القلق والوحشة والاغتراب
النفسي .

وهكذا ينظر ابن حزم حوله فلا يكاد يجد صديقاً يثق به ، أو صاحباً
يأنس إليه ، وكلما امتد به الزمن تكاثفت حوله الوحشة ، وزاد إحساسه
بالغربة ، وشعر أنه يعيش في جيل غير جيله . وهاهو ذا الموت يحترم كثيراً
من أصدقائه الذين كان يجد في صداقتهم شيئاً من الروح والأنس . فها هو
ذا قاضي الجماعة عبدالرحمن بن بشر يقضى نحبه ، وهاهو ذا رفيق صباه وصديق
شبابه ابن شهيد يموت وهو يناجيه ، كما رأينا من قبل ، إلى غيره وغيره .

وتتمن صلاته القديمة في التصرم ، فها هو ذا ابن عمه أبو المغيرة
عبد الوهاب رفيقه وصديقه ، لا يلبث حتى يكدر عليه ، ويفسد ما بينه
وبينه . لقد وزرا معاً للمستظهر ، ثم كانا معاً في سجن المستكفي ، ثم مضى
كل منهما في سبيله التي خطها له مزاجه وطبيعته . مضى أبو محمد في سبيل
العلم والدين والتأمل والتحنث ، ومضى أبو المغيرة في سبيل المجد الدنيوي
والترف المعنوي والمادی ، فامتزج بملوك العصر ، امتزاج الماء بالخمر ، كما
كما يقول ابن بسام^(١) ؛ فانسعت بينهما الشقة وانفرجت الهوة ، فتناكرا وتنازعا
وتبادلا رسائل السباب وقصائد السخرية . وقد أورد ابن بسام طرفاً منها ،
بعد أن أورد تصوير ابن حيان لهذه الخصومة بقوله : « وشجر الأمر بينه
(يعني أبا المغيرة) وبين الفقيه أبي محمد بن حزم ، ابن عمه ؛ وحدث بينهما

(١) الذخيرة . القسم الأول — المجلد الأول ، ص ١١١ ، ويقول في موضع آخر
(ص ١٥٨) إنه كان وزير منذر بن يحيى صاحب مرقسطة إلى أن قتل .

هنات ظهر عليه فيها أبو المغيرة ، وبكته حتى أسكته ؛ لأنه كان أُنْبه من أبي محمد في حضور شاهده ، وذكاء خاطره ، وحسن هيئته ، وبراعة ظرفه ، وجودة أدبه . وهو كان في زمانه في الجد والهزل صاحب اللواء ، في مجالس الأمراء ، مستنجزاً للبيضاء ، ممتطياً للشقراء ، وتصور في قلوب الرؤساء ، فأجزلوا أرزاقه ، فعظمت صلاته وهباته ^(١) .

ولسنا نعرف كيف شجر بينهما الأمر ، وكيف بدأت الخصومة . لعل أبا محمد أنكر على ابن عمه إسرافه على نفسه في العبث والمجون والتحلل من القيود ، فكتب إليه ناصحاً ، فرد عليه أبو المغيرة ساخراً عابثاً . ونحن نعرف — مما بقي لنا من رسائل أبي المغيرة هذا إليه — إلى أي حد كان سليط اللسان في السخرية ، كثير الافتتان في معاني الهزل والتهكم ، وقد أتيح لنا في فصل سابق أن نرى مثلاً من ذلك ، ولم يكن ابن حزم يملك مجاراته في هذا المنحى ، إنما كان حسبه إذا جاءته من ابن عمه رسالة من هذه الرسائل المفتنة أعجب افتتان في السخرية الموجهة والعبث الشديد ، أن يجيبه بمثل قوله : سمعت وأطعت لقوله تعالى : « وأعرض عن الجاهلين » ، وسألت واثقت لحديثه عليه السلام : « صل من قطعك واعف عن ظالمك » ، ورضيت بقول الحكماء : « كفاك انتصاراً ممن تعرض لأذاك إعراضك عنه » . وأقول :

تبغ سوى امرأ يبتغي سبابك ، إن هواك السباب
فإني أبيت طلاب السفاه وصنت محلي عما يعاب

(١) الذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص ١٦١

وقل ما بدا لك من بعد ذا وأكثرفإن سكوتى جواب (١)

وهكذا فسد ما بينه وبين ابن عمه ، وأنبئت علاقة أخرى من علاقاته
العزيزة ، وانطفأ في قلبه شعاع آخر من هذه الأشعة الآتية من عهد الصبا
والشباب ، لتضىء له تلك افوحشة المطيفة به ، والظلمة المطبقة عليه ، وما
كان أشد حاجته إليها ، فما يغنيه عنها هذه الجماعة من التلاميذ يأخذون
عنه ، ويحيطون به ؛ ولكنهم على كل حال عزأوه ، إلى جانب ما هو
مستيقنه من أنه يبلغ رسالته ، ويؤدي حق الله على العلماء في العلم :
« ليبيننه للناس ولا يكتمونه » ، فلا عليه بعد ذلك أن تجهمت له الدنيا ،
وتنكرت له الأيام .

على أنه كان يجد شيئاً من الروح في هذا الذي كان يلجئه إليه ضغن
العلماء وخوف الأمراء من الاضطراب في الأرض ، والتنقل بين مدن هذه
الناحية من نواحي الأندلس وقراها ، إلى أن رأى نفسه أخيراً في تلك
الجزيرة من مجموعة الجزر الثلاثة الشرقية ، التي تقع بإزاء بلنسية في البحر
الزقافي ، وهي مانسميها اليوم بجزائر الباليار (Iles Baléares) : تلك هي
جزيرة ميورقة .

وميورقة هذه (Majorque) هي أم الجزيرتين الأخيرتين ، كما يقول أبو عبد الله الحميري ، وهما بنتاها ، وإليها مع الأيام خراجها ^(١) . فقد كانت إذن قسبة هذه الجزر الشرقية ، منذ دخلها المسلمون ، وجعلوها بلداً إسلامية ، في سنة ٢٩٠ . وقد أتيح لها من الفتنة التي حدثت في قرطبة والأندلس في نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس ، ما أصبحت به مركزاً من المراكز العلمية المعروفة المقصودة في تلك البلاد

فقد رأينا أنه حين اضطربت قرطبة ، وأخذت الفتنة تنشر فيها الفرع والخوف ، جعل كثير من علماءها يتركونها ، ويفرون بأنفسهم وبعلمهم وبضمايرهم منها ، واتجه الكثير إلى الشرق ، يلتجئون إلى المرية أو بلنسية ، وكان منهم من أبعده ، فجعل البحر بينه وبين موطن الفتنة ومشارها ، فاتخذ هذه الجزيرة موطناً له ، يبيت فيها علمه ، ويقيم بين تلاميذه ، في روح وهدوء وطمأنينة . وبذلك نشطت الحياة العلمية فيها نشاطاً ملحوظاً ، وعرف ذلك عنها ، فكانت من البيئات العلمية المرموقة التي يقصدها أهل العلم ؛ حتى نرى بعض المشاركة يقصدونها ، مثل موسى بن عبد الله بن الحسين

(١) صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٨٨ .

الطالبي ، من أهل الكوفة ، فقد قصدها وأقام فترة من الزمن يقرئ الحديث فيها ، كما يقص علينا ذلك ابن بشكوال^(١)

وكما كان ذلك من أثر الفتنة التي جعلت كثيراً من علماء قرطبة وأدبائها ينفرون عنها ، كذلك كان من أثرها ما رأينا من قيام الإمارات المستقلة في أنحاء الأندلس ، واتخاذ أمراءها مظاهر الملوك ، حتى كانوا يسمون بملوك الطوائف ، واصطناعهم ما عرفوا من تقاليدهم

وكذلك كان شأن مجاهد العامري ، صاحب الجزائر الشرقية ، وقد كان من قبل والياً عليها ، من قبل المنصور ابن أبي عامر ، فلما زالت دولة العامريين ، وكانت الفتنة المبيدة ، استقل بها ، وبدأ في أتم مظاهر سلطانه ، وإن لم يتح له ما أراد وحاوله من مدّ هذا السلطان إلى سردانية . وكان مجاهد هذا من الشخصيات الجديرة بمثل هذه المظاهر ، يصفه ابن عذارى بأنه « كان ذا نباهة ورياسة ، زاد على نظرائه من ملوك طوائف الأندلس بالأبناء البديعة ، منها العلم والمعرفة والأدب . وكان مع ذلك من أهل الشجاعة والتدبير والسياسة » ، ثم يقول : « وكان مجاهد هذا من أهل العفاف والعلم ، فقصده العلماء والفقهاء من المشرق والمغرب . وألفوا له توالييف مفيدة في سائر العلوم ، فأجزل صلاتهم على ذلك بآلاف الدنانير . ومضى على ذلك طول عمره »^(٢)

وهكذا أصبحت ميورقة والجزائر الشرقية مركزاً من المراكز العلمية

(١) الصلاة ، ص ٥٥٤ .

(٢) البيان المغرب ٣ : ١٥٥ — ١٥٦ .

والأدبية في الأندلس ؛ إلى جانب مدينة دانية (Denia) التي اتخذها مجاهد ،
بعد ، مقرأ له ، ولكنه جعل أمر الجزائر الشرقية إلى أحد أصفياه ، وهو
أبو العباس ، أحمد بن رشيق الكاتب ؛ ومما يدلنا على مكانة هذا الرجل أن
الضبي يعتبر تقديم مجاهد له من أعظم مآثره ، إذ يقول : « ومن أعظم
فضائله (أي مجاهد) تقديمه للوزير الكاتب أبي العباس ، أحمد بن رشيق ،
وتنويله عليه ، وبسطه يده في العدل وحسن السياسة » ^(١) . وأحمد بن
رشيق هذا هو الذي رحل ابن حزم إلى ميورقة في عهده ، وظفر فيها
— بفضل — بشيء ملحوظ من الاستقرار والدعة والطمأنينة

وكان أحمد بن رشيق هذا رجلا مثقفا بثقافة عصره ، كريم الخلق ،
سمح النفس ، حازما ، قدمه الأمير الموفق ، أبو الجيش مجاهد بن عبد الله
العامري على كل من في دولته ، لأسباب أكدت له ذلك عنده من المودة
والثقة والنصيحة . فكان ينظر في أمور الجهة التي كان فيها نظر العدل
والسياسة ، ويشغل بالفقه والحديث ، ويجمع العلماء والصالحين ويؤثرهم
ويصلح الأمور جهده . قال الحميدى : « ومارأينا من أهل الرياسة من يجرى
مجرأه ، مع هيبة مفرطة ، وتواضع ، وحلم عرف به ، مع القدرة » ^(٢)

في عهد هذا الوالى الذى أخذ في ولايته ميورقة بتقاليد الملوك والأمراء ،
وتقاليد أميره مجاهد خاصة ، استطاع ابن حزم أن يجد من هذه الجزيرة
موثلا يثل إليه ، ويسكن فيه شيئا من قلقه

(١) بقية الملتصق ، ص ٤٥٩ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٦٧ .

وفي هذه الجزيرة بحج ابن حزم في بسط مذهبه ، وفي الظفر ببعض التلاميذ المعجبين به ، المؤيدين له ، وعلى رأس هؤلاء التلاميذ الحميدي ، أبو عبد الله محمد بن فتوح الأزدي ، وكان من أهل هذه الجزيرة ، وإن يكن قرطبي الأصل . وقد استهواه ابن حزم بقوة حجته وحسن سمته وشدة إخلاصه ، كما وجد ابن حزم فيه تلميذا مقبلا على التحصيل ، متيقظا لما يلقي عليه ، مخلصا له ، حسن الفهم لمذهبه ، فقويت الصلة بينهما . وظل الحميدي متصلا بأستاذه ، إلى أن أزمع كلاهما ترك ميورقة : الحميدي إلى المشرق الذي يهفو إليه قلب كل طالب علم وعالم في الأندلس ، فبدأ رحلته إلى إفريقية ، فمصر ، فالبحار ، فالشام ، فالعراق ، وابن حزم إلى بلاد الأندلس الأخرى ، يضرب فيها ، وينشر علمه ومذهبه بين أهلها . وقد بقي الحميدي على وفائه لأستاذه ، يحدث عنه ، ويعني بتدوين آثاره . وكان من ذلك أن جمع سفره ورتبه على حروف المعجم ^(١)

ولكن صفو الحياة الذي وجدته ابن حزم في ميورقة لم يدم طويلا ، فلم تلبث الأيام أن تنكرت له ، ولم تلبث عوامل الحقد والحسد والبغضاء أن دبّت ديبها ، وعاودت معه صنيعها ، فأزعجته وأثارت الغبار حوله ، ولم تزل تثيره حتى نبا به موضعه فيها . ذلك أنه لم يكن من الطبيعي أن يظل ابن حزم طويلا متمتعا بنعمة الروح والهدوء ، وهو من تعرف حدة مزاج وسلطة لسان ، واعتدادا بالنفس يصل أحيانا إلى حد الشذوذ ، ثم هو الذي يدعو

(١) الذخيرة . القسم الأول — المجلد الأول ، ص ١٤٥ . وانظر الحميدي في الصلة

ص ٥٠٢ ، معجم الأدباء ، ١٨ : ٢٨٢ ، نفح الطيب ١ : ٣٨١ (ط . بولاق) .

إلى مذهب في الدين جديد يخالف جميع ما ألفه الناس واستكانوا إليه
واطمأنوا أجيالا به ، ولم يحك شيء في صدورهم من جهته ، وهو حين يدعو
إليه لا يأخذ في دعوته بشيء من التلطف والترفق أو المجازاة والمسايرة ،
وإنما كان يصك بها معارضه — كما يقول ابن حيان — صك الجندل .
وإذا كان وجد في حاية ابن رشيق ما مكن له من الاستمرار في دعوته ،
وجمع طائفة من التلاميذ حوله ، فلم يكن ذلك ليمنع الأحقاد والضغائن أن
تتسلل إلى النفوس وتتدسس إلى القلوب ، بل لعل ذلك كان مما يزيد لها
ويشيرها . وكذلك كان الأمر ، ولكن هذه الأحقاد والضغائن كان يمسكها
في صدور أصحابها من فقهاء ميورقة ما كانوا يستشعرونه في أعماقهم من
ضالة أمرهم وهوان شأنهم ، وضعفهم عن جداله ومناظرته ، ويأسهم من
إفساد نفس ابن رشيق عليه ، فظالوا يكتمون همهم ويكظمون غيظهم
دون أن يروا أنهم يملكون شيئا إزاءه ، وإزاء ما هو ماض فيه من استهواء
هذه الطائفة من الشبان والأحداث ، كالحجدي والعبدري ، إلى أن هبط
عليهم فرج الله من السماء ، إذ سبق إليهم أبو الوليد الباجي ، عائداً
من المشرق

قال القاضي عياض ، فيما نقله عنه المقرئ : « ولما قدم الأندلس (يعني
أبا الوليد الباجي) وجد لكلام ابن حزم طلاوة ، إلا أنه كان خارجا عن
المذهب ، ولم يكن بالأندلس من يشتغل بعلمه ، فقصرت السنة الفقهاء عن
مجادلته وكلامه ، واتبعه على رأيه جماعة من أهل الجهل ، وحل بجزيرة
ميورقة فرأس فيها ، واتبعه أهلها ، فلما قدم أبو الوليد كلوه في ذلك ،

فدخل إليه وناظره وشهر باطله . وله معه مجالس كثيرة ^(١) . » .

كان أبو الوليد الباجي هذا شخصية علمية كبيرة ، قرطبي المولد كابن حزم ^(٢) . ولكنه أصغر منه سناً ، فقد ولد سنة ٤٠٣ ، واعتمد على نفسه في تحصيل العلم . ثم لم يكديبلغ مبلغ الرجال ، حتى بدأ رحلته إلى المشرق ، ولبت في رحلته هذه ثلاثة عشر عاماً ، ينتقل بين أنحاء الشرق المختلفة ، ويعقد صلاته بعلمائه ، سواء منهم علماء الحديث أم علماء الكلام ، « فبرع في الحديث وعلمه ورجاله ، وفي الفقه وغوامضة وخلافه ، وفي الكلام ومضايقه » كما يقول المقرئ ^(٣) . وقد أفاده هذا التجوال في البلاد قوة في الشخصية ، ولباقة في تناول الأمور وحسن تأت لها ، وهذا إلى أنه نشأ أديبا يقول الشعر ، ويحسن تدبيج الكلام . وقد استطاع في رحلته هذه أن يظفر بتقدير علماء المشرق له ، وإعجابهم به ، حتى كان يلقب عندهم بشيخ الأندلس .

وعاد من رحلته هذه إلى الأندلس ، يسبقه إليها صيت يهز مشاعر الأندلسيين ، ويملاً نفسه ما لقيه من تقدير ، وما حصله من علم ، وما أفاده من تجربة . فلم يكدي يضع قدمه في موطنه الأول ، ويتنسم نسائمه ، ويدخل البيئات العلمية التي تركها منذ ثلاثة عشر عاماً ، حتى كان من أول ما راعه

(١) نفح الطيب ١ : ٣٥٩ .

(٢) هكذا قال ابن بشكوال لأنه من أهل قرطبة (الصلة ص ١١٩) ، وقال المقرئ (١ : ٣٦٤) : « وأصله من بطليوس وانتقل جده إلى باجة قرب أشبيلية » . ولا تعارض بين القولين .

(٣) نفح الطيب ١ : ٣٦١ .

هذه الأصداء التي تتجاوب باسم ابن حزم ، ومهاجته لجميع الفقهاء المتقدمين ،
وفي مقدمتهم مالك ، إمام ذلك الأفق منذ عهد بعيد . وها هم أولاء فقهاء
ميورقة يتشوقون إليه ، ويتطلعون نحوه ، ويمدون برجائهم إلى قوة ذهنه ،
وسعة معارفه ، وحضور شاهده ، وقدرته على الجدل ، وشدة حماسه للإمام
مالك . أليس هو صاحب هذه الكتب الكثيرة الذائعة في شرح المذهب
وبيان أصوله ؟ أليس هو المتمرس بالجدل في مجالس فقهاء بغداد ، كأبي
الطيب الطبري ، وأبي بكر الخطيب البغدادي ، وأبي إسحاق الشيرازي ؟
أليس هو تلميذ أبي جعفر السمناني المتكلم بالموصل ، وقد أقام معه سنة كاملة ،
حذق فيها أساليب المتكلمين ، وعرف مسالكهم ^(١)

بهذا المستقبل فقهاء ميورقة أبا الوليد الباجي ، وبذلك أثاروه على ابن حزم .
وانعقدت المناظرات بين الرجلين ، لا في الفقه فقط ، بل في الكلام
أيضاً ، فقد كان أبو الوليد الباجي مقدم الأشاعرة في الأندلس ، والمتحدث
بلسانهم ، وبين ابن حزم والأشاعرة مانعرف من خصومة ^(٢) . ولا ريب
أن ابن حزم لقي خصما من نوع جديد ، جعله يقول فيه : « لو لم يكن لأصحاب
المذهب المالكي ، بعد عبد الوهاب ، إلا مثل أبي الوليد لكفاهم » ^(٣) .
وأكبر الظن أن ابن حزم أنس أول أمره بهذه الخصومة ، وبما أتاحته
لمجالسه من نشاط وحيوية ، لعلهما كانا يشوقانه في هذه الجزيرة . ولكن
الخصومة العلمية لا تلبث حتى تذهب مذهب اللجاجة ، فإذا هي مرتع

(١) انظر في أبي الوليد : الصلاة ، ص ٩٩ ، نفح الطيب ١ : ٣٥٩ ، معجم الأدباء

١١ : ٢٤٦ .

(٢) انظر شيئا مما كان بين ابن حزم والباجي في الفصل ١ : ٨٨ ، ٤ : ٢٠٨

(٣) نفح الطيب ١ : ٣٦٠ .

جُصِبَ تعيث فيه شهوات النفوس ونزعات القلوب ، والضغائن المستسرة
والأحقاد الكامنة . وكذلك كانت هذه المناظرات والخصومات العلمية
مشاراً لكل ذلك ، وإن طابت بها نفس ابن حزم للوهلة الأولى ، فإنها لم
تلبث أن أثارت عليه ما أزعجه عن ذلك المقام

ولسنا نعلم على وجه اليقين الوجوه التي أخذتها هذه الخصومة ، والملايسات
التي لا يستبها . ولكننا لا نبعد أن تكون هذه الخصومة قد أتاحت للدسائس أن تجد
طريقها لدى السلطان ، ولا ندرى إن كان ممثل السلطان في ميورقة كان لا يزال
أحمد بن رشيق أم كان قد تغير . على أنه مهما يكن من شيء فقد كان أبو الوليد
الباجي من الشخصيات المرنة التي تحسن عقد الصلة بالسلطان ، ولعل تلك
المرونة كانت مما أفاده من رحلته الطويلة . وإنهم ليحكمون عنه أنه قال لبعض
أصحابه ، وقد ذكر له صحبة السلطان : «لولا السلطان لنقلتنى الذر من الظل
إلى الشمس» ^(١) ، إلى غير ذلك ، فلعل هذه الملابس للسلطان كان لها أثرها
في بلوغ تلك الدسائس غايتها ، حتى لم يجد ابن حزم بداً من أن يترك ميورقة .
وهكذا بدأ صاحبنا من جديد يضرب في الأرض ، وينتقل بين هذا
الإقليم وذاك ، يعاني ما يعاني من أحقاد الفقهاء وضغائنهم ودسائسهم ،
وهو ماضٍ في الدعوة لمذهبه ، وجمع التلاميذ حوله أينما حل ، يقرأ عليهم ،
ويقرر لهم رأيه ، مطبقاً على أبواب الفقه ، وعلى مسائل الكلام
وأخيراً انتهى به المطاف إلى أشبيلية ، ثم إلى لبلة ، منبت أسرته ،
وموطن أسلافه ، كما مضى القول أول هذا الحديث

(١) نفح الطيب ١ : ٣٦٢ (ط بولاق) .

ولا ندرى على وجه الضبط ما الذى دفع ابن حزم إلى أشبيلية؟ أهو الحنين الخفى إلى ذلك الإقليم الذى كان بالقرب منه منشأ أسرته وأجداده الأولين؟ أم لأنه كان يتوسم الخير فى هذه الإمارة الواقعة إلى أقصى الغرب كما توسم الخير فى ميورقة الواقعة فى أقصى الشرق، وكان يرجو أن يجد فى صاحب أشبيلية ما وجدته فى أمير ميورقة؟ أم أنه وقد خبر الشرق - وكان مناط أمله لمكان العامريين به - فلم يحمده، مضى إلى الغرب علّه يستطيع أن يقر فيه ويهدأ به؟ أم أنه كان هنالك شىء آخر غير تلك العوامل النفسية من الملابس الخارجية، يرجع إلى ما كان بين الشرق والغرب من صلة فى ذلك الوقت، تتمثل فى الحلف الذى كان بين العامريين والعباديين، وفى الصهر الذى كان بين مجاهد العامرى صاحب دانية والجزائر الشرقية، وبين المعتضد العبادى صاحب أشبيلية.

مهما يكن من أمر، فقد كانت أشبيلية فى ذلك الوقت أقوى الإمارات الأندلسية جميعاً، وكان أميرها أقوى ملوك الطوائف قاطبة، وهو إذ ذاك المعتضد بن عباد، أبو عمرو، عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد. وقد ورث ملك أشبيلية من أبيه، بعد أن وطده، ومهد صعا به، وأذاع هيبته هذه الأسرة فى نواحي الأندلس كلها، وأخضع ما حول أشبيلية لها، وعقد ما بينه وبين شرق الأندلس بأن زوج ابنه عباداً هذا من ابنه مجاهد

العامري ، واستطاع بذلك أن يخلف هذا الملك لابنه ، وهو مطمئن
قرير العين .

وكان عباد من الشخصيات القوية الموفورة الحيوية ، فخلع على هذا
الملك رداء سابغاً من المهابة والأبهة ، واستطاع أن يبلغ من ذلك مبلغاً بعيداً
فقد كان كما يقول المراكشي في صفته : « أوحده عصره شهامة وصرامة
وشجاعة قلب وحدة نفس ، كانوا يشبهونه بأبي جعفر المنصور من ملوك
بنى العباس »^(١) .

وكذلك كان شأنه فيما يتصل بتقريب العلماء والمباهاة بالأدباء والأدب ،
فقد كان ذلك — كما قلنا — لوناً من ألوان الترف الذي يتنافس فيه ملوك
العصر ، وكان الرجل من ذلك على قدر مكانه بين الملوك ، وينقل ابن عذاري
عن ابن القطان قوله في صفة المعتضد ، بعد أن ذكر سطوته وسياسته وتدبيره
وجوده : « وكان لأهل الأدب عنده سوق نافقة ، وله في ذلك همّة عالية .
ألف له الأعلام أديب عصره ، ولغوى زمانه ، شرح الأشعار الستة ، وشرح
الحماسة ؛ وألف له غيره دواوين وتصانيف لم تخرج إلى الناس »^(٢) .
ولسكنه لم يكن يكتفى بذلك ، فكان ما يزال يعمل وسائله في استقدام هذا
العالم أو ذاك الأديب أو ذلك العظيم ، ليكونوا زينة لدولته ، كما يقول ابن
بسام : « وكانت لعباد همّة في اصطحاب الأحرار ، واستجلاب ذوي الأخطار
ينصب لذلك الحباطل ، ويعمل فيه الحق والباطل »^(٣) .

(١) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص ٩٧ (ط القاهرة ، ١٩٤٩ م) .

(٢) البيان المغرب ٣ : ٢٨٤ .

(٣) الذخيرة ، القسم الرابع — المجلد الأول ص ١٣٣

فليس يبعد عندنا أن يكون المعتضد ، وهذا شأنه ، هو الذي زين
لابن حزم أن يقصد أشبيلية ، فقصدها ، بعد أن نبأه كل مكان حله ،
وبرم به كل أمير نزل بجواره . لقد علت به السن ، فهو الآن شيخ كبير في
الستين أو ما فوقها ، فما أقر لعينه أن تطمئن به الدار ، حتى يأتيه أجله وهو
وادع قار . وكذلك مضى إليها ، واستأنف فيها مرحلة جديدة من مراحل حياته
التي وقفها على العلم والدرس ، وعلى تبصير الناس بما حجبته عن بصائرهم التقليد ،
وما صرفه عن إدراكهم التهاون في النظر والتدبر والتأمل ؛ وعلى الدعوة إلى
مذهبه ، ولم تزده الأيام ومحاربة الفقهاء له ، وتعرضه للكيد والأذى والتشرد
بسببه ، إلا إيماناً به ، وتفانياً في الدعوة إليه ، والمجادلة عنه والمكافحة دونه .

وكان من أخص تلاميذه في هذه الفترة أبو محمد ، عبد الله بن محمد بن
العربي ، وقد حكى هو تلمذته لابن حزم في هذه العبارة التي يوردها ياقوت
عن أبي بكر ، محمد بن طرخان ، قال : « وقال لي الوزير الإمام أبو محمد
ابن العربي : صحبت الشيخ الإمام أبا محمد علي بن حزم ، سبعة أعوام ، وسمعت
منه جميع مصنفاته ، حاشا المجلد الأخير من كتاب الفصل ؛ وهو يشتمل
على ست مجلدات من الأصل الذي قرأنا منه ، فيكون الفائت نحو السدس
وقرأنا الإيصال أربع مجلدات . . . ولم يفتني من تأليفاته شيء سوى
ما ذكرته من الناقص ، وما لم أقرأه من كتاب الإيصال . وكان عند الإمام
أبي محمد بن حزم كتاب الإيصال في أربع وعشرين مجلداً ، بخط يده ،
وكان في غاية الإدماج . قال : وقال لي الوزير أبو محمد بن العربي : وربما
كان للإمام أبي محمد بن حزم شيء من تواليقه ، ألفه في غير بلده ، في

المدة التي تجول فيها بشرق الأندلس ، قلم أسمع . ولى بجميع مصنفاة
ومسموعاتة إجازة منه ، مرات عدة كثيرة»^(١) .

ولا نكاد نعرف شيئا عن أبي محمد بن العربي هذا ، سوى ما يذكر
في سياق الحديث عن ولده أبي بكر ، أنه سمع منه ، وأنه رحل إلى المشرق
معه ، بعد انتهاء دولة العباديين ؛ وإلا ما يوصف به — فيما أورد ياقوت
— من وصفه بصفة الوزير الإمام . ولعله من بنى العربي الذين يشير إليهم
ابن عذارى ، ممن وطد الأمر للقاضي أبي القاسم بن عباد ، « من أكابر
أشبيلية المرتسمين بالوزارة » ، إلى جانب بنى الزبيدي وبنى مريم^(٢) .

وكذلك يذكر من تلاميذ ابن حزم في هذه الفترة الطرطوشي ،
أبو بكر ، محمد بن الوليد الفهرى ، المعروف بابن أبي رندقة ، صاحب سراج
الملوك ، ونزيل الإسكندرية وصاحب الضريح المعروف فيها ، على أنه لم
يذكر هذه التلمذة إلا المقرئ ، فقد نص على أنه « قرأ الأدب على أبي محمد
ابن حزم بمدينة أشبيلية »^(٣) . أما غير المقرئ كابن بشكوال في الصلة . والضمي
في بغية الملتمس ، فلم يشر إلى ذلك أحدهما ، بالرغم من عنايتهما ببيان شيوخه .
فالأمر إذن موضع شبهة ، فإذا علمنا أن المقرئ نفسه ، المنفرد بهذه
الرواية ، يذكر بعدها بقليل أن الطرطوشي ولد « سنة إحدى وخمسين
وأربع مائة تقريبا » ، أى قبل وفاة ابن حزم بخمسة أعوام فقط ، علمنا مبلغ
هذه الرواية من الصحة .

(١) معجم الأدباء ١٣ : ٢٤٢ — ٢٤٣ .

(٢) البيان المغرب ٣ : ١٩٥ . وانظر في أبي بكر ابن العربي : نفح الطيب ١ : ٣٤٠ .

تاريخ قضاة الأندلس للنباهى ص ١٥٠ ، بغية الملتمس ص ٨٢ ، الصلة ص ٥٣١ .

(٣) نفح الطيب ١ : ٣٦٩ .

ولم يطل بابن حزم المقام في أشبيلية ، حتى عاد إلى ما تعودته من معاناة
كيد الفقهاء له ، وسخط السلطان عليه ، وتجهم الجو حوله . أما الأمر
بينه وبين الفقهاء فطبيعي لا يحتاج إلى تفسير ؛ وأما الأمر بينه وبين السلطان
فإذا كان مرجعه من قبل إلى الوشائات وضعف الأمراء إزاءها ، وانسياقهم
وراءها ، فإنما مرجعه الأول هنا إلى طبيعة المعتضد ، ومزاجه المعقد ، على
النحو الذي تصوره سيرته ، وتجلوه أخباره ، في مختلف مصادرها ، ومن
شقي جهاتها .

كان المعتضد يمثل الرجل الذي أخذ منه سكر السلطان كل مأخذ ،
فهو لا يعبأ بشيء ، ولا يري أي حق ، ولا يقيم وزناً لأي اعتبار غير هواه
الطاغي ، ونزواته المتضربة ، وبدواته العارمة ، وقد فتنته هذه الحيوية
الدافقة المتسعة التي يفيض بها صدره وتلهب بها أحشاؤه ، أشد الفتنة ،
وأتمله ذلك الملك العريض الشامخ ، بالقياس إلى من حوله من الملوك
والأمراء ، وذلك النصر الذي مازال يحرزهم عليهم ؛ فهم بين خاضع له ،
مستكين إلى سلطانه ، قد أسلم له صاغراً ، فهو يحكم باسمه ويقضى بأمره ؛
وبين هارب منه ، آثر أن يدع بلاده له ، ويلتجئ إلى صاحب قرطبة ؛
وبين مواعد له ، إذ كان من القوة بحيث يستطيع أن يمنعه ، ولكنه

لا يملك فوق ذلك ، كابن الأفطس صاحب بطليوس . وبذلك لم يكن
للرجل مثل أعلى يسعى إليه ويحققه ، إنما هي نزواته وبدواته وشهواته
وخطراته ، تصدر عن طبيعة عارمة ، وتمدها ظروف موأمة ؛ هي التي توجهه
وتلون حياته وتطبع تصرفاته بطابعه ، فإذا هي مزاج من الخير والشر ،
وخليط مضطرب من الجمال والقبح ؛ وقد بلغت من هذا وذاك الغاية ،
فأفعاله الجميلة غاية في الجمال والروعة ، وكبائره الشريرة غاية في الشناعة
والبشاعة ، كما يقول ابن عذاري : « وأخبار عباد في جميع أفعاله ، وضروب
أنحائه ، عالياته وسافلاته ، غريبة بعيدة » (١) .

وبذلك كانت صورة المعتضد مقرونة في الأذهان بالرغبة والرغبة ،
والرجاء والخوف ، والحب والبغض ، إذ كانت نزواته قريبة لاتعفى شيئاً
مهما جل ، ولا تقف عند حد مهما كان . وكان ذلك شيئاً شائعاً متعارفاً ،
وقد أوردنا من قبل عبارة ابن بسام عن همته في « اصطحاب الأحرار ،
واستجلاب ذوى الأخطار » ، ولكن ابن بسام لا يلبث أن يعقب على
تلك الصفة بما يبين عدلها — وكان سياق الحديث عن ابن شرف القيرواني —
فقال : « حتى إذا عشوا إلى سرجه ، واغتروا بزبرجه ، سامهم ردّ قبيس
على أبيه ، وأخذهم بالسعاية بين الفرقد وأخيه ؛ فمن أعياء منهم ركوب
الصعاب ، وعضه القلب بين المضائق والرحاب ، عزه في الخطاب ، وأطاع
به سلطان الارتياب ، أيمسكه على هرن أم يدسه في التراب » . ثم
أخذ في الحديث عما ساق هذه الفقرات من أجله ، من خبر ابن شرف معه ،

وتفاديه لقاءه . وكان مما أورد له في هذا قطعة من الشعر ، تصور هذا المعنى
تصويراً بديعاً ، قالها وجعل الخطاب فيها للمعتضد :

أن تصيدت غيرى صيد طائفة	أو سعتها الحب حتى ضمها القفص
حسبتني فرصة أخرى ظفرت بها ؟	هيهات ! ما كل حين تمكن القرص
وظاهر حسن أيضاً لقصتها	لكن لها باطن في طيه قصص
الك الموائد للقصاد مترعة	تروى وتشبع ، لكن بعدها غصص
ولست أعجب من قوم بها انتشبوها	لكنما عجبى من معشر خلصوا
ولم يطب قط لى من يلدّ ولا	سلوى إذا كان في عقبها مغص

فهذا هو المعتضد الذى انتهى المطاف بابن حزم إلى مملكته ؛ وهذه
هى حقيقة حاله من وجهيهما ، وطبيعته الغالبة عليه ، المصروفة له ، أفكان
من الممكن أن يجد ابن حزم ، القلق بطبيعته ، المعتمد بنفسه وشخصيته ،
ما يرجو من الهدوء والرضا والطمأنينة في جوار ذلك السلطان ، الذى
ما تزال زعازعه وعواصفه وأعاصيره تملأ الجو حوله بكل معانى الاضطراب
والثقل والغدر والعبث ؟ أكان من الممكن أن يمضى هنا ابن حزم في سبيله ،
ويستمر فيما أخذه على نفسه من بث آرائه وإذاعة أفكاره ، التى لا يدين
بها لغير تفكيره هو ، ولا يصدر بها عن منطق غير منطق ، في صراحته التى
لا تتحرج ، وعبارته المبسوطه الماضيه التى لا تتوقف ولا تتلجلج ، دون أن
يقع في شيء ينكره السلطان ، أو في عبارة أو رأى يستغله ذو الحقد
والشأن ، فيطيرون به كل مطار ؟

وإذا كنا لا نستطيع أن نعرف على وجه التحقيق مثار الخصومة التي
 نشبت بين ابن حزم والمعتضد ، ومبعث الفتنة التي أحاطت به ، وعكرت
 الجو حوله ، فقد يكون فيما رأينا من طبيعة ابن حزم من ناحية ، وطبيعة
 المعتضد من ناحية أخرى ، ما عسى أن يكون حسبنا من ذلك ، وما يمكن
 أن نكتفى به عن تعقب الأسباب ، وتلخيص العلل ، وتتبع الحالات والمراحل .
 ولكننا مع ذلك نجد بين يدينا نصا منقولاً عن ابن حزم ، يعرض فيه لما
 انتهى إليه أمر الحكم في الأندلس ، بعد انتهاء دولة الأمويين ، ويعرض
 بتلك الخرافة أو الخدعة التي وطد عليها أساس الدولة العبادية في أيام والد
 المعتضد هذا ، أبي القاسم محمد بن عباد ، حين زعم للناس أن هشام بن الحكم
 الأموي لم يمت بعد ، وأنه حي يرزق يعمل الحلفاء وصناعة الحصر ، مخفياً
 متكرراً ، وأنه وفق إليه ، وأحضره عنده ، ورد إليه حقه ، وأقامه في أشبيلية
 خليفة كسابق عهده في قرطبة **١** وأنه وقد صار خليفة ، صير إلى ابنه إسماعيل
 حجابته . وتمت بذلك الخدعة الكبرى التي استغل لها رجلاً شبيهاً بهشام ،
 يقال له خلف الحصري ، فأمن بها من آمن ، وأذعن لها صاغراً من أذعن
 ولكنها كانت — على كل حال — العماد القوي الذي ابتنت عليه أسرة
 العباديين ملكها ، وشيدت عليه دولتها ؛ حتى أتيح لها ذلك المكان الممتاز بين
 ملوك الطوائف . فما عسى أن يكون الأمر حين يجيء رجل كابن حزم ،
 يعرض في أشبيلية نفسها ، بهذه الخرافة أو الأخلوقة على حد تعبيره ، على
 مسمع من المعتضد . وقد ظلت المنابر تتجاوب بالدعاء لإمامه ذلك « في

غياهب الحجب» كما يقول ابن عذارى ، إلى سنة ٤٥١ ، حين رأى من
الحزم أن يعلن موته

وهذا النص الذى بقى لنا من كلام ابن حزم يمثل لنا لونا من ألوان
مهاجمته لهذه الأسطورة ، وأكبر الظن أنه كان ما يزال يسوق مثل هذا
الحديث فى سياق كلامه عن الإمامة ، ووجوب توحيدها ، كما نعرف ذلك
من رأيه فيها^(١)

قال : « واجتمع عندنا فى صقع الأندلس أربعة خلفاء ، كل واحد
منهم يخطب له بالخلافة ، بالموضع الذى هو فيه . وذلك فضيحة لم ير مثلها ،
دلت على الإدبار المؤيد . أربعة خلفاء فى مسافة ثلاثة أيام فى مثلها ، كلهم
يدعى بأمر المؤمنين ، أخلوقة لم يقع فى الدهر مثلها . فإنه ظهر رجل يقال
له « المؤيد الحصرى » ، بعد اثنين وعشرين عاماً من موت هشام ، فادعى
أنه هشام ، وشهد له أنه هو قوم خسام من خصيان ونساء ، فبويع ،
وخطب له على أكثر منابر الأندلس ، وسفكت الدماء به ، وتصادمت
الجيوش فى أمره . وأقام المدعى أنه هشام نيفاً وعشرين سنة ؛ والقاضى
محمد بن إسماعيل فى رتبة الوزير بين يديه ، والأمر إليه . وكان محمد بن
القاسم الحسنى خليفة بالجزيرة ، ومحمد بن إدريس بمالقة ، وإدريس بن
يحيى بسيتة »

بمثل هذه العبارات الصريحة القاطعة التى تجمع إلى الصراحة السخرية
والتهكم ، كان ابن حزم يهاجم نظام الحكم فى الأندلس عامة ، والأساس

(١) انظر فى تفصيل رأيه هذا : الفصل ٤ : ٨٧ — ٨٩ .

الذي قام عليه حكم العباديين في أشبيلية وما حولها خاصة ، فيعرض تلك
الأسطورة التي عفى بنو عباد أشد العناية بتزويرها وحمل الناس عليها ، في
هذا المعرض . أفكان من الممكن أن يصبر المعتضد ، وهو من عرفنا ، على
هذا الهجوم السافر ، وهذه السخرية الممضة ، وذلك التهم اللاذع ؟ وأكان
من الممكن مع هذا ألا يجد فقهاء أشبيلية في ذلك فرصة يهتبلونها للإيقاع
بابن حزم لدى المعتضد ، حتى يبلغوا مأربهم ويشفوا حفيظتهم ، من ذلك
الذي اقتحم عليهم وسفه مذهبهم وأصغر شأنهم ؟

وهكذا تجتمع الأحقاد والضغائن مرة أخرى على هذا الشيخ الذي
ما يزال رغم شيخوخته ، ورغم مناوأة الأيام له ، متقد الحجة ، فتثير السلطان
عليه ، يطارده ويتعقبه ؛ فما يملك بعد إلا أن يدع أيضاً مقامه هذا ،
ويخرج من هذه القرية الظالم أهلها

ولم يبق لابن حزم إلا أن يمعن في الاتجاه إلى الغرب ، نحو ذلك
الأفق الذي نشأت فيه أسرته الأولى . ولعل ذاكرته كانت ما تزال تحتفظ
بما كان يقص عليه في طفولته ، من صور حياة هذه الأسرة هنالك ، فهي
الآن ماثلة له ، وقد عاد آخره على أوله . ومضى ابن حزم في هذا الاتجاه ، حتى
انتهى «إلى منقطع أثره ، بتربة بلده ، من بادية لبلة» على ما يقول ابن حيان

وكان أقليم لبلة (Niébla) ، قد صار إلى حكم المعتضد ، بعد طائفة من الحروب والمكايد والخدع ، مع صاحبها يحيى بن أحمد اليحصبي ، ثم مع ابن أخيه فتح بن خلف ، حتى خلع له تماماً ، سنة ٤٤٥ . وقد لجأ الرجلان إلى قرطبة واحداً بعد الآخر . وأنا لست أدري ما الذي كان يصرف ابن حزم عن قرطبة ، وقد كانت في ذلك الوقت ملجأ كثير من المغضوب عليهم ، ومأمن كثير ممن شردهم الخوف من عباد ، فهو يؤثر — كما نرى — أن يمضى إلى تلك البادية التي تقع تحت سلطان المعتضد ، على أن يعود إلى قرطبة ، معقّ تمانئه ، وملهى صباه ، ومسرح شبابه .

ترى أكان ابن حزم يؤثر أن تبقى له ذكرياته عنها صوراً عقلية خالصة ، فهو يراها في نفسه ، ويستمتع بها في خياله ، إذ كان يخشى أن تصطدم تلك الصور الحبيبة بالواقع البغيض هنالك ، بعد أن تغير كل شيء وتحول ؟

ربما كان ذلك هو الذى جعله يؤثر تلك البقعة المنقطعة ، يفرغ فيها لنفسه ، ويستشعر فيها الهدوء والدعة ، ويخلص فيها لتلاميذه ومريديه الذين رأوا فيه صورة جميلة تروّعهم وتبهرهم ، من صور الإخلاص للعلم ، والفناء في الحق ، في ذلك العصر الذى مسخت فيه الصور ، وتحطمت فيه المثل ، وفقد

فيه الشبان ما تهفو إليه قلوبهم الفضة ، وما يحرك فيها نوازع السمو على الخطوب ، ومدافعة أسباب الفساد ، ويرضى لديهم تلك المثل الرفيعة الكامنة في أعماقهم ، المستسرة في نفوسهم البريئة الطاهرة .

وهكذا قضى ابن حزم في ذلك المنقطع أيامه الأخيرة ، « يبت علمه فيمن ينتابه بباديته تلك ، من عامة المقتبسين منه ، من أصاغر الطلبة ، الذين لا يخشون فيه الملامة ، يحدّثهم ويفقههم ويدارسهم ، ولا يدع الثابرة على العلم ، والمواظبة على التأليف ، والإكثار من التصنيف ، حتى كل من مصنفاته في فنون العلم وقر بعير ، لم يعد أكثرها عتبة بابيه ، لتزهد الفقهاء طلاب العلم فيها » كما يقول ابن حيان (١) .

وهكذا استطاع ابن حزم أن ينتصر على الأحقاد والضغائن ، فيفوت السلطان ، ويغلب الفقهاء ، ويمضى مع ذلك في أداء رسالته بين تلاميذه ، وإذاعة كتبه ورسائله بين الناس ، ما وجد إلى ذلك سبيلا ، وإن قال ابن حيان إن أكثرها لم يعد عتبة بابيه . ومع ذلك فهذا القليل كان ما يزال كافياً لإثارة الفقهاء عليه ، والاستمرار في تحريش عباد ضده ، وإن مضى الرجل بعيداً عنهم ، إلى ذلك المعتزل القصي .

وأى شيء كان يملكه المعتضد في الاستجابة لهؤلاء الفقهاء لقاء هذا الشيخ الذي ناهز السبعين ، وقد ترك له أشبيلية ، ومضى بعيداً ، وانزوى في ذلك المنقطع من الأرض . ولكن إلا يملك شيئاً ينال به شخصه ، فإنه

(١) الذخيرة . القسم الأول — المجلد الأول ، ص ١٤١ — ١٤٢ .

يملك أن يؤذيه في كتبه وآثاره ، فلتحرق إذن كتبه ! فما أبلغه رمزاً ، وما أبلغها مظهرة بعيدة الأثر ، عميقة الدلالة ، شديد النكاية .

وهكذا حرق المعتمد كتب ابن حزم علانية في أشبيلية ؛ ووجد بذلك ذكرى حادثة مشابهة حدثت في قرطبة ، منذ مائة عام ، حين أحرق قاضي قرطبة كتب ابن مسرة . وقد ذكر أبو الحسين النباهي هذه الحادثة في الفصل الذي عقده عن القاضي أبي محمد يبق بن زرب . قال : « واعتنى القاضي بن زرب بطلب أصحاب ابن مسرة ، والكشف عنهم ، واستنابة من علم أنه يعتقد مذهبهم . وأظهر للناس كتاباً حسناً وضعه في الرد على ابن مسرة ، قرئ عليه وأخذ عنه ، وكان سنة ٣٥٠ استتاب جملة جيء بهم إليه من أتباع ابن مسرة ، ثم خرج إلى جانب المسجد الجامع الشرقي ، وقعد هناك ، فأحرق بين يده ما وجد عندهم من كتبه وأوضاعه ، وهم ينظرون إليه في سائر الحاضرين » ^(١) .

حدث غريب انفردت به — فيما نحسب — الأندلس بين بلاد الإسلام جميعاً .

وعرف ابن حزم الخبر ، هذا الوجه الجديد من وجوه الكيد له ، والصد عنه ، وقد ألف ضروب الكيد المختلفة ، فما عسى يزيده هذا اللون الجديد من سخيف الكيد ؟ وما عساهم يبلغون إليه بهذا العمل ؟ أتراهم

(١) تاريخ قضاة الأندلس ، ص ٧٨ . وانظر أيضاً ص ٢٠١ في الكلام عن : « من وجد بخطه شيء من المذاهب الفلسفية المخالفة للشرعية ، أو ما بمنزلتها ، في هذا المعنى » .

يستطيعون بذلك أن يمنعوه من أداء رسالته ؟ هيهات هيهات .
ولعله لم يزد عند ما بلغه هذا الخبر على هذه الأبيات يعبر بها عن
شعوره لقاءه :

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي تضمه القرطاس بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائي وينزل إن أنزل ويدفن في قبري
دعوني من إحراق رق وكاغد وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري
وإلا فعودوا في المكاتب بدأ فكم دون ما تبغون لله من ستر^(١)
وإنه ليتحدى في هذه الأبيات خصومه ، كما نرى ، أن يناظره
ويقولوا في كتبه بعلم ، لا هذا العبث الذي لجأوا إليه ، ثم يسمهم بميسم
الجهالة الجلاء ، ويمضي في سبيله التي لم يستطع شيء أن يصدده عنها ، والتي
يعبر عنها هذان البيتان من شعره :

منأي من الدنيا علوم أبشها وأنشرها في كل باد وحاضر
دعاء إلى القرآن والسنن التي تناسى رجال ذكرها في المحاضر^(٢)
وهكذا كان ابن حزم في هذه الفترة التي قضاها في غرب الأندلس :
صورة أخرى من صور جهاده المتصل . وإنه وقد بلغ هذه السن العالية ،

(١) الذخيرة ، القسم الأول — المجلد الأول ، ص ١٤٤ ، معجم الأدباء ١٢ : ٢٥٢

نفع الطيب ١ : ٣٦٧ .

(٢) الصلاة ، ص ٤١٠ ، بغية الملتبس ، ص ٤٠٥ .

متجاوزاً السبعين من العمر ، يتمثل الموت ، ويرى نفسه ، وقد فرغ من
هذه الحياة ، فيتعزى بهذه الآيات ، يقولها ويترنم بها ، يجد فيها شيئاً من
شفاء صدره :

كأنك بالزوار لي قد تناذروا	وقيل لهم أودي علي بن أحمد
فيارب محزون هناك وضاحك	وكم أدمع تدرى وخذلخدد
عفا الله عني يوم أرحل ظاعنا	عن الأهل محمولا إلى بطن ملحد
وأترك ما قد كنت مغتبطاً به	وألقي الذي آنست دهرأ بمرصد
فواراحتي إن كان زادي مقدما	ويانصبي إن كنت لم أتزود ^(١)

(١) الذخيرة . القسم الأول — المجلد الأول ، ص ١٤٤ .

ولم تلبث هذه الشخصية المكافحة المجاهدة أن سكنت وهدت ، ولم تلبث هذه الشعلة التي كانت كلما عصفت حولها العواصف ، وزارت حولها الأعاصير ، زادت توهجاً واشتعالاً ، أن انطفأت وخمدت ، ولم تلبث هذه الروح العاتية الغالبة أن استسلمت ومضت إلى العالم الآخر . و « توفي ، رحمه الله ، عشية من يوم الأحد لليلتين بقيتا من شعبان ، سنة ٤٥٦ هـ . فكان عمره رحمه الله ٧١ سنة وعشرة أشهر وتسعة وعشرين يوماً » ^(١) .

وقد ترك ثروة من آثار عقله الكبير وروحه النشيطة ، تعتبر إلى جانب قيمتها الذاتية ، مضرب المثل في وفرتها . قال صاعد الأندلسي : « ولقد أخبرني ابنه الفضل ، المكنى أبا رافع ، أن مبلغ تواليفه في الفقه والحديث والأصول والملل والنحل وغير ذلك من التاريخ والنسب وكتب الأدب والرد على المعارض تبلغ نحو أربعمائة مجلد ، تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة » ^(٢) . فلا عجب إذا قال أحد ملوك الأندلس المتأخرين وقد مر على قبره ، ووقف عليه بعد وفاته بمائة عام : « كل العلماء عيال على ابن حزم » ^(٣) .

(١) الصلاة ٤ ص ٤١٠ .

(٢) معجم الأدباء ١٢ : ٢٣٨ — ٢٣٩ .

(٣) نفح الطيب ٢ : ٨٠٣ (ط بولاق) .

فهرس الأعلام

(١)

- الإجماع : ١٢٧
الإجماع العام ٧٠
أحمد بن أبي الحاتم، أبو العباس : ١١٠
أحمد بن حنبل : ١٢١
أحمد بن رشيق الكاتب، أبو العباس :
١٩٨ ، ١٩٥ ، ١٩٣ ، ٣٣
أحمد بن سعيد بن حزم : ٢٩ ، ١٦
٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٤ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٤
أحمد الطيب : ٩٢
أحمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن
حزم : ٣٤
أحمد بن محمد الأزدي، أبو عمر : ٣٤
أحمد بن موفق ، أبو القاسم : ٣٤
أخبار الحكماء (كتاب) : ١٤٣
الأخلاق والسير (رسالة) : ٩ ،
٤٠ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١١٥ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٣٣
الأداسة : ٩٦
إدريس (ابن أخى القاسم بن
- حمود) : ١٣٥
إدريس بن يحيى : ٢٠٧
الإدريسي (صاحب نزهة المشتاق) :
١٨ ، ٨٢
أذفونش : ٦١
أرسططاليس : ١٦٩
الاستحسان : ١٢٢
استوريش : ٢٤
الاسكندرية : ٢٠ ، ٨٢
اسكنديناوة : ٢٤
إسماعيل بن عبد الله الرعيني :
٩١ ، ٩٢
إسماعيل بن يوسف ، انظر : ابن
النفراي
إسماعيل بن يونس : ٨٨
الاشاعرة ، الأشعرية : ١٦٩ ،
١٧١ ، ١٩٧
أشبونة : ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٥ ، وانظر : لشبونة
أشيلية : ١٨ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٥ ،
١١٩ ، ١٣٥ ، ١٦٥ ، ١٩٦ ،
١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٣ ، ٢٠٦ ،
٢٠٨ ، ٢١٠

لجمال شرائع الإسلام . إلخ
(كتاب) : ١٧٣

(ب)

باجة : ٣٥ ، ١٩٦
الباجي ، أبو الوليد : ١٩٥ ، ١٩٦ ،

١٩٧ ، ١٩٨

باديس بن حيوس : ٩٠

الباطنية : ٦٣

الباقلاني : ١٣٠

بجانة : ٩٢

البحر الزقاني : ١٩٠

البحر المتوسط : ٨٢

البحر المحيط : ١٨

البحر المظلم : ١٨

بحوث في تاريخ أسبانيا وأدبها في

العصور الوسطى لدوزي

(كتاب) : ٢٤ ، ٢٥ ، ٥٨

البربر ، البرابرة : ٥٢ ، ٥٩ ،

٦١ ، ٦٧ ، ٨٣ ، ٩٦ ، ١٠٠

١٠٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦

١٥٠

ابن برد : ١٣٨

ابن بسام : ٣١ ، ٧٨ ، ٩٠ ، ١٠٢

١١٦ ، ١٦٩ ، ١٨٨ ، ٢٠٠

٢٠٤

أشمول بن يوسف ؛ انظر : ابن
النفر إلى

أعمال الأعلام (كتاب) : ٨٣

الإفرنج ، الفرنجة : ٨٣ ، ١٠١

إفريقية : ١٨٦ ، ١٩٤

ابن الأفتس : ٢٠٤

ابن الأفليلي ، أبو القاسم : ١١٠

أكشونية : ٢٥

البونت ، قلعة البونت : ١٤٦ ،

١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٦٠ ، ١٧٦

١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨٥

أمالى القالى (كتاب) : ٣١

الأمويون ، الأموية ، الحزب

الأموى : ٥٧ ، ٩٥ ، ١٠٣

١٠٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٨

١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٥١

١٨٧ ، ١٨٦

الإنجيل : ١٦٨ ، ١٨١

أنطاكية : ٣٠

أهل الرأي ؛ انظر : الرأي

الأوزاعي : ٦

أوغسطين : ٢٠

إيزيدور الأشميلي : ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٧

الإيصال إلى فهم الخصال الجامعة

٢٠٤ ، ٢٠٠ ، ١٩٢ ، ١٥٢

(ت)

تاريخ أسبانيا الإسلامية لبروفيسور

(كتاب) : ١٧ ، ٣٤

تاريخ الطبري (كتاب) : ٧١

تاريخ قضاة الأندلس (كتاب) :

١٢٥ ، ٢١١

التاريخ الكبير في أخبار أهل

الأندلس (كتاب) : ١٧٧

تاريخ مسلمي أسبانيا لدوزي

(كتاب) : ١٤٣

ابن التبانى ، تمام بن غالب : ١٧٧

المتحقيق في نقض كتاب العلم الإلهي

لمحمد بن زكريا الرازي

(كتاب) : ١٧٢

التشبيهات (كتاب) : ١٧٧

التقريب في حدود الكلام

(كتاب) : ١٧٠

التقريب لحدود المنطق (كتاب) :

١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١

تليد الخصى : ٣٠

التوابع والزوابع (كتاب) : ١١٣

التوراة : ٨٩ ، ١٦٨

تولوز : ٢٤

البشندس : ١٠١

ابن بشكوال : ٣٣ ، ٢٥ ، ٧٠ ،

٧١ ، ٧٤ ، ١٤٤ ، ١٥٤ ،

١٧٧ ، ١٩١ ، ١٩٢

البصرة : ١٢٠

بطليوس : ١٩٦ ، ٢٠٤

بغداد : ١٣٠ ، ١٢٣ ، ١٩٧

بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل

الأندلس (كتاب) : ٣٤ ، ٣٥ ،

٧٠ ، ٧١ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٠ ،

٨٤ ، ١٢٥ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ،

١٨٦ ، ٢١٢

أبو بكر بن أحمد بن حزم : ٣٦ ،

٣٨ ، ٦٥ ، ٧١ ، ١١٣

بلاط مغيث ، بلاط المغيث : ٦٨ ،

٧١ ، ٨٤

ابن بلجين الغرناطي : ٥٨

بلنسية : ٨٣ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ،

١٠٣ ، ١٠٨ ، ١٤٦ ، ١٥٢ ،

١٥٣ ، ١٩٠ ، ١٩١

البلوي ، عبد الرحمن بن سليمان ،

أبو بكر : ٧٦ ، ٧٧

البليار (جزائر) : ١٩٠

البيان المغرب (كتاب) : ٣٣ ،

٩٠ ، ٩٦ ، ١٠٢ ، ١٤٨ ،

ابن تيمية : ٥

(ج)

الجاحظ : ١٣٠

الجارون (نهر) : ٢٤

جبل العيون : ١٨

جريثا جومز : ٥٨

الجزر البريطانية : ٢٤

الجزر الشرقية : ٨٣ ، ١٩٠ ،

١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٩

الجزيرة : ٢٠٧

ابن الجسور ، أحمد بن محمد ،

أبو عمر : ٧٠ ، ٧١

أبو جعفر المنصور : ٢٠٠

الجعفرى ، أبو سعيد الفتى : ٧٨

الجلالقة : ٥٢

جليقية : ٢٤

جنديسابور : ٢٠

ابن جنيس : ٥٨

(ح)

الحجاز : ١٩٤

الحديث : ٦ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٥ ، ٧٧

٧٨ ، ٧٩

ابن الحذاء ، أبو عمرو : ٧٢

حزم (جد صاحب الترجمة) : ١٤

٢١٨

١٧ ، ١٨ ، ٢٣ ، ٢٨ ، ٢٩

حسان بن مالك بن أبى عبدة : ١٣٨

الحسين بن على الفاسى ، أبو على :

٧٤ ، ٧٦

حصن القصر : ١٨ ، ٩٧ ، ١٠٠ ،

١٨٦

أبو حفص بن برد الأصفر : ١١٢

حكم بن سعيد القزاز : ١٤٧

الحكم الغزال : ٢٦

الحكم بن المنذر بن سعيد : ٩٢ ،

١٥٤

الحكم بن هشام : ١٩

الحماسة (ديوان) : ٢٠٠

الحمديون : ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٨٤

الحميدى ، محمد بن فقوح الأرزدى ،

أبو عبد الله : ٣٣ ، ٥١ ، ٧٤

١٧٠ ، ١٧١ ، ١٩٤ ، ١٩٥

الحيرى ، أبو عبد الله : ١٨ ، ١٩١

أبو حنيفة : ٦

ابن حيان ، أبو مروان ، ١٦ ، ٣٢

٣٣ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٧٨ ، ٨١ ،

١١٤ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٤٠ ،

١٦٩ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ،

١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٥ ، ٢٠٨ ،

٢١٠

(خ)

الخطيب البغدادي، أبو بكر: ١٩٧

ابن خلدون: ٣٠

خلف الحصري: ٢٠٦

ابن خلكان: ١١٤

خيران العامري الصقلي: ٨٣

٨٦، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٩

١٠٠، ١٠٣، ١٠٤، ١٢٣

١٤٢، ١٥٠، ١٥٣، ١٨٦

الخوارج: ١٧٦

الخولاني: ٧٢

أبو الخيار اللغوي: ٧٨

(د)

دانية: ٨٣، ١٤٢، ١٩٣، ١٩٩

داوود بن علي الأصماني: ١١٩

١٢٠، ١٢١، ١٢٩

ابن دحية: ٢٦

دردب (اسم صنم): ١٩

دوزي: ٢٤، ٢٥، ٥٨، ٩٢

١٤٣، ١٤٤

الدولة الرومانية: ٢٠

الدينوري، أبو بكر: ٧١

(ذ)

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة

(كتاب): ١٦، ٣١، ٥١

٥٢، ٥٨، ٦٢، ٧٨، ٨٩

٩٠، ١٠٦، ١١٠، ١١١

١١٣، ١١٥، ١١٧، ١٢٢

١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩

١٤١، ١٦٤، ١٧٠، ١٨٠

١٨٣، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩

١٩٠، ٢٠٠، ٢١٢، ٢١٣

ابن ذكوان، أبو العباس: ٣٣

الذهبي: ١٤

(ر)

الرأي: ٧، ١٢٠

رسالة ابن حزم في فضائل علماء

الأندلس: ٧٧، ٧٩، ١٢٥

الرصافة (في شمالي قرطبة): ٧٣

٧٥

الرمادي الشاعر، ابن جنيس: ٥٨

الرها: ٢٠

الرهوتى، عبد الله بن يوسف بن

نامي، أبو محمد: ٧١

الروض المعطار (كتاب): ١٨

٢٧

(ز)

الزاهرة: ٣١، ٣٦، ٦٣

زاوى بن زيرى: ١٠٣

الزبيدي : ٥٣

الزهراء : ٣١

(س)

سبقة : ٧٦ ، ٩٥ ، ٢٠٧

سردانية : ١٩٢

سرقسطة : ٨٠ ، ٨٣ ، ١٨٨

سكة الخطابين : ١١٩

السمناني ، أبو جعفر : ١٣٠ ، ١٩٧

السنة ، السنن : ٧ ، ٢١٢ . وانظر :

الحديث

السودان : ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦

السوفسطائية : ١٢٨

(ش)

شاطبية : ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٦٦ ،

١٧٦

الشافعي ، محمد بن إدريس : ٦ ،

١٢٩

الشام : ٨٢ ، ١٩٤

شاذجة : ٥٨

شدونة : ١٨ ، ٢٤ ، ٢٥

الشرف (إقليم) : ١٨٠

ابن شرف القيرواني : ٢٠٤

شلاطيش (جزيرة) : ١٨

شمال إفريقية : ٢١

شتجول ، شنشول ، عبد الرحمن

٢٢٠

الناصر لدين الله العامري : ٥٨

ابن شهيد ، عبد الملك : ٥٣ ، ١١٢

ابن شهيد ، أحمد بن عبد الملك ،

أبو عامر : ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣

١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٢٨

١٢٩ ، ١٤١ ، ١٧١ ، ١٧٧

١٧٨ ، ١٨٨

الشوكاني ، محمد بن علي : ٥

الشيرازي ، أبو إسحاق : ٩٧

الشيعة : ١٠٣ ، ١٢٤ ، ١٦٩

(ص)

صاعد بن أحمد الأندلسي : ١٠

٣٦ ، ١٤٣ ، ١٤٧ ، ١٦٩ ،

١٧١ ، ٢١٤

صاعد بن الحسن البغدادي .

أبو العلاء : ٣١ ، ٥١ ، ٥٢ ،

٥٣ ، ٦٢

صفة جزيرة الأندلس (كتاب

١٨ ، ٢٧ ، ١٩١

صفة المغرب وأرض السودان

ومصر والأندلس (كتاب) : ١٨ ،

١٩ ، ٨٢

الصقالبة : ٩٥ ، ١٠١ ، ١٥٠

الصلة في تاريخ أئمة الأندلس (كتاب)

٣٣ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٧٠ ، ٧٢ ،

٧٨ ، ١٢٥ ، ١٤٤ ، ١٥٤ ،

١٨٤ ، ١٩٢ ، ١٩٤ ، ١٩٦ ،

١٩٧ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ،

صنهاجة : ١٠٣ ، ١٤٦ ،

(ض)

الضبي ، أحمد بن يحيى : ٣٣ ، ٣٥ ،

٧٠ ، ٧١ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ١٧٠ ،

١٧٣ ، ١٧٧ ، ١٨٣ ، ١٩٣ ،

ضن العامرية : ٥٣ ،

(ط)

الطبري ، محمد بن جرير ، أبو جعفر : ٧١ ،

ابن الطبري ، محمد بن يحيى التميمي ،

أبو عبد الله : ٥٣ ، ٧٥ ،

٨٤ ، ١٠٨ ،

طرفة بن العبد : ٤٩ ،

طليطلة : ٢٠ ،

طوق الحمامة (كتاب) : ٣٦ ، ٣٩ ،

٤٠ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٦ ،

٤٨ ، ٥٠ ، ٥٤ ، ٦٣ ، ٦٥ ،

٦٦ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٣ ، ٧٤ ،

٧٥ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٤ ، ٨٨ ،

٩٢ ، ٩٥ ، ٩٨ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ،

١٠٩ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٤٩ ،

١٥٠ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ،

١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ،

١٦٢ ، ١٦٦ ،

أبو الطيب الطبري : ١٩٧ ،

(ع)

العاصمي (الشاعر) : ٥٣ ،

أبو عامر : ١٨٦ ،

العامريون : ١٨ ، ٣٠ ، ٥٧ ، ٣١ ،

٧٩ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ١٠١ ،

١٩٢ ، ١٩٩ ،

عبادة بن ماء السماء ، أبو بكر : ١١٣ ،

العباديون ، بنو عباد : ١٩٩ ،

٢٠٦ ، ٢٠٨ ،

العباس بن الأحنف : ٤٣ ، ٤٨ ،

عبد الجبار ، أبو طالب الشقري : ٥٨ ،

العبدري : ١٩٥ ،

عبد الرحمن بن بشر : ١٨٢ ، ١٨٣ ،

١٨٤ ، ١٨٨ ،

عبد الرحمن بن الحكم الأموي : ٢٥ ،

عبد الرحمن الناصر : ٣٠ ، ٣١ ، ٨٣ ،

عبد الرحمن الناصر لدين الله العامري ،

عبد الرحمن الحاجب ، شنجول : ٥٨ ، ٥٩ ،

عبد الرحمن بن هشام الناصري ،

المستظهر : ١٣٧ ، ١٣٨ ،

١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٣ ،

١٤٤

عبد العزيز بن عبد الرحمن بن

أبي عامر : ٨٣ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١٥٢ ،

عبد الغني الحافظ البصري : ٧٧

عبد الله بن إسحاق بن الحسن

المعافري : ٣٤

عبد الله بن ربيع بن بنوش : ٣٤

عبد الله بن قاسم الفهري : ١٤٦ ،

١٧٧

عبد الله محمد بن عبد البر النري : ٣٤

عبد الله بن محمد بن مغيث

الأنصاري : ٣٤

عبد الله بن هذيل التميمي ، أبو القاسم :

٩٧ ، ١٠٠ ، ١٨٦ ،

عبد الله بن يوسف الرهوني : ١١٨

عبد الوهاب بن حزم ، أبو المغيرة :

١٨ ، ٣٤ ، ٨٩ ، ١٢٢ ،

١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٦٤ ،

١٨٨

عبد الوهاب المالكي : ١٩٧

العبرية : ٢٠

ابن عذارى : ٣٣ ، ٥٧ ، ٩٠ ،

٩٦ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٤٦ ،

٢٢٢

١٤٧ ، ١٥٢ ، ١٩٢ ، ٢٠٠ ،

٢٠٤ ، ٢٠٧ ،

العراق : ١٤ ، ١٥ ، ١٨٣ ، ١٩٤

ابن العريف : ٥٣

العلم الإلهي (كتاب) : ١٧٢

علم العدد : ١٨٠

العلويون : ١٣٥ ، وانظر : الشيعة

على بن حمود الحسن ، الناصر :

٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٠ ،

١٠٣ ، ١٠٥ ،

على بن محمد بن أبي الحسين الكاتب

أبو الحسن : ١٧٧

ابن عمر : ١٢٠

أبو عمر بن عبد البر النري : ٣٤

١١٩

عيون الأنبياء (كتاب) : ٨٠

(غ)

غرناطة : ٩٠ ، ١٠٣ ، ١٤٦ ،

(ف)

الفتح بن خاقان الأشبيلي : ٣٧

ابن الفرصى ، عبد الله بن محمد بن

يوسف ، أبو الوليد : ٦٢ ،

٧٧ ، ٧٨ ،

الفرنجة : انظر : الإفرنج

فرنسا : ٢٤

الفصل في الملل والأهواء والنحل

(كتاب) : ٨ ، ٦٤ ، ٧٣ ،

٨٩ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ١٢٧ ،

١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ،

١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ،

١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٩٧ ،

٢٠٧

فضائل علماء الأندلس (رسالة) :

١٧٦

الفضل بن علي بن أحمد بن حزم ،

أبو رافع : ١٠ ، ١١٤ ،

(ق)

قادس : ٢٤ ، ١٠٤

القاسم بن حمود : ١٠٥ ، ١١٠ ،

١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦

القاسم بن يحيى التميمي ، أبو عمرو ،

١٠٩

القاضي عياض : ١٩٥

القال ، أبو علي : ٣١

القاهرة : ٥

القرآن ، الكتاب : ٦ ، ٧ ، ١٧١

٢١٢

القرشيون : ٥٧

قرطبة : ١٨ ، ٢٧ ، ٣٠ ، ٣٢ ،

٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٥٦ ، ٦٠ ،

٦١ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٦٨ ،

٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٦ ، ٧٨ ،

٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٤ ،

٨٥ ، ٧٧ ، ٨٨ ، ٩٥ ، ٩٦ ،

٩٧ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ،

١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ،

١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ،

١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٧ ،

١١٨ ، ١٢٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ،

١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤٠ ،

١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٧ ،

١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٧ ،

١٥٨ ، ١٦٣ ، ١٧٦ ، ١٨٢ ،

١٨٤ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٦ ،

٢٠٣ ، ٢٠٦ ، ٢٠٩ ، ٢١١

قريش : ١٨٧

القسطلي ، أبو عمر : ٥٣ ، ٦٢

قضاة الأندلس (كتاب) : ١٨٤

ابن القطان : ٢٠٠

الققطي ، علي بن يوسف الشيباني ،

جمال الدين : ٩١ ، ٩٢

قنتيش : ٦٠

مبارك العامري : ٨٣ ، ١٠١ ، ١٥٢

مجاهد العامري : ١٤٢ ، ١٥٠ ،

١٥٣ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٩

المجمع الكنسي الطليطلى الرابع : ٢٠

المجوس : ٢٤ ، ٢٥ ، ١٧٢ ، ١٧٣

المحلى بالآثار (كتاب) : ٨ ، ٥

٧١ ، ٧٣ ، ١٢٢ ، ١٢٥

محمد بن إدريس ، صاحب مالقة :

محمد بن إسحاق ، أبو بكر : ٩٧ ،

٩٨ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧

محمد بن إسماعيل ، القاضي : ٢٠٧

محمد بن الحسن بن فورك : ١٣٠

محمد بن زكريا الرازي : ١٣٠ ، ١٧٢

محمد وسعدى (كتاب) : ٨٠

محمد بن عامر ، أبو عامر : ٩٨

محمد بن عباد ، أبو القاسم : ٢٠٦

محمد بن عبد الرحمن الشافعى

الأموى : ٢٩

محمد بن عبد الله بن قاسم ،

أبو عبد الله ، صاحب البوننت :

١٧٦ ، ١٨٨ ، ١٧٩

محمد بن عيسى الأيرى : ٩٣

محمد بن القاسم الحسنى : ٢٠٧

محمد بن كليب ، أبو عبد الله : ٩٥

المختلف والمؤتلف فى أسماء الرجال

قوريس : ٢٥

القوط الغربيون : ٢٧

القياس : ٧ ، ١٢١ ، ١٢٢

القيروان : ٩٤

ابن القيم : ٥

(ك)

الكتاب ; انظر : القرآن

ابن الكتانى ، محمد بن الحسين

المدحجى ، أبو عبد الله :

٧٩ ، ٨٨

الكتب المقدسة : ٢٠

الكلام : ١٧٠

الكوفة : ١٩٢

(ل)

لبنة : ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٥ ، ٢٧

٢٩ ، ١٦٥ ، ١٩٨ ، ٢٠٨

٢٠٩

لسان الدين بن الخطيب - ٨٢ ، ٥٨

أشبونة : ١٧ . وانظر : لشبونة

(م)

مالقة : ٩٨ ، ١٣٥ ، ١٤١

١٨٦ ، ٢٠٧

مالك بن أنس : ١٩٧

المؤيد الحصرى : ٢٠٧

٢٢٤

المسجد الجامع الشرقى ، بقرطبة :

٢١١

مسجد أبى خالد ، بقرطبة : ٧٢

ابن مسرة ، محمد بن عبد الله الجبلى

الباطنى : ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ،

٢١١ ، ١٣٠

ابن المسيب : ١٢٠

المسيح : ٦٤

مصر : ٧٣ ، ١٩٤

مطمح الانفس (كتاب) : ٩١ ، ٣٤

المظفر ، عبد الملك بن أبى عامر :

٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٧٩

٨٣ ، ١٠١ ، ١٥٢

المعافى ، أبو أحمد الفقيه : ٩٣

المعتزلة : ٩٣ ، ١٢٠ ، ١٦٩ ، ١٧١

المعتضد بن عباد : ١٩٩ ، ٢٠٠ ،

٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥

٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠

٢١١

المعجب فى تلخيص أخبار المغرب

(كتاب) : ٢٠٠

معجم الأدباء (كتاب) : ١٤٣ ،

١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٩٤ ، ١٩٧

٢١٤

مقاتل البربرى : ٥٨

لابن الفرضى (كتاب) : ٧٧

المذهب الشافعى ١١٩ ، ١٢٥

المذهب الظاهرى : ١١٩ ، ١٢٠

١٢١ ، ١٢٥ ، ١٧٩ ، ١٨٧

المذهب المالكى : ١١٨

المراكشى ، عبد الواحد : ٢٠٠

المرتضى ، عبد الرحمن بن محمد :

٨٦ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ،

١٠٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٥٠

١٥١ ، ١٥٢

المرجئة : ١٦٩

المرية : ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ،

٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩١

٩٢ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧

٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١١٨ ،

١٤٢ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٨٦ ، ١٩١

المستظهر ، انظر ، عبد الرحمن بن

هشام الناصرى المستعين ،

سليمان بن الحكم : ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ،

٦٧ ، ٨٣ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٠٠

المستكفى محمد بن عبد الرحمن

الناصرى : ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ،

١٤٤ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٨٨

المستنصر ، الحكم بن عبد الرحمن

الناصر : ٢٩ ، ٣٠ ، ٨٦ ، ١٣٨

١٩٧، ١٩٨، ١٩٩

(ن)

الناصر الأموي، عبد الرحمن بن

محمد: ٣٠، ١٣٨

الناصر العباسي، أحمد بن

المستضيء: ٣٠

النباهي، أبو الحسن: ١٨٤، ٢١١

الترمانديون: ١٧، ٢٤، ٢٦، ٨٣

نزهة المشتاق في اختراق الآفاق

كتاب: ١٨

النصائح المنجية، من الفضائح

المنجية إلخ (كتاب): ١٣٠،

١٧١

النصارى: ١٣١، ١٦٨

النصرانية: ١٧، ٣٠، ٢٢، ٢٣

النظام، إبراهيم: ١٣٠

نعم (صاحبة ابن حزم): ٦٦

ابن النفري، ابن النفري، ابن

نفراثة: ٨٩، ٩٠، ١٧٥

نفح الطيب (كتاب): ٢٩، ٣١

٥١، ٦١، ٧٠، ٧٨، ١٣٩

١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٦

١٩٤، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨

٢١٤

مقبرة باب عامر بقرطبة: ٧٦

المقري، أحمد بن محمد، أبو العباس:

١٤، ٢٩، ٣٠، ٥١، ٥٩

٧٠، ٩٣، ١١٤، ١١٩

١٣٩، ١٩٥، ١٩٦

مكبح (اسم صنم): ١٩

منذر بن سعيد، أبو الحكم: ١٢٥

منذر بن يحيى التجيبي: ٨٣، ٩٩

١٠٣، ١٨٨

المنصور بن أبي عامر: ٢٩، ٣١

٣٢، ٣٦، ٣٧، ٥٢، ٥٣

٧٩، ٨٣، ١١٢، ١٣٨، ١٩٢

المنطق: ١٦٩، ١٧٠

المنفلت، عبد العزيز بن خيرة:

٩٠، ١١٠

منية المغيرة (ربض): ٣٦

المهدي، محمد بن هشام بن عبد الجبار:

٣٣، ٣٥، ٥٨، ٥٩، ٦٠

٦١، ٦٣

ابن مهدي: ٧١

موسى بن عبد الله بن الحسين

الطالبي: ١٩١

الموصل: ١٩٧

ميورقة: ١٨٥، ١٩٠، ١٩١

١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥

(هـ)

أبو الهذيل العلاف : ٩٢

هشام بن الحكم الأموي ، المؤيد ،

هشام آل عامر : ٢٩ ، ٥٨ ،

٥٩ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ،

٦٧ ، ٨٣ ، ٩٦ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ،

هشام بن سليمان بن الناصر : ٣٣ ، ٥٩ ،

هشام بن محمد ، المعتد بالله : ١٤٣ ،

١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ،

١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٤ ، ١٦٠ ،

١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ،

١٧٩ ، ١٨٤ ،

الهندسة : ١٨٠ ،

هولندا : ٢٤ ،

(و)

واضح العامري : ٦٢ ، ٦٧ ،

ابن وسجة الجنة : ٣٤ ،

ولبه (مدينة) : ١٨ ،

وهب الله بن حزم : ١٧ ،

وهران : ٨٢ ،

(ي)

ياقوت : ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٧ ، ١٦٩ ،

يحيى بن زرب ، أبو محمد : ٢١١ ،

يحيى بن أحمد اليحصبي : ٢٠٩ ،

يحيى بن عبد الرحمن ، أبو بكر : ٣٤ ،

يحيى بن عبد الكبير بن وافر : ٩٣ ،

يحيى بن علي بن حمود ، المعقل بالله :

١٣٥ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٥٠ ،

يزيد بن أبي سفيان : ١٤ ،

يزيد ، مولى فارسي ، الجلد الأعلى

لابن حزم : ١٤ ، ١٦ ،

ابن أبي يزيد المصري الأزدي ،

عبد الرحمن بن محمد : ٧٢ ،

٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ١٠٨ ،

اليهود : ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ١٣١ ،

١٦٨ ،

يوسف اللاوي : ٩٠ ،

اليونانية : ٢٠ ،

فهرس الموضوعات

تمهيد

أولى ذكريات المؤلف عن ابن حزم : نشر كتاب المحلى ومكان ذلك
من حركة التجديد الدينى . جملة صفات ابن حزم كما يحليها هذا الكتاب :
الاستقلال فى رأى والشجاعة الأدبية ، الإحاطة العلمية والقدرة العقلية .
الحياة الأدبية والعلمية فى الأندلس وواجبنا نحوها ، منهج البحث ص ٥ - ١٣

- ١ -

نسب ابن حزم وتمحيص القول فيه . أسرته الأولى وموطنها : أبله .
غرب أسبانيا ومكاته الدينية فى العصور الوسطى ، نشاطه الثقافى :
إيزيدور الأشيلى ص ١٤ - ٢١

- ٢ -

المجتمع الأسبانى بعد الفتح الإسلامى . بعض عوامل الاندماج بين
النصارى والمسلمين فى غرب أسبانيا . غايات النورماندين وموقف الدولة
الإسلامية منها . أثر هذه الغارات فى التجاء بعض أهل الساحل الغربى إلى
الداخل : افتراض أن أسلاف ابن حزم استوطنوا قرطبة فى هذه
الملايسات ص ٢٢ - ٢٨

- ٣ -

التاريخ الفرضى لهجرة حزم من لبله إلى قرطبة . صورة عامة للأندلس
فى أواخر العهد الأموى ، وفى أيام الدولة العامرية . تولى أحمد بن سعيد
ابن حزم منصب الوزارة فى الدولة العامرية . شخصيته . بعض النابهين من
أسرة ابن حزم فى ذلك الوقت ص ٢٩ - ٣٥

— ٤ —

مولد ابن حزم ونشأته : نشأة مترفة مقصورة . أثر هذه النشأة
في تكوينه . نشاطه الوجداني في هذه الفترة ، محاولاته الشعرية
الأولى ص ٣٦ — ٥٥

— ٥ —

المرحلة التالية في حياة ابن حزم : انقلاب في حياة الأندلس السياسية
وفي حياة ابن حزم الشخصية . الفتنة وأثرها في الحياة الأدبية والعلمية
والقيم الخلقية في قرطبة . جلاء آل حزم عن دورهم والتشكيل بهم . ألوان
من المحن أصابت ابن حزم خاصة . جلاؤه عن قرطبة ص ٥٦ — ٦٩

— ٦ —

اتجاهه في هذه المرحلة إلى التحصيل العلمي المنظم . شيوخه وأصدقاؤه
العقليون . مجلس ابن أبي يزيد المصري ، وأثره في تكوين شخصيته ص ٧٠ — ٨١

— ٧ —

ابن حزم في مدينة المرية . المرية وموقفها في زمن الفتنة . لم اختار
اللجوء إليها ؟ متابعته الدرس واتصالاته العلمية فيها . بدم ظهور شخصيته
العلمية المستقلة وروحه الجدلية . اضطراب الأمر في المرية واتهام ابن حزم
بالتدبير السياسي ضد صاحبها . اعتقاله ثم نفيه عنها ص ٨٢ — ٩٨

— ٨ —

مشاركة ابن حزم في الحياة السياسية مشاركة صريحة . اتجاهه إلى بلنسية
ليكون إلى جانب المرتضى الأموي ، ويؤازره في محاولة استحياء
الخليفة الأموية — سيره مع جيشه المتجه إلى قرطبة — وقوع القتال بين
هذا الجيش وجيش البربر أمام غرناطة وهزيمة الأمويين — أثر هذه
التجربة في شخصية ابن حزم — حنينه إلى قرطبة ص ٩٩ — ١٠٦

— ٩ —

عودة ابن حزم إلى قرطبة ومراجعة ذكرياتها — الحياة الأدبية في قرطبة في عهدها الجديد — صلة ابن حزم بابن شهيد ومظاهرها — صورة من إنتاجه الأولى في هذه الفترة ص ١٠٧-١١٧

— ١٠ —

دراسات ابن حزم الدينية في هذه الفترة — اتخاذ المذهب الظاهري — العوامل التي دفعته إلى ذلك — ظاهريته في الفروع والعقائد — دراسة ابن حزم للديانات والمذاهب والمقالات المختلفة — انصداع ما بينه وبين أهل عصره ص ١١٨-١٣٣

— ١١ —

نشاط ابن حزم السياسي في هذه الفترة — استشرافه لعودة الأمويين — ولاية المستظهر وتولى ابن حزم أحد مناصب الوزارة له — انتهاء عهد المستظهر وشيكا وقلته وتولى المستكني — المفارقة بين الرجلين — تشكيل المستكني بشيعة سلفه — أخذ ابن حزم سجيناً — سقوط دولة المستكني وخروج ابن حزم من السجن ص ١٣٤-١٤٢

— ١٢ —

رأى دوزى في انصراف ابن حزم عن السياسة تماماً بعد وزارته للمستظهر — القول بأنه وزير للمعتد — مناقشة القولين — صلة ابن حزم بهشام بن محمد المعتد ص ١٤٣-١٥١

— ١٣ —

اتجاه ابن حزم إلى بلاد العامريين في شرق الأندلس — في شاطبة — تأليفه كتاب طوق الحمامة — تاريخ الكتاب وملابساته وبواعثه

ص ١٥٢-١٦١

— ١٤ —

خلاص ابن حزم للعلم والدين والكفاح العلمي والمذهبي ، متجولاً في شرق الأندلس ص ١٦٢-١٦٥

- ١٥ -

كتاب الفصل ص ١٦٦ - ١٧٥

- ١٦ -

ابن حزم في قلعة البونت - ابن قاسم صاحب البونت كما يراه ابن حزم ،
رسالة ابن حزم في فضائل علماء الأندلس ، ودلالاتها - قصيدته إلى قاضي
الجماعة عبد الرحمن بن بشر ، ودلالاتها على أزمته النفسية ص ١٧٦ - ١٨٤

- ١٧ -

تصرم صلات ابن حزم القديمة - فساد ما بينه وبين ابن عمه أبي المغيرة
ص ١٨٥ - ١٩٠

- ١٨ -

ابن حزم في ميورقة - ميورقة أحد المراكز العلمية المرموقة في هذه
الفترة - أحمد بن رشيق صاحب الجزائر الشرقية - مجالس ابن حزم العلمية
في ميورقة - الحميدى ، من تلاميذ ابن حزم هناك - موقف فقهاء
ميورقة ضده وإثارتهم الأحقاد عليه - المناظرة بينه وبين أبي الوليد الباجي -
تركه ميورقة واستئنافه التجوال
ص ١٩١ - ١٩٨

- ١٩ -

ابن حزم في أشبيلية - المعتضد العبادى صاحبها - ابن العربي من
تلاميذ ابن حزم فيها
ص ١٩٩ - ٢٠٣

- ٢٠ -

كيد فقهاء أشبيلية ، فساد الأمر بينه وبين المعتضد - تركه أشبيلية
ص ٢٠٣ - ٢٠٨

- ٢١ -

ابن حزم في لبله ، أسباب إثاره هذه البقعة المنقطعة - نشاطه العلمى فيها -
حرق كتبه في أشبيلية ، وتعليقه على ذلك
ص ٢٠٩ - ٢١٤

- ٢٢ -

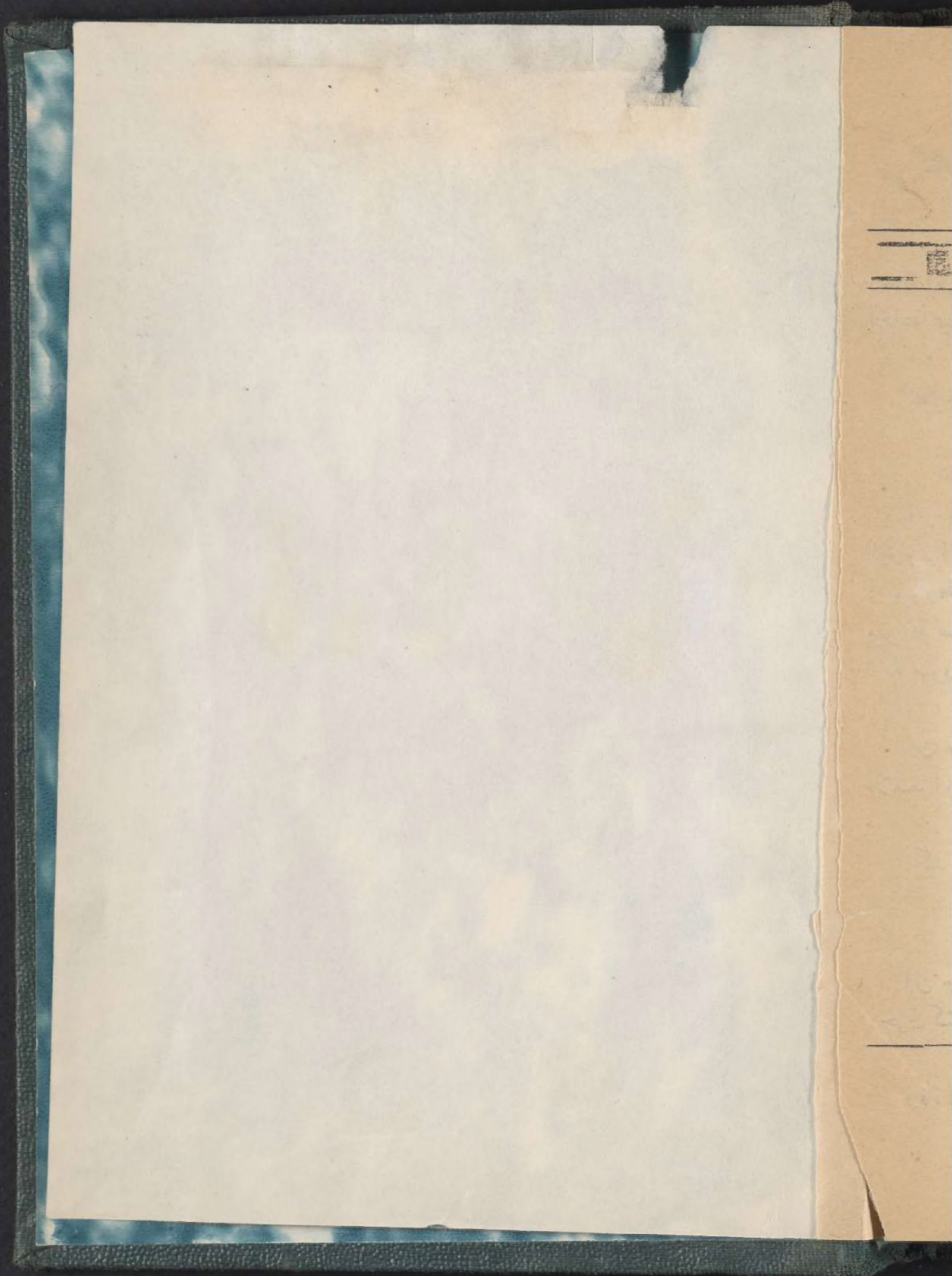
وفاة ابن حزم
ص ٢١٤

تصويبات

صوابها	الكلمة	س	س
رافع أبي الفضل	ابن الفضل رافع	١١	١٠
العلمي	العلمية	١٥	١١
محتوشا	محتوش	٣	٢٠
أهلها	إليها	٢	٢٥
مجوسى	مجوس	٨	٢٦
عما	أعما	٢	٢٧
ألى ترك ليلة	إلى ليلة	٥	٢٧
تعمل دائمة	دائمة تعمل	١	٣٠
من الحياة أثره في	من الحياة في	١٦	٣٩
الطبي *	الطبي	٤	٥٣
يكد	يكن	١٢	٥٩
فتيش	فتيس	٤	٦٠
الجانب الغربى	الجانب	٩	٦٨
العقلية	الفعلية	١٦	٨٠
ابن أبي يزيد	ابن يزيد	٩	١٠٨
المنقتل	ابن المنقتل	١٥	١١٠
بين	من	٧	١٢٢
بعقولهم	لعقولهم	١٦	١٢٨
بثورة القرطبيين به	بثورة به	٧	١٣٦
فقد عاش	فقد	١٤	١٤٣
إلزامات	إلزاميات	٧	١٧٥
التي	الذى	١٤	١٧٩
ويطاردونه	بطاردونه	٨	١٨٢
شعره	سفره	١٢	١٩٤
هوت	هرت	١٨	٢٠٤

(*) وكذلك يصحح هذا الاسم في سائر المواضع في الكتاب

شرا





1 0 0 0 0 0 8 2 9 0 0

BP
80
I 26
H3

BR A E

